

الفتوحات

الأسلامية

في فرنسا وإيطاليا وسويسرا
في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي

تأليف:

جوزيف رينو

تعريب وتعليق الحواشي
ونقديم: د. اسماعيل العزبي



الفتوحات الإسلامية

هذا الكتاب

ترجمة كاملة للكتاب الممنون :

Invasion des Sarrazins en France et de
France en Savoie, en Piémont et dans la Suis-
se, Pendant les huitième, neuvième et dixième
siècle de notre ère, d'après les auteurs chrétiens
et Mohamétans

تأليف

M.Reinaud

*Membre de l'institut (Académie Royale des
inscriptions et belles lettres) Conservateur-ad-
joint des manuscrits orientaux de la bibliothèque
Royale Paris, 1836*

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٩٨٤

تأليف :
جوزيف رينو

الفتوحات
الإسلامية
في فرنسا وإيطاليا وسويسرا
في القرون الثامن والناسع والعاشر الميلاديين

تعريب وتعليق الحواشي
وتقديم : د. اسماعيل العربي

نار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر



« والفتوحات الإسلامية كانت تكتسي طابعاً من الجلال والعظمة بحيث لا يمكن ان يقرأ انسان اخبارها أو يسمع رواياتها دون ان تتهز نفسه لها . وعلى عكس النور ما ندين والهنغارين ، كان المسلمون اجيالاً طويلة في طليعة قافلة الحضارة في العالم » .

إن هذا المقام لا يتسع لعرض صورة للمعجزات التي حققتها الحضارة الإسلامية في الأندلس . فمن ذا الذي لم يسمع بعظمة مسجد قرطبة ، ومن ذا الذي يجهل ما شيده المسلمون من الجسور ، وما شقوه من الأنهار والقنوات لري الأرض ، وما شيده من الآثار العظيمة في الأندلس ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثامن الميلادي ؟

ومعظمة المسلمين وتفوقهم لا يتجلى في الفنون وحدها ، بل إن عبقريتهم قد برزت في العلوم أيضاً - العلوم التي لا يمكن أن تقوم دعائم حضارة بدونها ، فقد كان العرب يملكون ذخائر علوم الأولين وكنوزهم ، وكانوا ترجموا إلى العربية كتب اريسطو وابقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطليموس وغيرهم واضافوا إليها مساهمات ثمينة إلى ما اكتشفه الأولون .

وهكذا ، فقد كان تفوق العرب حقيقة لا مرء فيها ويعترف بها المسيحيون انفسهم ... !!

والآن لنخصص فقرة أو فقرتين للحديث عن الآثار التي خلفتها الموجة الأولى لاحتلال المسلمين لفرنسا ، وهذه الآثار لا بد وأن تكون قد خلبت العقول في ذلك العهد ..

جوزيف رينو

فقدته العرب

ولد جوزيف توسن رينو (J.T. Renaud) مؤلف هذا الكتاب في لامبسك في سنة 1795، وتوفي في باريس في سنة 1868. ، وقد شغل في اواخر حياته منصب امين المخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية (المكتبة الأهلية حاليا) في باريس، وكان عضوا بالمعهد الفرنسي، كما كان استاذاً للغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، التي شغل منصب العميد فيها في وقت من الأوقات⁽¹⁾.

وهذا المقام لا يتسع لتحليل مساهمة رينو في التعريف بالعلم العربي في أوروبا، بل ولا حتى للتنويه بجهوده في خدمة الثقافة الاسلامية بما حققه ونشره من الدواوين الشعرية وكتب التاريخ والجغرافيا، فإن ذلك يتطلب كتابا مستقلا ، ولا يتسع نطاق مقدمة لواحد من كتبه . ومع ذلك ، فإن إيراد عناوين أهم كتبه أمر لا يخلو من فائدة، وهذه القائمة نفسها ولا سيما ما يتصل منها بالتحقيق تكفي لاقتناعنا بمدى إخلاص الرجل وتفانيه في خدمة التراث الاسلامي طوال حياته.

وأول كتاب ساهم فيه هو سلسلة التواريخ لسليمان التاجر الذي نشر

(1) انظر : المستشرقون ، لنجيب العقيق ، دار المعارف (189/1) ، 1964 مجلة المجمع العلمي العربي (162/5) تاريخ آداب اللغة العربية لرجي زيدان (164M4) .

انجلس نصه وترجمه الى الفرنسية في سنة 1815، وقدم له رينو بمقدمة، ثم نشر كتابه المعنون الآثار العربية والفارسية والتركية في ديوان الدوق دوبلاك (باريس 1828)، وملخص ما كتبه العرب عن الحروب الصليبية (1829)، والحروب الصليبية (مقتبس) من تاريخ ابن الاثير (1832)، وترجم الى الانجليزية قسما من اتحاف الاخضاء لشمس الدين السيوطي (نسبة الى جلال الدين السيوطي) (لندن 1836)، ونشر في نفس السنة الكتاب الذي بين يدي القاري (باريس 1836)، وقام بتحقيق ديوان امرى القيس لأول مرة بتعاون مع دوسلان (1837) ولكن اعظم آثار رينو، بدون شك هو تحقيقه مع دوسلان لكتاب تقويم البلدان للملك الصالح اسماعيل أبي الفدا، وترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية ترجمة قيمة بمساعدة جويار (في جزئين، 1848-1883) وقد ظهر الجزء الثاني بعد وفاة رينو، والمقدمة التي وضعها لكتاب تقويم البلدان والتي ظهرت في مجلد أكبر حجما من الكتاب المقدم له بعنوان: المدخل إلى جغرافية الشرقيين (1) (1848) تعتبر على الرغم من أهمية القسم الذي خصصه فيه لابي الفدا وكتابته، عملا مستقلا بنفسه وقد كان له أثر لا يضاويه أي كتاب آخر حتى ذلك الحين في إلفات نظر أوروبا إلى أهمية الاكتشافات والدراسات العربية في علم الجغرافيا والعلوم المتصلة به، مثل الفلك. وهذا العمل الذي لم يسبقه مثيل في البحث المتعمق والعرض الرزين في موضوع صعب يزيد من صعوبته أن المراجع التي اعتمد عليها المؤلف كانت لا تزال حتى ذلك الحين خطية كلها تقريبا. وقد قوّم المدخل المستشرق الروسي، اغناطيوس اكراتشكوفسكي، خلف رينو في موضوعه والذي سار على منهجه في كتابه العظيم تاريخ الأدب الجغرافي العربي (2) Introduction général à la geographie des orientaux

بالعبارات التالية : أما المقدمة العامة لرينو فإنها تتمتع بأهمية استثنائية، كما

Paris, 1848 (1)

(2) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، لكراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين هاشم، نشر الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية، 1957، 395/1.

حدث أن بينا ذلك في مقدمة كتابنا هذا ، لا لأنها كانت البحث الرئيسي للتعريف بأبي الفدا وجغرافيته على مر قرن من الزمان ، بل لأنها ظلت عشرات من السنين الدراسة العامة الوحيدة في تاريخ الجغرافيا العربية (ويصدق هذا بعض الشيء على الجغرافيا الفارسية والتركية ، ولم يحل محلها حتى الآن أي بحث آخر) .

وفي غضون الفترة 1847- 1853 قام بترجمة الأمثال من لغة مقامات الحريري ، وهو كتاب كان قد نشره دوساسي بعد تحقيق وإضافات معتبرة. وفي سنة 1845 نشر جزءا من نص فتوح البلدان للبلادري في ليدن مع ترجمة فرنسية، كما نشر في نفس السنة في باريس رحلات الرحالين العرب والفرس الى الشرق الأقصى في القرن الثالث الهجري. ومن مصنفاته ايضا فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الاسكوريال، وتاريخ المدفعية، ومذكرة عن الهند، وذلك خلا عدد كبير من البحوث والمقالات التي نشرها في مجلات الاستشراق، ولا سيما في المجلة الاسيوية عن المخطوطات العربية والعلاقات التجارية بين الروم وبلاد الشرق، والفسيفساء عند العرب، واللغة العربية في سوريا، والنار اليونانية، وفن الحرب عند العرب وغير ذلك.

كان أحد الناشرين قد عرض علي منذ نحو أربع سنوات وضع كتاب عن الفتوحات الاسلامية المنطلقة من الاندلس عبر البيرينيز في اتجاه فرنسا وإيطاليا، وقد بدت لي الفكرة على التو مغرية لطرافة الموضوع ولأصالته ولأن المهمة تتحدى عزيمة الباحث. وإثر ذلك شرعت في البحث التمهيدي لاستكشاف أبعاد الموضوع ولتحديد عناصره الاساسية ولوضع قائمة بالمراجع التي يمكن الاعتماد عليها.

ولكنني لم ألبث أن اكتشفت فيما يتعلق بالنقطة الاخيرة أنني أمام عقبة لا سبيل إلى التغلب عليها. فإن المعلومات التي تقدمها المصادر العربية التي تعرضت للموضوع يشوبها كثير من الغموض والتشويش، وباستثناء عدد من

المدن والاماكن المشهورة لا يتجاوز أصابع اليدين، فهي لا تعنى بتحديد اسماء الأماكن بسبب صعوبة كتابتها والنطق بها، كما أن أسماء الأعلام الاجنبية يعثرها كثير من التحريف بحيث يصعب التعرف عليها، وهي على العموم، إنما تعالج موضوع احتلال العرب لمناطق من فرنسا وإيطاليا في سياق الغزوات والحملات التي يسيرها خلفاء الأندلس للغزو والفتح. ونحن عبثا نحاول العثور على شاهد عيان سجل الاحداث بنفسه أو رواها عنه غيره، وروايات القدماء أنفسهم الذين كانوا معاصرين لبعض الفتوحات، مثل ابن القوطية (267 هـ)⁽³⁾ والذين جاءوا بعده بقليل لا يمكن استخلاص صورة متكاملة منها. وهذا الاعتبار يفسر لنا عدم عناية كبار المؤرخين المتأخرين مثل ابن خلدون وابن الاثير بموضوع هذه الفتوحات إلا في معرض الحديث عن بعض الأمراء وقواد الجيوش.

وكذلك بدا لي واضحا أنه لا بد للباحث لكي يقدم صورة تركيبه معقولة لهذه الفتوحات من أن يعتمد على ما سجله مؤرخو البلدان المفتوحة ممن كانوا يكتبون وقت وقوع الأحداث. وهؤلاء يوجد عدد لا بأس به منهم وقد تركوا روايات يسود بعضها التعصب الديني إلى جانب النعرة الوطنية، ولكنها، مع ذلك تحتوي على مادة حسنة ومفيدة متى عولجت بتيقظ وبروح من النقد.

ولكن الصعوبات التي تعترض استخدام هذه المصادر، كما اتضح لي فيما بعد، صعوبات لا سبيل إلى تذليلها. فإن معظمها كتب ضخمة الحجم يقع بعضها في عشرة مجلدات وأكثر، والأغلبية الساحقة منها لا تزال مخطوطات موزعة في مختلف المكتبات والأديرة، فضلا عن كونها كتبت باللغة الفرنسية القديمة أو بالبروفانسية، معتمى لم تكن مكتوبة باللغة الايطالية القديمة أو

(3) صاحب تاريخ افتتاح الاندلس - من الفتح حتى خلافة عبد الرحمن الثالث، قمنا بتحقيقه والكتاب الآن تحت النشر.

اللاتينية. وكذلك اقتنعتُ أن هذا المجهود الذي يتكلف نفقات طائلة يحتاج أيضا إلى التفرغ عدة سنوات للبحث، كما يحتاج إلى تدريب غير عادي في اللغات القديمة وكلها أمور لم تكن متاحة لي، مما دفعني إلى تسليم أسلحتي والاعتراف بعجزتي.

وفي غضون هذه الأبحاث التمهيدية وقعت على كتاب رينو الذي كنت أعرفه ولكنني لم أقرأه بسبب عدم إمكان الحصول على نسخة منه (والطبعة الأولى والأخيرة للكتاب نفذت في النصف الأول من القرن الماضي) وكذلك أمكنتني الحصول على نسخة مصورة عنه وعكفت على دراسته بتمعن.

والحقيقة هي أنني لم أكد أصل إلى منتصف مقدمته حتى اقتنعت بما لاحظته بين ثنايا سطوره من الروح العلمية والدقة في تحري الحقائق والتجرد إلى حد بعيد من الشوفينية العنصرية، بأن هذا الكتاب على قدمه، خليق بأن يسدّ الثغرة الملحوظة في المكتبة العربية. ونحن، يكفيننا، لتأكد من نزاهة المجهود العلمي الذي بذله المؤلف ومن سلامة منهجه أن نذكر بالفقرة التالية التي وردت في بداية مقدمة كتابه:

«أما الطريقة التي اعتمدناها فهي تلخص فيما يلي:

«لقد بذلنا أقصى الجهد لتخليص الحقيقة من الروايات الكثيرة والمتناقضة في كثير من الحالات، وركزنا على الرواية المعاصرة للأحداث، أو القريبة منها. وفي هذا السياق يجب أن نسارع فنقول إن بعض الشهادات التي خلفها كتاب مسيحيون، على الرغم مما يشوبها من النقص، قد بدت جديرة بالثقة في مجموعها.

«ومتى تطابقت الرواية العربية مع الرواية المسيحية اعتبرنا ذلك من حسن الحظ، وتعرفنا فيه على طابع الحقيقة. ومتى اختلفت الروايتان اقتصرنا على عرض كليهما وبيننا ما يبدو لنا أقرب إلى الصواب. ونحن قد اعتمدنا،

كلما كان ذلك ممكناً، على المصادر الأولى. وكذلك اعتنينا بذكر أسماء المؤلفين الأصليين الذين استقيناهم منهم معلوماتنا»⁽⁴⁾.

ومع ذلك فقد قاومت الفكرة التي راودتني وأنا أتصفح الكتاب لترجمته لسبب رئيسي، وهو أن الكتاب قد وضع في النصف الأول من القرن الماضي، قبل أن ينشر أي كتاب عربي في التاريخ، وكنت أسأل نفسي: كيف أترجم كتاباً ظهر قبل أن تتجمع لدينا أكوام الحقائق التاريخية التي تملكها خصوصاً عن الأندلس، بعد ظهور «أمهات» المصادر؟

ولكنني لم أكد أنتهي من قراءة الكتاب حتى أدركت أن هذا السؤال يتصل بالشكل أكثر مما يتصل بصلب الموضوع. وذلك أن هذه الأسفار العديدة المطبوعة طبعاً جيداً وأورديناً والحسنة التجليد دائماً، كانت تحت تصرف المؤلف الذي لا ننسى أنه كان مديراً لقسم المخطوطات في المكتبة الملكية، وقد استفاد من تلك الثروة من المخطوطات، على الرغم من أن الكتاب الواحد لا يوجد منه في معظم الحالات سوى نسخة واحدة، بطريقة تدعو إلى الدهشة والإعجاب معاً. وسيرى القارئ أيضاً أن المؤلف قد استفاد إلى حد ما من النصوص التي نشرها المستشرق الإسباني «كوندي»⁽⁵⁾ قبل ذلك ببضع سنوات.

على أنه بقيت أمامي، مع ذلك ثغرة أخرى، وهي كيف يمكن ربط محتوى الكتاب بمضمون التراث التاريخي المنشور؟ وهذه مهمة تكفل بها المترجم (وأجره على الله!) في الهوامش التي يحيل فيها القارئ إلى المصادر المطبوعة والتي استقى فيها المؤلف معلوماته وهي في حالة مخطوطات.

وفي هذا السياق تقتضي الأمانة أن نشير إلى أن الأصل يحتوي على

(4) نص الكتاب، ص 13.

(5) Conde, Historia de la Dominación de Los Arbes en España., 3vol., Madrid,(5) 1820.

هوامش يحيل فيها المؤلف إلى مصادره العربية وإلى مصادره الأوروبية المخطوط منها والمطبوع. وتجنباً للثقل والركاكة التي تترتب على إمضاء كل تعليق بكلمة « تعليق المؤلف » و« تعليق المترجم » أهملنا هذا التمييز الشكلي معتمدين على حصافة القارئ وفهمه. والقاعدة التي يمكن التمييز على أساسها بين النوعين من الهوامش هي أن الهوامش التي يُحال فيها إلى مخطوطات عربية وأوروبية وإلى كتب أوروبية طُبعت قبل سنة 1836، هي للمؤلف. وأما ما أُحيل فيها إلى كتب طُبعت بعد تاريخ نشر الكتاب، فهي من وضع المترجم. والتعريف باسماء الاعلام والاماكن ايضا كان مما نصب عنه اهتمام المترجم .

والهدف الاساسي الذي توخيناه من هذه الهوامش هو تحديث الكتاب وربطه، بالتصحيح والتقويم أو بالتأثير والتأكيد حسبما يقتضي الأمر، بالمادة التاريخية المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر، وكذلك كان التعرف على الاعلام من الأشخاص وعلى الأماكن الجغرافية المهمة بدون إطالة، لتمكين القارئ من تكوين فكرة واضحة بقدر الامكان عن الأحداث ومسارحها، هدفاً آخر لهذه الهوامش. وكذلك عنيّا بإثبات التواريخ الهجرية إلى جانب التواريخ الميلادية الواردة في النص وحدها في جميع الحوادث المهمة .

وأما الترجمة نفسها، فقد اقتضت مجهوداً متيقظاً وعناية خاصة بسبب التطور الكبير الذي طرأ على اللغة الفرنسية التي تعلمها المؤلف في القرن الثامن عشر، وذلك فيما يتعلق بمتن اللغة والأسلوب معاً. أضف إلى ذلك أن أسلوب المؤلف أسلوب علمي، بمعنى أنه خال من الصنعة والمحسنات التي من شأنها أن تقطع رتابة السرد لأحداث بعيدة جداً ولا تنطوي في خد ذاتها إلا على قليل من العنصر القصصي والحكاية المسلية. ونحن قد التزمنا الدقة والأمانة في الترجمة إلى أقصى حد ممكن وحرصنا على أن نؤدي المعنى وظل المعنى معاً، ومع ذلك، فقد حاولنا أن ندخل شيئاً من الحيوية على النص العربي كلما كان ذلك ممكناً، بدون انحراف عن اللفظ والمعنى الأصلي. وإذا أتيح للقارئ العربي أن يفطن

لذلك ويتذوقه فإنه سيكون في ذلك تعويض كاف على الجهد المضني الذي بذلناه في هذا العمل .

بقي أن أنه إلى أن كاتباً عربياً مشهوراً وهو المغفور له الأمير شكيب أرسلان قد عرف هذا الكتاب واقتبس صفحات كثيرة منه في كتابه «تاريخ غزوات العرب»^(٦) والأمير شكيب أرسلان الذي يدين له جيلنا من العرب بكثير من الاحترام والتقدير لتضحياته ولتفانيه في خدمة الأمة العربية رجل من الأفاض الذين أنجبته هذه الأمة وهو قد خلف عدداً من الكتب تدل على مجهود جدي في البحث وتحتوي على مادة غزيرة ولو أن البعض قد يجد أنها غير منظمة تنظيمياً علمياً بالمعنى الحديث للكلمة . وهذا شيء لا غرابة فيه إذا عرفنا أن الرجل تكون 'تكويناً سلفياً، على الرغم من معرفته بعدد من اللغات الأوروبية واقامته في أوروبا مدة طويلة .

وعندما انتبه إلى موضوع الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا لم يخطر بباله أنه يقوم ببحث أصيل على ضوء المراجع المتوفرة لديه في أوروبا والكتب العربية ، بل هو اقتصر على ترجمة كتاب باللغة الألمانية بعنوان « كتاب غارات العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر » لفرديناند كيلر» (وهو كتاب لم اطلع على نصه الأصلي، وبالتالي لا استطيع الحكم على قيمة ترجمته)، وعلى اقتباسات كثيرة من كتاب رينو الذي وصفه بأنه «أهم كتاب وضع في هذا الموضوع»^(٧) .

والملاحظات التي تفرض نفسها في سياق تقويم هذه الاقتباسات يمكن تلخيصها بإيجاز ، كما يلي :

(٦) الكتاب مؤرخ في ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢، وآخر طبعة له نشرتها دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦ .

(٧) ص ٣٠ .

1- إن الترجمة في كثير من الحالات غير دقيقة ، بمعنى أن معنى الكلمة العربية لا يتطابق ومعنى الكلمة الفرنسية ، أو قد يكون مغايراً له .

2- إن الكاتب العربي يخلط في نقله بين نص الكتاب تماماً وهوامشه ، هو مما ينجم عنه كثير من الالتباس والتشويش .

3- إن الكاتب العربي كثيراً ما يحاول - تحت تأثير شعور وطني نبيل ، بدون شك - تلطيف بعض الأفعال المشينة التي ارتكبتها العرب أثناء الحرب والاحتلال ، أو يهمل تماماً جملاً تمس بسمعة العرب ، وكأنهم معصومون ولا يرتكبون عملاً قبيحاً أو جريماً . والأمانة العلمية تقتضي إيراد أقوال المؤلف كما هي ، وللمترجم أن يعلق عليها ليوضحها وينفيها ، إن شاء ذلك .

4- وتعليقات المؤلف التي قد تشغل صفحتين أو ثلاث جلها سرد ونقل واستطراد لا مبرر له . وهو إذ ينقل عن كاتب عربي يقتصر على التقديم لما ينقله بكلمة « قال » دون أن يذكر الجزء الذي اقتبس منه أو الصفحة أو الطبعة التي أخذ عنها ، وهي منهجية مؤسفة من حيث أنه لا يستفيد من هذا النوع من الكتابة إلا الذين يقرأون للتسلية، وهو يفلت من كل قيد للرقابة والنقد . والذين يقرأون كتب شكيب أرسلان ، مثل « الحلل السندسية » و« تعليقاته على حاضر العالم الاسلامي » سيتذكرون أن المؤلف يسير دائماً على هذه المنهجية . وما يؤسف له أن كثيراً من الأغلاط الناجمة عن سوء الترجمة قد تسربت إلى أعمال المؤلفين المحدثين الذين وضعوا ثقة مفرطة في ترجمة الأمير شكيب أرسلان حينما ينقلون عن « تاريخ غزوات العرب » ، وفي مقدمة هؤلاء نخصص بالذكر خير الدين الزركلي الذي اتخذ هذا الكتاب مرجعاً أساسياً لكثير من تراجمه في كتاب « الاعلام » .

مقدمة المؤلف

كانت فرنسا في وقت من الأوقات تتعرض باستمرار لهجمات عنيفة يشنها شعب أجنبي بين الفينة والفينة . وهذا الشعب الذي كان قد أخضع اسبانيا وعدداً من البلدان المجاورة ، كانت له لغة خاصة به ودين جديد وكانت له عادات وتقاليد جديدة على أوروبا . وقد كانت المشكلة التي تواجه فرنسا وغيرها من البلدان الأوروبية التي لم يخضعها المسلمون ، هي ما إذا كان في إمكانها أن تحتفظ بأعز ما يملكه الانسان ، وهو : العقيدة الدينية والوطن والمؤسسات .

ولقد طالما تساءل الناس عن طابع هذه الهجمات التي كان يرافقها احتلال جزء من بلادنا ، ومن أين تأتي ، وما هي الظروف والتقلبات التي وقعت فيها ، وهل ينتمي الغزاة والفاخون كلهم إلى أمة واحدة ، الأمة العربية ؟ أم هل كان يوجد بينهم من ينتمون إلى مختلف البلدان ؟ وهل كان الغزاة والفاخون الذين تتفق أهدافهم يعتقدون كلهم عقيدة واحدة أو يوجد بينهم رجال من اليهود الوثنيين أو من المسيحيين ؟ وأخيراً ، ماذا كانت نتائج تلك الغزوات المتكررة ، وهل تركت أية آثار باقية حتى الآن ؟

وبعض هذه الأسئلة سبق أن كانت موضوعاً للدرس والبحث ولكن

أحداً، فيما أعرف ، لم يواجهها كلها ويحاول أن يستخلص منها النتائج العامة التي تفرض نفسها⁽¹⁾ .

إن معالجة مثل هذا الموضوع بكل أبعاده ، يتطلب الاعتماد لا على المصادر المسيحية فقط ، بل وأيضاً على المصادر العربية وشهادات الشعوب التي غلبت على أمرها ، والشعوب المنتصرة .

لقد لوحظ منذ عدة سنوات ما في روايات الكتاب الأوروبيين المسيحيين من القصور ، وذلك لأن عهد الفتوحات الإسلامية في فرنسا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعصر الكوارث الذي يمثل احلك الحقب في تاريخنا . فعندما بدأت هذه الفتوحات في سنة 712 م (94 هـ) ، كانت فرنسا بلداً ممزق الأطراف بين الشمال الذي كان يضم : مملكة « نوستري »⁽²⁾ (La Neustrie) ومملكتي « أوستراسي »⁽³⁾ (L'Austrasie) وبورجونيا (La Bourgogne)⁽⁴⁾ ، والجنوب الذي كان يشمل : « أكيانيا » (L'Aquitain)⁽⁵⁾ ابتداء من اللوار

(1) ومع ذلك لا بد من الإشارة الى كتابي:

Précis historique des guerres des Sarrasins, Par B... N.C.F., Paris, 1810 et
l'Histoire générale du moyen-âge, Par Desmichels, Paris, 1831.

(2) إحدى الممالك الميروفانجية التي تشكل حصّة « شيلبيريك » (Chilperic) الأول (539 - 584) م الذي أصبح ملك سواصون (Soissons) عقب تقسيم المملكة في سنة 561م. وكانت تشمل الأراضي التي تمتد بين اللوار وبروطانيا، وبين المانش والموز (la Meuse).
(3) المملكة الشرقية للجزل الفرنكية وكانت متز (Metz) عاصمتها (511 - 771م) وقد انتصرت على غريميتها « نوستري » وكانت مهد الأسرة الكارولينجية.

(4) منطقة في شرق فرنسا، وهي وحدة تاريخية أكثر منها جغرافية، تكونت فيها عدة ممالك، استولى الميروفانجيون على أولها في سنة 534م. ، وتكونت فيها مملكة ثانية في سنة 561م. ، وكانت أراضيها تمتد حتى شواطئ البحر الأبيض، وضمتها شرلمان إلى ممتلكاته في سنة 771م.

(5) حوض ذو شكل مثلث الاضلاع يمتد بين جبال « ارموريكان » وسلسلة الجبال الوسطى وجبال البيرينيز والمحيط الاطلسي واكيانيا منطقة تقسم في الوقت الحاضر خمس دوائر ادارية في فرنسا يبلغ عدد مجموع سكانها 255034 نسمة وقاعدتها مدينة يوردو .

(Le loire)⁽⁶⁾ حتى « البيرينيز » (Les Pyrénées)⁽⁷⁾ وأراضي بقايا الفيز جيوط⁽⁸⁾ الذين كانوا يحتلون جزءاً من « لانجدوك » (Languedoc)⁽⁹⁾ و « البروفانس » (La Provence) . ومن المعلوم أن ضعف بعض الملوك ومطامع الملوك الكبار قد أحدثت كثيراً من الاضطراب في الشئون الحكومية وفي المجتمع بصفة عامة ، وخلقّت مصالح متضاربة ، وقسمت السكان إلى شيوع وأحزاب . وتبعاً لذلك ، لم تصلنا سوى معبومات غامضة مشوشة عن هذه الحقبة من تاريخنا .

وبعد « بيبين » (Pepin) و « شرلمان » (Charlemagne) وبعد استعادة وحدة فرنسا السياسية تدريجياً ، أخذت الغيوم تتبدد في الأفق التاريخي والحقائق تظهر بوضوح . ولكنه في هذه الفترة بالذات أمكن صدّ غزوات المسلمين ودفعهم وراء حدود بلادنا .

ولما ظهر المسلمون من جديد في داخل حدودنا في عهد أبناء لويس لوديونيير (Louis le Debonnaire) وأحفاده ، أطبق الظلام من جديد على بلادنا وسادت الفوضى بكل ما تجرّه معها من أذبال . وكذلك سادت الدياجير مرة أخرى الأفق التاريخي ، حين أصبحت فرنسا مسرحاً ضخماً للنهب والسلب

(6) أطول نهر في فرنسا (1012 كيلومتر) ويمتد حوضه على 115000 كيلومتر مربع (حوالي

خمس فرنسا) تقع منابعه على ارتفاع 1400 متر في جبال « جيري دو جونك » .

(7) سلسلة من الجبال تمتد على مسافة 450 كيلومتر من خليج جاسكون حتى خليج ليون ، يبلغ ارتفاعها في أعلى قممها 3404 متر ، وسفوحها الشمالية تقع في فرنسا بينما تقع سفوحها الجنوبية في إسبانيا .

(8) « الفيزجيوط » (Wisigotts) قبيلة من القوط ، ظهرت في القرن الرابع الميلادي على ضفاف الدانوب ، وقد استولت على روما في سنة 410م ثم استقرت في الجنوب الغربي للجول في سنة 418 م . ومن هناك غزت جزءاً مهماً من إسبانيا واعتنقت المسيحية في سنة 711 م . ، وقهرتها العرب عند فتح إسبانيا .

(9) تمتد « اللانجدوك » بين الجويان والروسيون ، عاصمتها تولوز .

والمذابح . وفي هذه الأرض تواجد العرب والنورمانديون والمجريون ، وفي لقاء الغزاة واختلاط الأحداث يجد المؤرخ صعوبة في أن يعزو هذا العمل أو ذاك لفئة أو لأخرى . وروايات المؤرخين العرب الذين يتعرضون لأحداث متوغلة في أعماق التاريخ ليست دائماً مرضية ، وذلك لأن الذين كتبوا منهم عن الغزو العربي لفرنسا (أو على الأقل الذين وصلتنا كتبهم) إنما كتبوا ما كتبوا بعد مرور زمن طويل على تلك الأحداث .

ليس من شك في أنه كان يوجد بين الفاتحين رجال كانوا يهتمون بتوصيل أعمالهم العظيمة والمشرقة للأمة الإسلامية بصفة عامة ، إلى الأجيال القادمة . وفهارس الكتب العربية تذكر تاريخاً لموسى [بن نصير] كتبه أحد أحفاده⁽¹⁰⁾ وقصيدة عن طارق [بن زياد] منافسه في شرف الفتوحات ، نظمت بعد جيلين من فتحه الاندلس⁽¹¹⁾ . ولكن هذه الروايات التاريخية الأولى لا بد وأن تكون دون المستوى المطلوب ، حيث أن المؤرخين الذين جاءوا في العصور التالية فضلوا عليها الرواية الشفاهية⁽¹²⁾ ، ونحن يجب أن لا ننسى أن العرب لم يكن يهمهم في تلك الحقبة التي تمتاز بالحماس وبما تحقق خلالها من أعمال المجد ، سوى ما من شأنه أن يرفع من شأن دينهم ويزيده قوة وعظمة . وقد كان الأدب فرع الثقافة الوحيد الذي كان له إغراء حقيقى ، ولا سيما شعر المدح . وهذا النقص في الوثائق المكتوبة نحس به أيضاً في سياق الفتوحات والنجاح الذي أحرزته الجيوش الإسلامية في سورية وفي مصر وفي بقية أصقاع العالم القديم ، بصفة عامة .

(10) راجع : Gasiri, Bibliotheca arabico-hispana Escorialensis, T. II, p.139.

(11) نفس المصدر، ص 36

(12) ونحن لا نحيل هنا إلى تاريخ الغزوتين العربيتين للاندلس وهو الكتاب الذي يعزى إلى القاسم طريف بن طارق ، وهو أحد الذين شاركوا في هذه الغزوات ، لأن هذا الكتاب مزور حيث ، أنه إنما وضع في القرن السادس عشر بقلم ميجويل دولونا ، مترجم فيليب الثاني ، ملك اسبانيا .

والرواية التاريخية العربية المكتوبة ، ولا سيما ما يتعلق منها بموضوعنا ، تعود إلى ما بعد القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وبالتالي ، فهي وليدة عهد تنوسيت فيها ذكريات الأحداث جزئياً . ونحن نلاحظ على كل حال ، أنه توجد سلسلة هامة من الأحداث التي لا تشير إليها الرواية التاريخية العربية .

لقد كان لدى العرب من الوسائل ما من شأنه أن يمكنهم من معرفة الأراضي الداخلية الفرنسية والأراضي المجاورة لها ، حيث أنهم كانوا يحتلون جزءاً مهماً منها مدة طويلة . وفي العصور التالية كانت علاقتهم بهذه البلدان شبه مستمرة .

وسنرى في طيات هذا الكتاب أنه بغض النظر عن الغزوات والهجمات المسلحة التي كانوا يقومون بها من حين لآخر ، كان سفراء المسلمين يترددون كثيراً إلى هذه البلدان .

ومن جهة أخرى ، نخبّرنا المسعودي ، ضمن حوادث حوالي سنة 939 م = 328 هـ . أن أسقفا من مدينة « جيرون » (جريدة) من كتالونيا ، يسمى بـ « جودمار » قد أرسل في سفارة إلى الخليفة ، عبد الرحمن الثالث ، وأنه قد ألّف لولي عهده ، الحكم ، الذي اشتهر برعايته وحماسة للعلوم والمعرفة ، تاريخاً لفرنسا ، منذ عهد كلوفيس (Clovis) حتى عهده⁽¹³⁾ . ومن

(13) إن اسمي « جودمار » (Godmar) و « جيرون » جاءا محرفين مثل الفقرة كلها في معظم مخطوطات المسعودي (مروج الذهب) الموجود في المكتبة الملكية (المكتبة الأهلية حالياً) ولكننا التجأنا إلى استعمال مختلف النسخ ، ولا سيما تلك النسخة التي كان يمتلكها السيد « شولتز » والتي اقتنتها المكتبة مؤخراً . أنظر كذلك :

Degüignes, Mémoires de l'Academie des Inscriptions, Tom XLV, p.21;

D'Ohsson, Histoire des peuples de Caucase; paris, 1928, p. 123, le recueil

= espagnol intitulé «Espanà Sagrad, T.XL III, p. 126 et suiv.

المعلوم أن كتالونيه كانت تحت حكم فرنسا منذ عهد شرلمان ، وأن أسقف جيرون (Gironne) يعترف بسلطة « لويس دوترمير » ، وبالتالي ، يمكننا أن نعتقد أن هذه القصة التي تتعلق بتاريخ فرنسا صحيحة .
والمسعودي يصرح بأنه اطلع على نسخة من هذا الكتاب في مصر ، ولكننا مع الأسف ، لا نعرف شيئاً عن هذا الكتاب إلا بالكلمات القليلة التي ذكره بها .

ومن الصعوبات التي واجهت الكتاب العرب وثبُتت عزائمهم كثرة أسماء الأشخاص والأماكن التي يصعب كتابتها باللغة العربية ، إما لوجود حروفٍ فيها ليست في اللغة العربية ، وإما لتعذر النطق بها بسبب عدم التزام العرب بوضع حركات التشكيل ، وهذا بالإضافة إلى إهمال النساخ أحياناً نقط الحروف المعجمة . وكذلك نجد أن عدداً كبيراً من الأسماء الأوروبية التي لا مثيل لها في العربية كثيراً ما تظهر مشوهة بحيث لا يتعرف عليها أهل اللغة المنقول عنهم أنفسهم .

وهذا النقص في الشهادة المكتوبة ، كان يمكن أن تكون النقود التي ضربها المسلمون المنتصرون مكملته له ومصدراً مفيداً جداً للمعلومات . ونحن

انتهى تعليق المؤلف .

المترجم وفي سياق سفارة الاسقف جودمار الى قرطبة ، نلاحظ ان مدينة «جيرون» قد اصابها التحريف، فعلا في مروج الذهب (طبعة باريس - 70/3) وأصبحت « جريدة » كما اثبتناها في النص اعلاه بين قوسين، وأما اسم البلد (قطلوتيا) فهو غير وارد . ونحن نورد فيما يلي الفقرة التي يشير إليها المؤلف من كتاب « مروج الذهب » بنصها . قال المسعودي :

« ووجدت في كتاب وقع إلي بفسطاط مصر، سنة ست وثلاثون وثلاثمائة أهدها عرماز الاسقف بمدينة جريدة، من مدن الافرنجة، في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى الحكم بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، ولي عهد أبيه عبدالرحمن صاحب الاندلس في هذا الوقت المخاطب في علمه بأمر المؤمنين الخ. » .

نعرف مدى قيمة المعلومات التي تقدمها قطع النقد ، بصفة عامة ، ولا سيما في تحديد الأسماء والأماكن والتواريخ . ولكن عرب اسبانيا وفرنسا لم يكن لديهم قبل القرن العاشر (الرابع الهجري) سوى بيت واحد لسك النقود ، وهو بيت قرطبة ، عاصمة الخلافة . وأما قطع النقد التي وصلت إلينا مما ضرب قبل هذا التاريخ فإنها لم يكن ينقش عليها سوى آيات من القرآن ولا تحمل اسم الخليفة ، أو والي الولاية .

ونحن نستطيع أن نتأكد من هذه الحقيقة ، إذا تذكرنا الصعوبات العديدة التي واجهها العرب في الأندلس في المراحل الأولى ، والتي كانت قليلة بالقياس إلى ما لقوه أثناء استقرارهم في فرنسا .

يوجد كتاب حول احتلال المسلمين للأندلس نشر مؤخراً باللغة الاسبانية ويحتوي على معلومات قيمة ، وهو « تاريخ حكم العرب لاسبانيا » للمؤلف « كوندية »⁽¹⁴⁾ . وقد اعتمد الكاتب في تحرير هذا الكتاب على مخطوطات مكتبة الاسكوريال وعلى مخطوطات تضمها مكتبات أخرى خصوصية في اسبانيا . وعلى الرغم من أنه لم يطلع على المخطوطات التي تضمها المكتبة الملكية بباريس ، فقد توفرت لديه مادة غزيرة أكثر مما يمكن جمعه في أي مكان آخر ، إنه لمن سوء الحظ أن كوندي لم يتح له الوقت لمراجعة هذا الكتاب .

Historia de la Dominacion de Los Arabes en Espana, Madrid, 1820, 3 Vol. C14) in 4°.

وقد ظهرت له ترجمتان باللغة الفرنسية ، إحداها مختصرة ، والثانية كاملة . إحداهما بقلم « أوديفيري » (Audiffret) في la Continuation de l'art de Verifier les dates ، والأخرى بقلم مارلي (Marlès) وقد ظهر كتابا مستقلا . وكذلك أعد « افيزاك » (Avezac) ترجمة أخرى وافية ولكنها بقيت مخطوطة ، مع العلم بأن هذا الكاتب متضلع في تاريخ وجغرافية الأندلس وإفريقيا معا . وكذلك يقتضي الأمر أن نشير إلى كتاب آخر وضعه كاتب ألماني : والجزء الذي ظهر منه يعالج Lembke, Geschichte Von Spanien, تاريخ اسبانيا حتى سنة 822م .

وكذلك تنقصه روح النقد والتمحيص الضروري لمهمة صعبة مثل التي تحملها على عاتقه .

ويمكننا أن نشير إلى كتاب آخر يبدو أن كوندية كان يمكنه أن يستفيد منه كثيراً لو اطلع عليه . إنه عبارة عن مجموعة من الرسائل تحتوي على مادة تلقي ضوءاً على تاريخ اسبانيا تحت الحكم العربي⁽¹⁵⁾ . وهذا الكتاب الذي طبع في مدريد في سنة 1796 ، يستهدف نقد بعض الفقرات التي وردت في الجزء الثاني من « تاريخ اسبانيا » ، لماسدو (Masdeu) . والكاتب يبدي كثيراً من الحماس في تعقب الزلات التي وقع فيها الكاتب الذي ينتقده . وقد زعم أن بعض الفقرات المنقولة عن العربية محرفة ، ولكنه ، بالرغم من كل ذلك ، فقد اثبت كثيراً من الحكمة والاعتدال في نقده ، والمسائل التي يثيرها بشأن العناصر العرقية التي تنتمي إليها جيوش الفاتحين في الأندلس ، والعقائد التي يدينون بها ، وما نجم عن كل ذلك من الاضطراب والتطاحن بينهم فيما بعد ، مسائل كانت خليقة بأن تستوقف نظر الباحث كوندية .

ونحن حين أقدمنا على هذا العمل ، لم نحاول أن نخفي على أنفسنا العقبات التي تعترض طريقنا والتي من شأنها أن تعرقل طرق سيرنا ، ومع ذلك ، فقد بدا لنا من الممكن أن نضيف قدراً إلى المعلومات المعروفة في هذا الموضوع . وكذلك شجعتنا ظروف أخرى على المضي قدماً في هذه الطريق : فحتى بعض الغزوات العربية التي لم تكن توجد مصادر عنها سوى ما صنفه الكتاب المسيحيون ، اعتقدنا أن من الممكن أن نذهب فيها إلى أبعد مما ذهب إليه الأوائل مثل « موراطوري » (Muratori) و« دوم بوكي » (Dom Bouquet) وغيرهما من العلماء الاعلام .

Cartas para ilustrar la historia de la Espana arabe, 1vol., in 4^e, Par (15)
Faustins Borbon.

وقد أتيح له استعمال مخطوطات مكتبة الاسكوبال .

وأما الطريقة التي اعتمدها فهي تتلخص فيما يلي : لقد بذلنا أقصى الجهد لتخليص الحقيقة من الروايات الكثيرة والمتناقضة في كثير من الحالات ، وركزنا على الروايات المعاصرة للأحداث ، أو القريبة منها . وفي هذا السياق يجب أن نسارع فنقول إن بعض الشهادات التي خلفها كتاب مسيحيون ، على الرغم مما يشوبها من النقص ، قد بدت لنا جدية بالثقة في مجموعها .

ومتى تطابقت الرواية العربية مع الرواية المسيحية اعتبرنا ذلك من حسن الحظ وتعرفنا فيه على طابع الحقيقة . ومتى اختلفت الروايتان اقتصرنا على عرض كليهما وبينما ما يبدو لنا اقرب إلى الصواب . ونحن قد اعتمدنا ، كلما كان ذلك في وسعنا ، على المصادر الأولى . وكذلك اعتنينا بذكر اسماء المؤلفين الأصليين الذين استقيناهم منهم معلوماتنا . وهذا اما صنعناه ، مثلاً ، عند ذكر بعض الحوادث التي رجع فيها كونديه إلى الكتاب العرب .

ليس من شك في أنه كان الأولى بنا مراجعة المخطوطات الأصلية التي اعتمد عليها والتي لا تزال محفوظة في اسبانيا ، ولكن كونديه نفسه أهمل ذكر اسماء المراجع التي استقى منها معلوماته⁽¹⁶⁾ .

وفي ختام هذا الكتاب سنتحدث عن مختلف الشعوب التي اختلطت بالعرب والذين أوشكوا أن يخضعوا أوروبا كلها لحكم القرآن وهذه الشعوب نطلق عليها أحياناً اسم « ساراژان » ، وهو اسم مجهول الاشتقاق ولكنه يطلق على العرب الرحل عامة ، واسم البربر ، لأن العرب إنما دخلوا إلى الأندلس عن طريق أفريقيا الشمالية حيث انضم إليهم العديد من المقاتلين الافريقيين . وقد اتخذنا الاحتياطات الضرورية للتمييز بين غزوات المسلمين وغزوات النورمانديين والمجريين ، وغير هؤلاء من الشعوب البربرية التي انقضت على

(16) إن بعض أصول اقتباسات كونديه توجد اليوم في باريس محفوظة في مكتبة الجمعية الاسيوية ، ولكننا لم نجد في هذه المقتبسات شيئاً مهماً لغرضنا في هذا الكتاب .

ولايات إمبراطورية شرلمان الشاسعة بعد موته، وراحوا يتنازعون أوصالها التي أصبحت في حالة يرثى لها .

بينما كانت الجيوش الاسلامية تحتاح فرنسا وشمال ايطاليا وسويسرا وغيرها من البلدان كانت عصابات اخرى تنتمي إلى نفس البلدان قد ضمت لنفسها السيطرة على جزيرة صقلية والقسم الجنوبي لاطاليا . وهذه الغزوات الأخيرة ترتبط بالأولى ، ونحن قد اقتصرنا على الإشارة إلى الأثر الذي تركته إحدى هذه الأمواج من الغزو في الأخرى ، مع العلم بأن الرقعة الجغرافية التي جرت فيها، هائلة الاتساع .

توجد في عدد من البلدان التي احتلها المسلمون مدة طويلة نسبيا روايات وقصص عن هذا الاحتلال . فهنا يشير السكان إلى مكان القلعة التي كانوا يعتصمون بها وينشرون منها الذعر في الأرياف المجاورة ، وهناك مجاز على النهر يتولون حراسته ويأخذون إتاوة من العابرين فيه . وفي إحدى الأودية يطلعونك على مغارة ويقولون لك إن العرب كانوا يدفنون فيها اسلابهم وغنائمهم . . . وعلى قمم بعض الجبال تقف آثار أبراج شاهقة كانوا يتبادلون بواسطتها إشارات وينسقون حركاتهم العسكرية . فاما تلك القصص والأساطير التي لا تقوم على أثر ملموس ، فقد رأينا أن نستغني عنها ونهملها . ونحن نضرب مثلاً لما نقول : الرأي السائد بشأن « كاستيل - سرازين » (Castel- Sarrazin) ، وهو اسم مدينة تقع على ضفاف نهر « جaron » (Le Garonne) ، فإنه لا يكاد يوجد أحد في جنوب فرنسا لا يعتقد أن المدينة انما سميت بهذا الاسم لأنها كانت في الماضي قلعة محصنة في يد المسلمين . ومع ذلك ، فإن هذه التسمية إنما جاءت من اسم كان شائعاً في البلد ولحقه تحريف⁽¹⁷⁾ .

(17) من الواضح أن اسم Castel-Sarrazin إنما هو مشتق من الاسم اللاتيني : Castrum Cerrucium ، ويمكن الرجوع بشأن هذه التسمية إلى المصادر التالية :

وكذلك تجنبنا الدخول في تفاصيل بعض الأحداث التي لم يتورع بعض المحدثين عن الوقوف طويلاً عندها ويقدموا أدق التفاصيل عن ظروفها ، مع أن المؤلفين القدماء لم يقولوا عنها في بعض الحالات كلمة واحدة . وهذه القصص من اختراع بعض العقول التي تحب كل عجيب وغريب ، وخصوصاً من كتاب قصص الفروسية ، أو هي تقوم على تفسير مخطيء للأحداث . وقد بدا لنا أنه يكفي أن نشير عابرين إلى أغراض هذه القصص ومصادرها .

وبهذه المناسبة نرى أنه لا مفرّ من كلمة أو كلمتين عن بعض هذه القصص التي تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوعنا والتي كانت أساساً لبعض الآثار الهامة في الأدب الفرنسي القديم ، وهي بهذه الصفة ساهمت مساهمة قوية في تكوين آراء أجدادنا .

كان معاصرو الفتوحات الاسلامية يسمون المسلمين « وثنيين » لجهلهم بالعقيدة الاسلامية ولاعتقادهم أن المسلمين يعبدون محمداً . وفي مرحلة تالية ، في عصر الحروب الصليبية ، حين كانت أوروبا قد تخلصت من بقايا الوثنية ولم يبق للمسيحيين من عدو يقاتلونه سوى المسلمين ، أصبح « الاسلام » و « الوثنية » لفظين مترادفين في عرفهم . ولكن الملاحظ أن تسمية « الوثنيين » كانوا يطلقونها أيضاً على الفرنج الذين غزوا فرنسا قبل « كلوفيس » (Clovis) بل وكانوا يطلقونها كذلك على الاغريقين والرومان . فإن فصلا من تاريخ جيوم دوناجيس (Guillaume de Nagis) يبدأ بالعبارة التالية : « هنا يبدأ تاريخ ملوك فرنسا والمسيحيين والسّارازين »⁽¹⁸⁾ .

وكذلك نجد في القصة الفرنسية المعنونة « بارثنوبو » (Parthenopeus)

Le Gallia Christiana, T.I.P. 160, et Histoire générale du Languedoc,

Par Dom Vaissette, T.I. p. 544.

(18) راجع : Catalogus Cadicum bibliothecae Bermesii, par Sinner, T.II. p.244.

التي تصور عهد كلوفيس منظرًا يضم عددًا من رؤساء المسلمين (الساغازين)⁽¹⁹⁾. ومن هنا ، وما دام وصف « الوثنيين » يشمل المسلمين والرومان معا ، فلا عجب أن يعزو أكثر من كاتب واحد من كتاب العصور الوسطى الآثار الرومانية الموجودة في « دوفيني » و « ليون » و « فيان » و « أورانج » إلى المسلمين . وأكثر من ذلك ، فلا غرابة في أن تختفي أسماء الغزاة الآخرين وتتستر كلها وراء اسم المسلمين . فإن إهمال مصادر تاريخ فرنسا الحقيقي قد ترك المجال فسيحا للقصاصين المولعين بالعجيب والغريب لسرد حروب شارل مارتل وبيبين وشارلمان ضد الشعوب الجرمانية ، وكأنها كلها حروب ضد المسلمين .

وهذا ليس هو المصدر الوحيد للخلط والخطأ . فإن كتاب القصص رفعوا اسم شرلمان إلى قمة المجد بحيث غطى بظله كل من سبقه من الملوك ، بما في ذلك اسم جده ، شارل مارتل وابيه بيبين . وهكذا سجل كتاب القصص ، ومن بعدهم المؤرخون كثيراً من الحوادث الهامة التي وقعت قبله أو بعده باسم شرلمان . وكذلك نرى أن التاريخ المنسوب إلى أسقف « توربان » (Turpin)⁽²⁰⁾ يجعل جميع الغزوات التي قام بها المسلمون منذ عهد شارل مارتل حتى القرن العاشر الميلادي تقع في عهد شرلمان - بما في ذلك الحركة التي سارع فيها محاربون فرنسيون إلى انجاد المسيحيين في شبه جزيرة الأندلس حين

(19) Parthemopeus de Blois نشر 4^e in 2vol. Paris, 1834, Grapelet. وهذه القصيدة تصف الأندلس الإسلامية وهي مقسمة إلى عدد كبير من الدويلات (ملوك الطوائف) كما كانت في القرن الحادي عشر، وبالتالي، فإن هذه القصيدة لا ترقى إلى العصور المتوغلة في القدم.

(20) بعنوان: De vita Caroli Magni et Rolandi, éd. Ciampi, Florence, 1822. ويبدو من محتوى هذا الكتاب أنه كتب بعد سنة 1100م.

تعرض هؤلاء لتهديد مسلمي الأندلس والمسلمين الذين جاءوا من افريقيا⁽²¹⁾ .

وهذا أيضاً هو النهج الذي سلكه كاتب قصة « فيلومين » (Philomène) الذي يفترض أن المسلمين كانوا يحتلون كل جنوب فرنسا ، بينما كان ذلك في عهد شارل مارتل الذي طرد المسلمين من هذه البلاد قبل مولد شرلمان . ونحن لا نحتاج إلى القول بأن كل واحد من هؤلاء الكتاب الذين زحزحوا الأحداث عن العصور التي وقعت فيها كان يستعمل اللغة والتعابير الشائعة في عصره .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض المؤلفين الذين كانوا يكتبون في الوقت الذي كانت تجري فيه حروب بين ملوك فرنسا وكبار الاقطاعيين ، كانوا يضعون الحوادث اعتباطاً في عهد بيبين أو شرلمان ولكنهم كانوا يعزون شرف النصر الحقيقي أو الوهمي فيها ، إلى أجداد الأمراء الذين كانوا تابعين لهم . فهذه ، مثلاً ، هي الفكرة السائدة في قصيدة « جيوم القصير الأنف » والتي يلعب فيها جيوم ، كونت تولوز ، دوراً رئيسياً⁽²²⁾ وينسب إليه الشاعر طرد

(21) المقصود هنا الحروب التي وقعت بين ملوك الطوائف والنصارى وكان النصر فيها سجالاتاً وقتاً من الزمن قبل أن تشتد شوكة طليطلة . وحينئذ كتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين باسم عدد من ملوك المسلمين (سنة 463هـ = 1070م) فعبر الأخير إلى الأندلس على رأس جيش كبير انضمت إليه جيوش ثلاثة عشر من ملوك المسلمين وزحفوا على النصارى وسجلوا نصراً عظيماً في معركة الزلاقة المشهورة (سنة 479هـ) وقضوا على جيوش طليطلة . وقد بايع ملوك الأندلس بعد ذلك يوسف بن تاشفين باسم أمير المسلمين .

(22) Ciampi, Florence, نشر Gesta Caroli Magni ad Narbonam et Carcassoan (22) 1823 in 8° .

وأما قصة « فيلومين » فقد وضعت في وقت متأخر عن تاريخ تورين . وقصة Guillaume au-court-nez مكتوبة بالفرنسية وتتكوّن من نحو 80000 بيت من الشعر ، وتوجد نسخة مخطوطة منها في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 23 .

المسلمين من نيم واورانج ومن غيرهما من المدن الواقعة في جنوب فرنسا .
ونحن ندرك إلى أي مدى استطاع مؤلفو قصص الفروسية التأثير على نفوس الناس ، ولا سيما على الشعراء الايطاليين ، مثل « أريوست » (Arioste) وتضليل العقول بحيث أصبحت رواياتهم مصدراً للخلط والاضطراب .

من المعلوم أن المجريين (Les Hongrois) بعدما غادروا منازلهم على ضفاف الدانوب في القرن العاشر الميلادي وعبروا نهر « الراين »⁽²³⁾ الذي كان يشكل حاجزاً مانعاً وصلوا إلى فرنسا ووضعوا فيها النار والحديد . وعصابات المجريين والمسرح الواسع الذين كانوا يقومون فيه بأعمال التدمير والتخريب وأثر ذلك في العمران ، كلها أمور تذكرنا بعصابات الوندال الذين انطلقوا من نفس المواقع منذ خمسة قرون ، وسلكوا نفس الطريق تقريباً ، وأتوا بنفس الأعمال في فرنسا . وقد حدث أنه كانت توجد في صفوف المجريين عدة قبائل من الصقالية تحمل اسماء مثل « فينيد » (Venèdes) أو « فند » (Vende) . ويبدو أن عدداً من الكتاب الألمان والفرنسيين ، ولا سيما الشعراء ، أرادوا ربط صلة القرابة بين المجريين والوندال الذين لا يزال اسمهم يدل على أفظع أنواع البربرية والوحشية التي عرفتتها البشرية ، فاطلقوا اسم الوندال (الذي يكتبونه أيضاً « وندر » (Vandres) على المجريين . وعندما تحدث « جاك دوجيز » (I. de Guise) وهو كاتب بلجيكي ، من القرن الرابع عشر⁽²⁴⁾ عن الشعوب

(23) نهر أوروبي كبير يبلغ طول مجراه 1298 كلم .، يتكون من رافدين أساسيين في سويسرا ينزل أحدهما من سانت « جوتارد » والثاني من جبل « أدولا » . وبعدهما يقطع النهر بحيرة « كونسطنس » يقطع « الجورا » (مساقط شافهاوز) ، يتلقى في مجراه نهر « آر » قبل أن يصل إلى مدينة بال . وبعدها يتلقى أنهاراً أخرى ، مثل « الموزل » و« لاهن » الخ ، يدخل في الأراضي الواطئة ويصب في بحر الشمال .

(24) Histoire de Hainaut كتب باللاتينية ونشر له ترجمة فرنسية لأول مرة المركز دوربان ، في باريس ، سنة 1826 ونشر في السنوات التالية في 15 مجلداً .

التي غزت فرنسا وحولتها إلى خرائب في القرون الثامن والتاسع والعاشر، قال بأن «الوندال» في لغات الشمال معناه «جوال» أو «متشرد»، وإنهم كانوا يهيمنون من بلد إلى آخر قبل أن يستقروهم المقام⁽²⁵⁾.

يبدو أن جاك دوجيز قد اقتبس كثيرا، خصوصا من رواية جارين لوهراين، وهي ملحمة شعيرية فرنسية نظمت في القرن الثاني عشر⁽²⁶⁾ الميلادي. وفي هذه القصة يضع جارين غزو الوندال لفرنسا في عهد شارل مارتل. والمفروض أن أبطال القصة قد أصبحوا فيما بعد من فرسان حاشية شرلمان⁽²⁷⁾. ولكن الشاعر من جهة يروي استشهاد سانت «نيكير» أسقف «رايم» (Rheim) و«سانت لو»، أسقف «طرواي» (Troyes)، وكلاهما كان يعيش في القرن الخامس الميلادي، ومن جهة أخرى نجد أن جميع تفاصيل القصة تتصل بالقرن العاشر، بل ويصغر أحدث من ذلك. والواقع أن باريس كان يحكمها أحد الدوقات في الوقت الذي كانت تجري فيه تلك الاحداث، بينما التجأ الملك إلى «لاون» (Laon). والبلد الذي يقع بين «سامبان» و«الالزاس» والذي اشتق اسم بطل القصة منه «لوهرين»، كان منذ ذلك الوقت يحمل اسم «لوثنارينجيا» أو «اللورين» (Lorraine)، وهو

(25) إذا كان من الصحيح كما يروي دوجيز أن الوندال جاءوا إلى فرنسا عن طريق نهر الراين، فإن بعض الأحداث التي يذكرها إنما تتصل بالنورماندين وليس بالوندال، والواقع أن هذا الكاتب يصف غزو الوندال لفرنسا مرتين، إحداها في عهد شارل مارتل وابنه بيبين (ج 8 ص 263 وما يليها) والثانية تحت حكم شارل البسيط ولويس دوتزيمير (ج 9 ص 220). وفي المرة الأولى يضحى بالحقيقة تحت تأثير كتاب قصص الفروسية، ولكنه في المرة الثانية يتابع الحقيقة التاريخية عن كتب.

(26) نشرت رواية Garin المعنونة (le loherian) لأول مرة في باريس، 1833 بعناية Paulin وبعد ذلك نشر لورو دولينسي (Lincy) دراسة أدبية نقدية لهذه الرواية في كتاب خاص، صدر في سنة 1835.

(27) قارن رواية جارين (ج 1 ص 49) وتاريخ طورين (ص 26 - 81 - 83).

اسم مشتق من اسم «لوثير» (Lothaire)، حفيد شرلمان. وبالإضافة إلى ذلك، كان يوجد دوقات خاصة بمدينة متر وغيرها من المدن. اُضيف إلى كل ذلك أن الوندال يتسمون أحيانا في القصيدة «هوينغر»، أو الهنغارين. وأخيرا، فإن المسلمين كانوا يسيطرون في ذلك الوقت على «موريان» التي تسمى في الوقت الحاضر «سافواي» (Savoie) (28).

والآن نخطر بالبال سؤال : ألم تكن توجد أية علاقة بين المسلمين وتلك الشعوب التي يطلق عليها (خطأ) اسم الوندال ؟ وإذا كانت توجد صلة ، فما هو الدور الذي يمكن أن ينسب إليهم فيها ؟ بالجواب عن هذا السؤال يمكن رسم الحدود التي وقعت فيها غزوات المسلمين .

إن عدداً من الفقرات في كتب الاساطير والكتب الدينية التي تروي موت بعض القديسين (وهي كلها في الحقيقة ، مما وضع بعد القرن الثامن الميلادي) تتحدث عن كعائس وقديسين قتلوا في هذا العصر على يد الوندال (29) . ولكنها تعترف أن البلاد التي تمتد بين الرين وجبال البيرينيز ، وجبال الألب والبحر ، لم تتعرض في عهد شارل مارتل وابنه بيبين إلا لغزوات العرب دون سواهم من الشعوب . ومن جهة أخرى ، فإن الوندال كثيراً ما يطلق عليهم في رواية جارين وفي تاريخ جاك دوجيز وفي رواية «رونار» اسم «سارازين» وكذلك سمي العرب ، ولا سيما الذين جاءوا من افريقيا في هذه القصص ، أكثر من مرة

(28) منطقة تمتد في شرق فرنسا عند الحدود مع إيطاليا، وعاصمتها «شامبيري» (Chambéry). بعدما أخضعها الرومان ردحا من الزمن أصبحت إحدى ولايات الامبراطور شارلمان (888م). وفي القرن الثاني عشر ضمت سافواي إلى مملكة سافوا، ثم ضمتها فرنسا إلى أراضيها في غضون الفترة 1792 - 1813، ولكنها لم تصبح جزءا من فرنسا بصفة نهائية إلا في سنة 1860.

(29) كان جينسريك، أول ملك للوندال هو الذي قاد جيشهم إلى افريقيا (428—477م)، وهو الذي عبر على رأس شعبه من اسبانيا إلى هذه البلاد التي أحدثوا بها كثيرا من الخراب والدمار. وقد استقر لهم الامر بعدما هزمت جحافلهم جيوش الكونت بونيفاس (431 م) .

« وندال » ، وهذا بدون شك لربطهم بالوندال الذين قادهم « جينسريك » (Genserik) إلى أفريقيا .

وهذه المشكلة (مشكلة الخلط بين العرب والوندال في الاساطير القديمة) تعرض لبحثها « لوكوانت » (P. Lecoinge) في تأريخه للكنيسة الفرنسية. وقد توصل هذا العالم إلى نتيجة وهي أن الذين يطلق عليهم اسم الوندال خطأ هم من العرب. وهذه النتيجة وافقه عليها العلماء، « دوم مايون » (Dom Mabillon) و« باجي » (P. Pagi) و« دوم فاسيت » (Dom Vaissette) و« دوم بوكي » (Dom Bouquet) .

وهؤلاء الباحثون يفترضون أن الوندال قد غزوا جنوب فرنسا الذي احتله العرب حقيقة، وزيادة على ذلك، فقد توغلوا حتى ضواحي باريس وغزوا اللوران والفلاندر ومختلف البلدان الواقعة على ضفاف نهر الرين والتي لم يخفق عليها علم المسلمين قط .

ونحن نؤكد مرة أخرى أنه لا توجد شهادة واحدة تتعلق بغزو الوندال لفرنسا في القرن الثامن الميلادي تصف أحداثا معاصرة. فجميع الشهادات التي تتصل بهذا الموضوع هي مما كتب في القرن العاشر. وحيثما اطلق اسم « سارازين » على الوندال، فإن كلمة « سارازين » على الأرجح تعني « وثنيين » وقد سبق أن لاحظ كل من دوم مايون⁽³⁰⁾ ودوم فاسيت⁽³¹⁾ أن بعض الاحداث التي عزيت إلى الوندال في القرن الثامن قد وقعت في عصر آخر⁽³²⁾.

(30) راجع : Acta Sanctorum ordinis Benedicti, Sect. III, Part. II, p. 534, et Annales Benidictini. T. II, p.90.

(31) راجع : Histoire générale du languedoc, T.I., p.638.

(32) أنظر أسفله ، وانظر كذلك : Les Mémoires Historiques sur la ville de Poligny Par Chenalier, Loan- le- Saulnier, 1767, T.I., p.45 et 66.

وعبثا يقال إن هذه الوقائع ذكرتها كتب التاريخ الكبرى، مثل تاريخ « سانت دونيس » التي تعتبر من المراجع الهامة. فمن المعروف أن تاريخ سانت دونيس إنما بدىء وضعه في صيغة مكتوبة في غضون منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. وفيما يتصل بالاحداث السابقة لهذا الوقت، فقد اكتفى المحرر بنقل الروايات الشائعة في العهود السابقة، ونحن نعرف أن هذا التاريخ لم يتورع عن ترديد قصص توربين السخيفة على اعتبارها تاريخاً.

كل هذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه، فإن مصادر تاريخ فرنسا قد ظلت مهملة عهدا طويلا. وكذلك بقيت رواية جارين وأمثالها من القصص حتى النهضة التي عرفتها الدراسات التاريخية في القرن السابع عشر، المرجع الأول في التاريخ. وهذا الاعتبار هو الذي يفسر لنا كثيرا من الخلط والاضطراب، الذي مصدره القصص، في التاريخ وكثيرا من الاساطير التي أوردتها كتب تاريخية في سير القديسين.

والآن، لنعد إلى موضوعنا. إننا لا نعالج تلك الموضوعات التي تثير الفضول ولا الاحداث الصغيرة التي لا تهم إلا منطقة معينة.

لقد كانت فرنسا فترة طويلة من الزمن عرضة لغزوات عربية كان لها أسوأ الأثر في البلد. وفي فترة لاحقة مسّت آثار هذه الغزوات سافواي وبويمونت وسويسرا، وقد احتل العرب أشد الحصون والقلاع مناعة في أوروبا انطلاقا من خليج « سانت ترويز » حتى بحيرة كونستانس، وابتداء من نهر الرون وجبال الجورا حتى سهول « مونفرا » و « اللومباردية ». وهذه الغارات وما نجم عنها من الآثار لا بد وأن تكون من ضمن العوامل التي أذكت نيران الحروب الصليبية التي اندفعت فيها أوروبا في اتجاه آسيا وأفريقيا. وأيا ما كان الأمر، فإن اسم العرب (سارازين) قد ظل عالقا بالأذهان واختلط بمختلف القصص والروايات التي ورثتها البلدان التي احتلها المسلمون في العصور الوسطى.

ونحن قد أثبتنا الوقائع في هذا الكتاب طبقا لنظام التسلسل الزمني، وإذا اكتشفت حادثة غفلنا عنها، فسيكون من السهل إضافتها ووضعها في سياقها في النص، وإذا لم تكن الحادثة قد عرضت على ضوء الحقيقة، فيمكن إعادة صياغتها وترتيبها في أماكنها.

والكتاب الذي نقدمه، إذا كان صغير الحجم نسبيا، فهو مع ذلك، قد كلفنا كثيرا من العناء في البحث. والزمن الطويل الذي يفصل بيننا وبين الاحداث التي نعرضها يجعل تحقيق الأمل في ملء جميع الثغرات والفجوات التي لا تزال مفتوحة أمراً صعباً. ولكن، من يدري؟ فقد تظهر حقائق جديدة لم يتيسر لنا الاطلاع عليها. وأيا ما كان الأمر، فإذا بدا أن هذا العمل يلقي ضوءاً على جزء لا يزال مغموراً ويعتبر أصعب فترة في تاريخ فرنسا، فسنجد في ذلك مكافأة وتعويضاً عن الجهود التي بذلناها والآلام التي تحملناها من أجل هذا البحث.

والكتاب مقسم إلى أربعة أقسام. ففي القسم الأول نتحدث عن غارات العرب وغزواتهم التي جاءت من اسبانيا، عبر جبال البيرينيز، حتى طرد «بيبين القصير» (Pepin-le-Bref) المسلمين من لانجدوك وأربونه (Narbonne) في سنة 759م.

والقسم الثاني خصصناه للغزوات العربية التي جاءت عن طريق البر أو البحر، حتى استقرار المسلمين على شواطئ بروفانس في سنة 889م.

والقسم الثالث يعالج توغل المسلمين من بروفانس الى «دوفيني» (Dauphiné) وإلى سافوا وبييمونت وسويسرا.

وفي القسم الرابع سنبين الطبيعة العامة للغزو الاسلامي لهذه البلدان، وما هي النتائج المترتبة عنه.

القسم الأول

غزو المسلمين لفرنسا
وسافواي وببيمونت وسويسرا
حتى إخراجهم من نربونة
ولانجدوك في سنة 759 م

ذكر كاتب عربي في معرض الحديث عن فتح الاندلس، حديثا نسبته الى الرسول ﷺ معناه أن ممالك الأرض انفتحت وأن عينيه قطعتا ما بين المشرق والمغرب، وكل ما رآه سيكون ملكا لأمته (أو كما قال).

وفي وقت معين كان يمكن الاعتقاد بأن الكون كله سيخضع للنبي العربي. ففي ظرف بضعة سنوات سقطت العراق وسورية وبلاد الفرس ومصر ثم افريقيا الشمالية ووصلت جيوش المسلمين إلى المحيط الاطلسي. وبعد ذلك اتجه المحاربون المسلمون من جهة إلى الأندلس ومن هناك تقدموا عبر فرنسا ليهددوا بقية القارة الأوروبية، ومن جهة أخرى عبرت جيوشهم نهر مهران ثم نهر جيحون، وكأنهم لا يريدون أن يعترفوا بأية امبراطورية في هذه الأرض سوى التي يرسمون حدودها بأنفسهم.

ومركز هذه الامبراطورية الضخمة هو مدينة دمشق في سورية. وأما سلطة السيادة التي تشمل شؤون الدين وشؤون الدنيا معا، فهو الخليفة الأموي، والخليفة الذي كان يحكم المملكة الاسلامية في ذلك العهد، هو الوليد [بن عبد الملك]⁽¹⁾.

(1) الوليد بن عبد الملك بن مروان (48 - 96 هـ) ولي الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة 86 هـ) وفي عهده امتدت حدود المملكة الاسلامية شرقا بعد فتح الهند وتركستان حتى بلغت الصين. =

وعندما وصل العرب إلى افريقيا الشمالية وقع اتصال بينهم وبين عدد كبير من القبائل التي يطلق عليها اسم «البربر». وهذه القبائل التي دافعت عن بلادها وعن حريتها على التوالي غزو الفينيقيين والرومان والوندال، كان بعضها يعتنق الديانة اليهودية والبعض الآخر المسيحية، وكان غيرها من عبدة الأوثان. ومعظم هذه القبائل كان يتحدث اللغة البربرية التي لا تزال موجودة في المغرب حتى الآن.

ولكن بعض هذه القبائل كانت تتكلم لغة قريبة من العربية والعبرية والفينيقية⁽²⁾. وهذه القبائل قد تكون من بقايا الشعوب الكنعانية والفينيقية والعبرية التي كانت تعيش في عهد يوشع، أو بعده والتي التجأت إلى افريقيا الشمالية⁽³⁾ أو هي، كما يقول علماء العرب، من القبائل التي هاجرت من اليمن في القرون الأولى بعد الميلاد، وكانت تدين بالديانة الموسوية وتعرضت لاضطهاد الاثيوبيين الذين كانوا في ذلك الوقت سادة هذا الجزء من الجزيرة العربية، وقد عبروا الولايات الرومانية والتجأوا إلى هذه الأراضي البعيدة عن سلطان الاثيوبيين⁽⁴⁾.

وكان موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد من رجاله الذين تم على أيديهم فتح الأندلس. وقد اشتهر عهده بكثير من الاصلاحات الاجتماعية، حيث كان أول من أدخل المستشفيات وأجرى نفقات من بيت المال للعميان وجعل لكل واحد منهم قائدا. أنظر التفاصيل في تاريخ ابن الاثير 3/5 والطبري 47/8 وتاريخ اليعقوبي 279/2 - 292 - 1294.

(2) راجع: Nouveau Journal Asiatique, T., II, 117 et Suiv.

(3) راجع: Procope, Histoire de la guerre des Vandales, liv. II, ch. 10, p.324.

(4) راجع: Le Journal Asiatique- Ibid.

وانظر كذلك: Les Recherches sur l'histoire de la Partie de l'Afrique septentrionale connue sous le nom de la Régence d'Alger, par une commission de l'Académie des Inscriptions et belles lettres, Paris, 1835, I.T., p.114 et suiv.

وانظر كذلك مادة (Berber) في دائرة المعارف Enc., Pittoresque, par d'Avezac.

وأيا ما كان الأمر، فقد كان التقارب اللغوي من العوامل التي ساعدت على نجاح الفتح العربي للمغرب بسرعة. وعلى الرغم من أن كثيرا من البربر استمروا على ممارسة الديانات التي كانوا عليها بحرية، فقد قدموا مساعدة كبيرة للفتاحين العرب، ولا سيما وأنهم كانوا، مثل العرب يعيشون في معظم الحالات، حياة البدو، ومستعدين دائما لخوض غمار الحروب.

وبمجرد ما استقر زمام الأمور للمسلمين في شمال افريقيا، فكروا في اجتياز مضيق جبل طارق الذي يفصل القارة الافريقية عن أوروبا.

كان ذلك في سنة 710م (92 هـ) وكان الوالي على افريقية هو موسى بن نصير⁽⁵⁾ الذي ولد في السنوات الاخيرة من خلافة عمر بن الخطاب. كان موسى بن نصير في ذلك الوقت يقرب من الثمانين من العمر، ولكنه مع ذلك كان يملك حماس الجندي الشاب للحرب، وأما اسبانيا، فقد كانت تحت سلطان القوط. وكان اسم الملك الذي يحكم البلاد، رودريك (Rodric)، وقد كانت مملكة القوط تضم «روسيون» (Rossillon) وجزءا من لانجدوك وتحتوي على عدد من المدن المزدهرة، وكان لها عدد من الجيوش، ولكن النزاع كان مستحكما فيها بين رجال الدولة كما كان الفساد عاما في البلاد مما ساعد على تخدير إرادة المقاومة. وكذلك أصبح من الممكن أن تسقط مملكة قوية في الظاهر في يد جماعة صغيرة من المتحمسين الذين يعتقدون أن الله هو الذي بعثهم لملك البلاد.

(5) موسى بن نصير بن عبدالرحمن اللخمي بالولاء (19 - 97 هـ.)، فاتح الأندلس بعد طارق بن زياد. نشأ في دمشق وخدم بني مروان وبنه شأنه، فتولى عددا من المناصب من أهمها خراج البصرة، وغزا قبرص وافريقيا الشمالية في ولاية عبدالعزيز بن مروان وولي عليها واستعمل مولاه طارق بن زياد على طنجة وأمره بغزو الشواطئ الأوروبية، فاحتل الجبل الذي يحمل اسمه اليوم في سنة 92 هجرية، وقد لحق به موسى وأكمل فتح الأندلس. راجع التفاصيل في وفيات الأعيان 318/4 - 329 والحلة السيرة 332/2 - 334 وجذوة المقتبس ص 317.

قام موسى بن نصير بمحاولة بواسطة قائد يسمى طريف⁽⁶⁾ نزل في المكان الذي يحمل نفس الاسم إلى الآن على رأس قوة من البربر فجالوا في شواطئ الأندلس وحصلوا على كثير من الغنائم والأسلاب. وبالنظر إلى أن هذه الغزوة لم تلق مقاومة تذكر، فقد وجه موسى جيشا آخر في سنة 711م. (92 هـ.) كان أكبر عددا وأشد قوة من الأول حيث كان يتكون من 12 ألف مقاتل كلهم تقريبا من البربر، بقيادة مولاه، طارق بن زياد⁽⁷⁾ الذي يحمل اسمه الجبل الذي يعرف الآن بجبل طارق والذي نزل فيه هذا الجيش. وهذه الحرب التي سيخوضون غمارها كان المسلمون يستهدفون من ورائها نشر الاسلام. وكذلك دخلوا بلدا خصبا غنيا يحتوي على كل ما يثير رغبات الانسان عادة.

كان جيش طارق الصغير كافيا لدحر جيش القوط، وقد قتل ملكهم وأرسلت رأسه إلى دمشق. وفي ظرف أقل من سنة واحدة، استولى طارق على

(6) هو طريف بن أبي زرعة، مولى طارق بن زياد الذي كان صاحب المبادرة في هذه الحملة الاستطلاعية، وليس موسى بن نصير، كما يقول المؤلف. وجزيرة طريف التي تسمى Tarifa باللغات الأوروبية ليست جزيرة في الحقيقة وإنما هي رأس بارز في الطرف الأقصى الجنوبي لشبه جزيرة الأندلس جنوب غربي الجزيرة الخضراء. وقد وقعت غزوة طريف الذي سار على رأس مائة فارس، بمعونة ثيليان، صاحب سبتة، في شهر رمضان سنة 91 هجرية. انظر نفع الطيب للمقري 229/1 — 230، 233، والحلة السيرة 199/2.

(7) طارق بن زياد الليثي بالولاء (50 - 102 هـ.) أصله من البربر. وتختلف الرواية العربية حول ما إذا كان قد قام بعملية غزو الأندلس بمبادرة منه أو بناء على أوامر موسى بن نصير الذي كان قد ولاه على طنجة في سنة 89 هـ. وعندما استولى طارق على طليطلة، عاصمة الأندلس، اتجه شمالا إلى وادي الحجارة (Gualajara) وفتح طارق (Buitrogo) ومدينة سالم (Medina Celi) التي قيل إنه عثر فيها على مائدة سليمان المشهورة، ثم اتجه شرقا حتى وصل إلى منابع نهر تاجة (le Tago). وقد استدعاه الوليد بن عبد الملك هو وموسى بن نصير إلى دمشق في سنة 96 هـ. وبعد هذا التاريخ لا تعرف شيئا عن مصيره. انظر نفع الطيب للمقري (الفهرست) والبيان لابن عذارى 43/1 والمعجب للمراكشي ص 9 - 11 والكامل لابن الاثير 561/1 - 566.

قرطبة ومالقة وطليلة. ويذكر ابن القوطية⁽⁸⁾ أن طارقاً قد استولى على بعض الاسرى وقتلهم ثم طبخهم في قدر وذلك لكي يبعث الرعب في نفوس أعدائه.

وكذلك كان من العوامل التي ساعدت الفتح الاسلامي للأندلس وجود أقلية كبيرة من اليهود الذين رحبوا بالفاتحين العرب في المدن. فقد كان اليهود يتطلعون لفرصة للثأر لشرفهم وكرامتهم المهانة من القوط المسيحيين، في الوقت الذي كانوا يرون فيه في العرب أبناء عمومة.

ولما بلغت موسى بن نصير اخبار الانتصارات التي حققها طارق، أراد أن يكون له سهم في شرف هذه الفتوحات، فسار من أعماق افريقيا على رأس جيش عرمرم يتكون من العرب والبربر، وكان من بين رجاله صحابي عاش اكثر من مائة عام.

سار موسى في اتجاه آخر غير الذي سار إليه طارق بن زياد، فاحتل مدريد وسرقسطة وغيرها من المدن، وبعد ذلك، سار على رأس قوة صغيرة تتكون من خيرة رجاله وابتعد عن جيشه الرئيسي، ولم يكن هو ورفقاؤه يحملون معهم سوى أسلحتهم. وأما بقية الجيش، فقد كان فرسانه يمتطون جياد جيش القوط المنهزم، ولم يكن الواحد منهم يحمل سوى كيس صغير من الزاد. وأما الاثقال فكانت محمولة على ظهور بغال وزع على كل سرية من الجيش عدد منها لهذه الغاية.

(8) يحيل المؤلف إلى تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية الذي تملك المكتبة الاهلية بباريس نسخة منه تحمل رقم 706 وقد استقى معلوماته من الورقة 4. وهذا الكتاب طبع في مدريد في سنة 1889 باعتناء المستشرق هوداس في 219 صفحة. ولكن الكتاب لم يوزع بسبب كثرة الاغلاط فيه، وقد قام مترجم هذا الكتاب بتحقيقه، وهو تحت الطبع وابن القوطية مؤلف الكتاب، هو ابوبكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الاشبيلي الاصل القرطبي المولد كان من أعلم أهل زمانه وهو ينحدر من أسرة القوط، وله عدة تصانيف في اللغة.

ويروي بعض المؤرخين العرب أن موسى سار حتى بلغ أرض فرنسا⁽⁹⁾ وقد وجد في اربونة كنيسة تحتوي على سبعة تماثيل من الفضة فغنمها، كما غنم سبعة أعمدة من الفضة من كنيسة سانت ماري في « كركسون» (Carcassonne) (قرقشونة). والعرب يسمون فرنسا « الأرض الكبيرة»، وهم يطلقون هذا الاسم على الاراضي التي تقع بين اليرينيز وجبال الالب والمحيط الاطلسي والامبراطورية الاغريقية، وهي البلاد التي كانت تشكل امبراطورية شارل مارتل وبيبين وخصوصا، شرلمان.

إن الشيء الذي كان يضايق المسيحيين، هو أن عدوهم قد استقر في كل مكان في وقت واحد تقريبا. ومتى استسلم بلد من تلقاء نفسه، كان المنتصرون يحترمون ممتلكات المنشآت الدينية، ولكنهم، مع ذلك، كانوا يستولون على بعض الكنائس ويحولونها إلى مساجد ويستولون على ممتلكات الكنائس، كما كانوا يستولون على الاملاك الشاغرة التي تركها المغتربون. وكذلك كان المنتصرون يستولون على الاسلحة والخيول الضرورية لهم لمواصلة الحرب. واخيرا، كانوا يفرضون الجزية على السكان[الذين لم يسلموا] تختلف قيمتها باختلاف الظروف، وكانوا يأخذون الرهائن ليضمنوا ولاء السكان.

وأما البلدان التي لا تستلم الا بالقوة، فهي تتعرض لعنف الاحتلال، وتكون قيمة الجزية التي تفرض على سكانها ضعفي المفروض على الآخرين (ونحن سنتحدث عن هذه المسألة وعن نظام ادارة المسلمين في القسم الرابع (الاتي).

(9) أنظر فتوحات موسى بن نصير في نفع الطيب (طبعة احسان عباس) خصوصا في الجزء الأول ، صفحات 229 - 234 249 - 254 269 - 288 . وفيه : « وأمضى المسلمين إلى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وغلوا حتى انتهوا إلى وادي رودنة ، فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم » (ص 273) .

وفي بعض الاحيان يرى المنتصرون من الضروري ترك حامية في البلد المستسلم. وهذه الحامية تتكون جزئيا من اليهود الاسبان الذين يعتبر كرههم للمسيحيين ضمانا كافيا لولائهم.

يقول المؤرخون العرب إن خطة موسى بن نصير كانت تقضي بأن يعود هو وجيشه إلى دمشق عن طريق المانيا ومضيق القسطنطينية وآسيا الصغرى، بحيث يحيط بالبحر الابيض من كل جانب ويصبح بحيرة اسلامية توفر طرق المواصلات بين مختلف الولايات الاسلامية.

وفيا يتعلق بالمؤرخين المسيحيين، فهم لا يذكرون شيئا عن دخول موسى بن نصير إلى فرنسا، والأرجح أن تحركات المسلمين في هذه الفترة لم تكن تتجاوز نطاق غزوات قليلة، على أنه من المؤكد أن المسيحية قد واجهت أعظم الخطر في ذلك الوقت، وإن المرء ليرتعث عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو لم يقع الشقاق في وقت مبكر بين المنتصرين.

لقد كان موسى ينظر بعين الحسد والغيرة إلى مولاه طارق منذ المراحل الأولى من فتح الأندلس. وقد كان يريد أن يستولي على حصّة الاسد من الغنائم التي حصل عليها جيش طارق، بعدما يدفع نصيبا إلى بيت المال. وأما طارق، فقد كان يريد، على العكس من ذلك، دفع الخمس الذي ينص عليه القرآن إلى بيت المال، وتوزيع ما تبقى من الغنائم على الجند. وقد بلغ النزاع بين القائدين درجة رأى معها الخليفة استدعاءهما إلى دمشق ليحسم الخلاف بنفسه.

تم فتح الاندلس وجزء من لانجدوك في ظرف أقل من سنتين. ولدى رحيله اختار موسى ابنه عبدالعزيز ليكون خليفة له على الاندلس، وقد اختار الأخير اشبيلية لتكون مقرا لحكمه. ولكن موسى وضع عبدالعزيز تحت رقابة ابنه الآخر عبدالله الذي استخلفه على افريقية، وكانت مدينة القيروان مقره.

ونظرا لأن موسى بن نصير لم يكن يملك اسطولا يستقله إلى الشرق، فقد سافر بطريق البر. فبعدما قطع مضيق جبل طارق اتخذ طريقا محاذية للشاطئ الأفريقي حتى مصر، وكان يسير خلفه أسراه الذين كان عددهم ثلاثين ألفاً، من بينهم، فيما يروي الكتاب العرب اربعمائة من الشخصيات التي تنحدر من أسر ملكية لكل واحد منهم حق في لبس التاج وحمل الصولجان. وأما فيما يتعلق بالغنائم فهي، فيما يذكر المقرئ عزيمة بعضها نقل في عربات والبعض الآخر على ظهور الجمال.

وقبل أن يصل موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق ويتم الفصل في النزاع بينهما، مات الوليد بن عبد الملك (سنة 715 - 96 هـ).

كان سليمان بن عبد الملك، الخليفة الذي تولى الحكم بعد وفاة شقيقه الوليد بن عبد الملك مطالعا على غضب الخليفة الراحل على القائد موسى بن نصير، ولذلك، فقد أساء استقباله، ولم يكتف بفرض غرامة كبيرة عليه اضطرته إلى اللجوء إلى أصدقائه للاستلاف منهم، بل شمل غضبه أيضا ابنه، فأما عبدالعزيز بن موسى بن نصير الوالي على الأندلس⁽¹⁰⁾ بعدما برز بشجاعته النادرة واشتهر بعدله ورفقه بالمتهمين اختار أن يتزوج بإحدى نساء الأندلس، وهي، فيما قيل، أرملة رودريك، ملك القوط السابق. وكذلك كان حسن معاملته للشعب الذي كلفه أبوه برعايته وعطفه على زوجته ذريعة لانتقام أعدائه إياه بأنه يطمح إلى ارتقاء عرش الأندلس. وهذه الاخبار وغيرها وصلت إلى أذن الخليفة الذي أمر بقتله، وقتل في المحراب وهو يؤدي الصلاة، وحملت رأسه إلى دمشق حيث لم ير الخليفة غضاضة في أن يطلع عليها أباه

(10) عرف عبدالعزيز بشجاعته وحزمه وعدله بين الناس، ولكنه اشتهر أيضا بضبط إدارة الأندلس وحماية الثغور والسلوك الخلفي الذي لا غبار عليه. وقد قتل بالطريقة التي يرويها المؤلف في سنة 97 هجرية. انظر هذه الحوادث في الحلة السيرة 334/2 و347 ونفح الطيب 234/1 و235 والكامل لابن الاثير حوادث سنة 97 هجرية.

الذي كان لا يزال متمسكا بمشروعاته الطموحة. ولما رأى رأس ابنه لعن موسى ذلك اليوم الذي قرر فيه التضحية براحته والسير على رأس الجيوش، ثم انزوى في مكان غير بعيد من المدينة حتى وافته المنية، وأما طارق بن زياد فقد مات مغمورا بعيدا عن الحياة العامة.

كان لهذه الاحداث أثر سيء في صفوف المسلمين وكان من نتائج ذلك عرقلة تقدم الفتوحات.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن اهتمام الخليفة والعرب في آسيا وافريقيا قد اتجه الآن إلى القسطنطينية التي شدد الحصار عليها جيش يتكون من مائة وعشرين ألف مقاتل واسطول حربي بلغ عدد قطعه ألف وثمانمائة قطعة جاء من موانئ مصر وسورية.

ومع ذلك، فإن المؤرخين العرب⁽¹¹⁾ يذكرون بعض الغزوات التي وقعت في لانجدوك في عهد الحر⁽¹²⁾ في سنة 718 م. (100 هـ). وقد وصل العرب، حسب هذه الروايات حتى مدينة «نيم» (Nimes) دون أن يجدوا أي عائق في طريقهم. وبعد ذلك، عادوا أدراجهم عبر جبال البيرينيز إلى الأندلس مثقلين بالغنائم والأسرى.

جرت العادة بين جيوش المسيحيين وجيوش المسلمين أن يحصل كل محارب على حصته من الغنائم التي اخذت من العدو. وقد كان الاسرى

(11) ويوافقهم على ذلك إيزودور Isodor اسقف بجة، وهو كاتب كان معاصرا للاحداث، و«رودريك خمينيس» (Rodric Ximenes) اسقف طليطلة، الذي كان يكتب في القرن الثالث عشر الميلادي، وهو يعتمد اساسيا على المصادر العربية.

(12) هو الحر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي (توفي بعد سنة 106 هـ) ولي الاندلس بعد مقتل عبدالعزيز بن موسى ممثلا للخليفة سليمان بن عبد الملك، بصفته عاملا لوالي افريقية الذي كان بدوره تابع لوالي مصر، وقد عزل بعنسة بن شحيم. راجع عنه البيان المغرب 47/1 جذوة المقتبس، ص 191، نفح الطيب، 292/1 و 299.

يشكلون أئمن الغنائم باعتبار أن المحارب يمكنه أن يتصرف في الاسير كما يشاء، فيستعمله لأغراضه الخاصة أو يبيعه في أسواق النخاسين.

كانت الولايات الجنوبية الفرنسية في حالة من الضعف لم تكن لتسمح لها بإبداء أي شكل من المقاومة الفعالة. فقد كان ذلك هو عهد « الملوك الكسالى ».

كانت لانجدوك التي تسمى أيضا « جوثيمة » أو القوطية بسبب بقائها تحت القوط مدة طويلة، أو « ستمانية » (Septimanie) لأن عدد مدنها الرئيسية سبعة، وهي نيم واربونة وأجد (Agde) وبيزي (Besier) ولوديف (lodive) و« قرقشونة » و« ماجلون (Maguelone) وكلها تقع ضمن الأراضي التي كانت من حصنة « أيود » (Eude)⁽¹³⁾ دوق أكيثانية على أن أيود الذي يعتز بأنه ينحدر من سلالة كلوفيس، وبالتالي فهو من أقارب أمراء شمال فرنسا، لم يكن ينظر بعين الارتياح إلى نواب الملك، أو الوزراء الذين كان نفوذهم يتزايد باستمرار في هذا القسم من الامبراطورية، ولذلك كانت سياسته تركز على الحد من طموحهم، وذلك في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يعملون بنشاط لزيادة ما يتمتعون به من السلطة والنفوذ. ومن جهة أخرى، فقد كانوا يسعون للبقاء على سيطرة الفرنج (les Francs) التي كانت تشمل في ذلك الوقت جزءا مهما من الأراضي الألمانية، وكانوا ينظرون بعدم اكتراث الى تقدم الفتح الاسلامي في جنوب فرنسا

وفي هذه الظروف، تركت لانجدوك والبروفانس التي كانت حتى ذلك الوقت لا تزال خاضعة للقوط، لتواجه مصيرها، وإذا كانت أغلبية السكان

(13) ويكتب أيضا Eudes: كونت باريس ثم ملك فرنسا فيما بعد (860 - 898م) وقد تولى الدفاع عن باريس ضد النورماندين الذين هزمهم في «مونتفكون» (Montfaucon) في الموز، وابتداء من سنة 893م دخل في حروب مع شارل البسيط.

ينحدرون من أصل الجولوا أو الرومان وتحمل اسمي هذين العنصرين، فإن النفوذ والسلطة كانت في يد الأقلية من القوط. وهاتان الطبقتان كانت تفصل بينهما حواجز لا سبيل إلى تخطيها، وكان لكل منهما قوانينه وعاداته الخاصة.

والدفاع الوحيد الذي كان يحظى به جنوب فرنسا، هو الاضطراب الذي كان يسود صفوف المنتصرين (المسلمين)، ونحن سبق أن رأينا أن الأندلس كانت تابعة لولاية إفريقية التي كانت بدورها تابعة لخليفة دمشق. وتبعاً لذلك، فقد كان من المستحيل المحافظة على سلطة موزعة بهذه الصورة وفرض الطاعة على رجال تربوا في الحرب وعلى قعقة السلاح. وكذلك ظهر الشقاق بين المسلمين وغيرهم واشتد النزاع بين العرب والبربر. وبالنظر إلى أن الأراضي التي أخذت من المسيحيين استولت عليها فئة صغيرة من ذوي النفوذ، فقد كان الجنود يشكون من أنهم لم يكافأوا على جهادهم وكفاحهم، ولكي يحصلوا على حقوقهم قاموا بعدة ثورات دامية.

ومن الظروف التي كانت في صالح فرنسا أيضاً أن بعض المسيحيين راحوا يبدون المقاومة للذين يحتلون بلدهم. وهكذا التجأت جماعة من المحاربين إلى جبال اشتورية (Asturie) وغلنسية (Galice) ونبرة (Navarre) ومن هناك كانوا يواصلون المقاومة بقيادة «بيلاج» (Pelage) الذي سيؤسس مملكة «اشتوريس» وينصب أول ملك عليها (مات في سنة 737م.).

ولما تولى الخلافة في دمشق عمر بن عبدالعزيز⁽¹⁴⁾ درس الوضعية في

(14) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. ولد في سنة 61 بالمدينة ونشأ بها واستوزره سليمان بن عبد الملك، ثم ولي الخلافة بعهد منه سنة 99 هـ. وقد اشتهر بالعدل والنزاهة والفضل بصورة تذكرنا بعهد سمي (عمر بن الخطاب). والكتب التي تتناول سيرته كثيرة. انظر خصوصاً، تاريخ الطبري 137/8 العبر لابن خلدون، 76/6، الكامل لابن الأثير، 22/5 وتاريخ الخميس 315/2.

الأندلس وقرر معالجتها، فعين واليا عليها السمع⁽¹⁵⁾ الذي لم يلبث أن اكتسب شهرة في الأندلس كإداري حازم ضابط للامور لا تضاهيها الا شجاعته في الحروب.

كلف الخليفة السمع بإعادة النظام إلى نصابه وضبط الشئون المالية وبلااستجابة لمطالب الجند. وكذلك قام بتوزيع مساحات شاسعة من الأراضي التي فتحوها على الجند، بينما عهد ببقية الأراضي إلى رجال يتمتعون بالنزاهة ليستغلوها ويسلموا ريعها إلى بيت مال المسلمين. وزيادة على ذلك، فقد أمر عمر بن عبدالعزيز السمع بأن يقدم إليه تقريراً شاملاً عن الأراضي التي تم فتحها وعن سكانها ومواردها الخ⁽¹⁶⁾.

كان عمر بن عبدالعزيز رجلاً تقياً ورعاً وقد هاله عدد سكان الاندلس الذين ظلوا متمسكين بالمسيحية، فكان من رأيه نقل جميع المسيحيين من الاندلس ولاتجدوك إلى قلب الامبراطورية حيث لا يوحى وجودهم بنفس القلق الذي يوحى به في دينك البلدين. ولكن السمع طمأن الخليفة وقال له إن عدد المسلمين الجدد في تلك البلاد سوف يزداد يوماً بعد يوم بحيث يأتي يوم لا تعترف الاندلس فيه بدين آخر غير الاسلام⁽¹⁷⁾. والكتاب العرب الذين نقل

(15) المقصود هو السمع بن مالك الخولاني. كان عمر بن عبدالعزيز حينما استعمله قد كلفه بتمييز الأراضي وبأن يخرج منها ما كان مفتوحاً عنوة فيأخذ منه الخمس، ففقد أوامره في سنة 100 هـ. ، وقد استشهد غازيا في الوقعة المشهورة بوقعة البلوط في سنة 102 هـ. انظر اخباره في نفع الطيب (الفهرست) والبيان المغرب 26/2 وجدوة المقتبس ص 220. (16) تعرض لذكر ولاية السمع بن مالك ايزودور دويجه، وهو كاتب معاصر له في كتابه Historia Arabum، ص 10. انظر كذلك كوندية المصدر المذكور، ص 70 و75. والجدير بالذكر أن هذا الكاتب يعزو كثيراً من الأعمال التي قام بها السمع إلى خلفه. (17) لا اعرف ما هي المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في هذه الرواية، وربما كان تاريخ ابن القوطية الذي يحيل إليه في الفقرة التالية (النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس، ورقة 5 ظهر و59 ظهر) هو المرجع الذي استقى منه معلوماته. ولكن هذه =

عنهم هذه المعلومات يأسفون لضعف موقف السّمع الذي لم ينفذ فكرة الخليفة.

وكذلك كانت مهمة السّمع بعث الحماس الذي خد نوعا ما في النفوس والحث على الجهاد الذي كان يصوره أنه أفضل الاعمال عند الله وأبعثها على رضاه .

وبمجرد ما أعاد النظام إلى نصابه، سارع السّمع إلى الجهاد. كان يمكنه أن يتجه بجهوده إلى أولئك المسيحيين الذين تحصنوا بالجبال في شمال اسبانيا ويقضي على ثورتهم قبل أن يشتد ساعدها ويستفحل أمرها، ولكنه فضل على ذلك غزو فرنسا، وهو يفخر بأن يقوم بعمل لم يقم به موسى بن نصير. كان ذلك في سنة 721م. (103 هـ.) في خلافة يزيد بن عبد الملك⁽¹⁸⁾. وكانت قد

= الرواية يشوبها تحوير، أو إن شئت، تحريف. فإن المقرئ يقول في نفع الطيب 14/37 - 16) أنه « كان من رأيه (عمر بن عبدالعزيز) أن ينقل المسلمين عنها (الأندلس) لانقطاعهم وبعدهم عن أهل كلمتهم ». وهذه أيضا رواية ابن عذارى في البيان المغرب 26/21. « وكان رأيه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار ». وكلتا الروایتين تتفق مع ما أورده ابن الاثير في الكامل (489/5). وإنه لمن المؤسف أن يكون شكيب أرسلان قد نقل رواية رينو كما هي دون أن يعارضها بالمصادر الاسلامية على الرغم مما تنطوي عليه من الشطط وبعدها عن المعقول (انظر غزوات العرب، ص 71)، لأنه من السخف بمكان أن يعزى إلى الخليفة رغبته في نقل جميع سكان الأندلس وجزء من سكان فرنسا، وهم يعدون بالملايين فضلا عن أنهم هم الذين تقوم على عاتقهم أعباء الصناعة والزراعة الخ. ، وهو شيء لم يفكر في مثله المسلمون في فتوحاتهم في أي عصر من العصور .

(18) يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد، تولى الخلافة عقب وفاة عمر بن عبدالعزيز، سنة 101 هـ. ، بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، وقعت في عهده عدة غزوات وقد عرف بانصرافه إلى اللذات، وهو صاحب الجارية حباة المغنية المشهورة، وكانت تنصرف في شئون الدولة وخصوصا في الولاية والعزل، وقيل إنه مات « عشقا » (في سنة 105) وحزنا على وفاة هذه الجارية. راجع أخباره، خصوصا، في تاريخ الطبري 178/8 =

مضت إذ ذاك على فتح العرب للاندلس إحدى عشرة سنة. وهذه هي الفترة التي بدأ فيها المؤرخون الفرنسيون يتحدثون عن غزوات المسلمين وعن قائدهم الذي يسمونه « زاما » (Zama) (وهو تحريف السمح). وطبقا لرواياتهم، فإن المسلمين كانت ترافقهم نسائهم وبنائهم بنية احتلال البلد. والواقع أن أسرا فقيرة كانت تأتي باستمرار إلى اسبانيا من الجزيرة العربية ومصر وأفريقيا الشمالية، وكان الرؤساء يعتمدون على الغزوات المقبلة لتلبية الحاجات المتزايدة إلى إقارهم⁽¹⁹⁾.

تقدم السمح، مثل سابقه من الولاة، وتوغل في لانجدوك، فحاصر مدينة أربونه، التي لا بد وأنها حصنت في غضون تلك الفترة. ولما اضطرها المحاصرون إلى فتح أبوابها، اعملوا السيف في الرجال وسبيت النساء والاطفال. وبفضل قربها من البحر وبين المستنقعات، كانت أربونة مدينة سهلة لدخول السفن الآتية من الاندلس، كما كانت من جهة البر في حالة تسمح لها بمقاومة الغزاة.

ولما قرر السمح أن يتخذ منها قلعة المسلمين في فرنسا زاد من تحصينها. وزيادة على ذلك، فقد احتل المدن المجاورة لها، ثم زحف على « تولوز » (Toulouse) التي كانت آنئذ عاصمة اكيثانية. خشي الملك أود على مصرع عاصمته فجمع كل ما يتوفر لديه من الجنود وسار للدفاع عنها.

كان المسلمون قد شرعوا في ضرب حصار على المدينة وبدأوا في

ونفح الطيب 58/3 و379/6 وتاريخ الخميس 318/2 والكامل لابن الاثير 43/5 ومراة الجنان 224/1.

(19) Chronique de l'Abbaye de Moissac dans le Recueil des Historiens des Gaules, Par Dom Bouquet, T.III, p.654; Paul Diacon, De Gestis Langbardorum, dans le Recueil de Moratori, T.I., 1er partie, p.505.

استخدام آلات الحرب التي احضروها معهم، وبواسطة مراجعهم أخذوا يدفعون بالسكان الذين كانوا فوق التحصينات إلى الداخل، فكانت المدينة على وشك السقوط في أيديهم حينما وصل إليها أود. ويقول المؤرخون العرب إن الغبار الذي كان يتصاعد تحت أقدام المسيحيين كان من الكثافة بحيث يغطي ضوء النهار عن أعينهم.

ولكي يطمئن المسلمون، كان السماح يقرأ عليهم آيات من القرآن مثل قوله تعالى ﴿وإن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾.

ويضيف المؤرخون العرب قائلين إن الجيشين انقض أحدهما على الآخر كالسيل العارم النازل من جبل، فكانت المعركة حامية الوطيس والظفر فيها غير مؤكد، وكان السماح يظهر في كل مكان في ساحة القتال، وكان يتمص شجاعة الأسد، وكان يستحث رجاله على القتال بالصوت والاشارة. ويقولون إن الجنود كانوا يتعرفون على الممر الذي سلك بأثر الدماء التي تجري فيه والتي تركها سيفه. ولكنه بينما كان يقاتل في قلب المعركة أصابه رمح وأسقطه عن فرسه. ولما رآه المسلمون يسقط اضطربت صفوفهم وانسحبوا تاركين ساحة المعركة مغطاة بالموق.

وقعت هذه المعركة في شهر مايو سنة 721 م (ذو القعدة 102 هـ). وقد سقط فيها كثير من أعلام المسلمين، وبعضهم ممن شاركوا في الغزوات السابقة. وقد تولى عبدالرحمن [الغافقي]⁽²⁰⁾ الذي تسميه التواريخ الأوروبية

(20) عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي، أبو سعيد، أحد كبار القادة وأمراء الجيوش الشجعان، ينتمي إلى غافق، القبيلة اليمنية، اتصل بموسى بن نصير وابنه عبدالعزيز في الأندلس وتولى قيادة الشاطيء الشرقي في الأندلس وشارك في غزوة السماح لأربونه وانتخبه المسلمون بعد مقتل السماح أميرا عليهم وأقره على ذلك والي افرقية، قبل أن يوليه هشام بن عبدالملك إمارة الأندلس (سنة 112 هـ). وقد غزا بعد ذلك فرنسا وأوغل في

«عبدالرام» قيادة الجيش بعد ذلك وعاد به إلى الأندلس.

أعاد الظفر الشجاعة إلى نفوس المسيحيين في لانجدوك وفي البيرنيز فسارعوا لازاحة النير عن أعناقهم، ومع ذلك، فإن المسلمين لا يزالون أسياذ أربونة. ومن هذه المدينة المحصنة والتي تقع بعيدا وراء الحدود، كان المسلمون يقومون بغارات على البلدان المجاورة. وبعدما وصلتهم النجذات من الأندلس قاموا بهجمات في جميع أنحاء لانجدوك. كانت الكنائس والاديرة في تلك العهد تتمتع بالقوة والسلطة وكانت تضم ثروات كبيرة. وكذلك كانت الكنائس ومراكز المقاومة هي الهدف الأول لغارات المسلمين. ومن جهة أخرى، يجب أن نتذكر أن الروايات التاريخية التي وصلتنا عن هذه الفترة من تاريخنا إنما كتبها القساوسة ورجال الكنيسة عموما، ومن ثم، فلا غرو أن نجد الاحداث التي تتصل منها بالكنيسة تحتل مكان الصدارة.

يتحدث المؤرخون المسيحيون المعاصرون لهذه الاحداث عن تخريب أديرة «جوسل» (Jaucels) قريبا من «بيزير» (Beziers) و«سانت بوزيل» (St. Bausile) قريبا من نيم. وكذلك خرب دير يقع في «سانت جيل» (St. Gilles) قرب آرل (Arles)، حيث بنيت فيما بعد مدينة تحمل نفس الاسم، ودير في منطقة «ايجمورت» (Aiguemortes) حيث كان الرهبان ملتزمين بأن يقوموا بذكر الله بدون انقطاع بالليل والنهار.

كان وصول المسلمين إلى هذه الأديرة مفاجأة كبيرة، فلم يكذ الرهبان يجدون الوقت للخروج بما فيها من الآثار والتحف الدينية⁽²¹⁾ وكذلك استطاعوا

= مقاطعتي اكيثانية وبورجونيه، وقد استشهد في واقعة «بلاط الشهداء» بواتيه بقرب نهر اللوار.

انظر الكامل لابن الاثير 64/5 وجذوة المقتبس ص 203 وغزوات العرب ص 115 - 122 ونفح الطيب (الفهرست).

(21) راجع: Histoire de Nimes, par Menard, T.I, p.98. et suiv.

تخطيط أجراس الكنائس، أو بعبارة أدق، تلك الأدوات المماثلة التي يدعون الناس بواسطتها إلى الصلاة⁽²²⁾.

ليس من شك في أن المسلمين وجدوا من السكان بعض المقاومة، ولكن المؤكد أن المسلمين لم يستعملوا هذا العنف في البلدان التي أعلنت خضوعها من تلقاء نفسها.

وفي سنة 724م (106 هـ) عبر بنفسه عنبسه⁽²³⁾ والي الاندلس جبال البرينيز وصمم على أن يواصل الفتح بكل قوة ونشاط. وكذلك استولى المسلمون على قرقشونة واستباحها الجنود، وفتحت لهم نيم أبواها وأخذوا رهائن من أعيانها أرسلوا إلى اشبونه ليكونوا ضمانا على ولاء سكانها⁽²⁴⁾. وفتوحات عنبسة، فيما يقول ايزدور دويجة كانت نتيجة للبراعة الحربية أكثر مما كانت نتيجة للقوة⁽²⁵⁾. وكانت فتوحات هذا القائد من الأهمية بحيث أن الأموال التي كانت تجبى في عهده تمثل ضعفي ما استخلص من بلاد الغال في

(22) راجع: نهاية الارب للنوري، النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 702، ورقة 10.

(23) اختلف المؤرخون فيمن ولّى عنبسة بن سحيم الكلبي على الاندلس، فبينما يذهب صاحب بغية الملتبس والحميدي في جذوة المقتبس إلى أن بشر بن صفوان، أمير إفريقية هو الذي قلده الولاية في سنة 106 هجرية، يذكر «ابن عذاري» والمقري الذي ينقل عن ابن حيان الاندلسي وعن ابن خلدون، إنه قدم على الاندلس واليا من قبل يزيد بن أبي مسلم «وإن قدومه كان في سنة 103 هـ». ولكن الجميع متفقون على أن عنبسة توفي في سنة 107 هـ. وإنه أوغل في غزو بلاد الفرنج، فعبر نهر الرون إلى الشرق حيث أصيب بجراح كانت السبب في وفاته. انظر سيرته وغزواته في الكامل لابن الأثير 5/1356، والبيان المغرب 27/2 وجذوة المقتبس ص 319 ونفح الطيب 16/3 - 18 وغزوات العرب ص 83 - 84.

(24) أنظر: Chronique de Moissac, Recueil des Historiens des Gaules, T. II., أنظر: p.654.

(25) أنظر تاريخ ايزدور، أسقف بجة، المصدر المذكور.

السنوات السابقة. وقد توقفت هذه الحملات وقتا من الزمن، عقب موت غنيسة في غضون إحدى المعارك في سنة 725م (107هـ). فحل محله في القيادة «حيدرة» وعاد بالجيش إلى الأندلس.

على أن الحرب لم تلبث أن استؤنفت بضراوة أشد من ذي قبل، ولا سيما بعدما تلقى الجيش الاسلامي نجدات من الأندلس. وقد تشجع رؤساء الجيش لقلّة ما لقوه من المقاومة، فلم يترددوا في أن يرسلوا الكتائب في مختلف الاتجاهات. وكما قال أحد المؤرخين العرب، فإن ريح الاسلام كانت تهب في كل اتجاه ضد المسيحيين. فإن المسلمين قد اجتازوا سبتمانية حتى نهر الرون، و«البيجوا» (Albigois) و«روورج» (Rouergue) و«جيفودان» (Givodan) و«فيلي» (Velay) في جميع الاتجاهات وعاثوا فيها فسادا. ومن نجا من السيف كان طعمة للنيران. وكثير من كبار الغزاة انفسهم استنكروا ما تخلل هذه الغزوات من العنف والقسوة. وقد كان الغزاة لا يبقون إلا على الاشياء الثمينة التي يمكنهم نقلها والأسلحة والخيول. وكل ما كان ينهك البلد كان من شأنه أن يزيد من قوتهم.

ومن بين الأماكن التي تضررت من الغزو أكثر من غيرها، يذكر المؤرخون منطقة «ديوسيز دو روديس» (Diocèse de Rhodes) فهناك استقر العرب وتحصنوا في قلعة منيعة يتعرف البعض عليها في قلعة «روكبريف» (Roquebrive) والآخرين في قلعة «بلاجير» (Balaguier)⁽²⁶⁾. ويتعاون

(26) راجع: Les Essais historiques sur le Rouergue, par le Baron Gaujal, Limoges, 1824, 2vol. T.I., p.170.

وهذا المؤلف يخبرنا أنه توجد في سهول «لازاك» (Lazac) آثار قلعة تسمى «قلعة السارازين» (Castel Sarrazin) حيث كانت للمسلمين مواقع عسكرية.

مع بعض عناصر السكان المحليين كانوا يجولون في عرض البلاد دون أن يعترض طريقهم معترض. ونحن نملك في هذا الموضوع شهادة شاعر كان يكتب في أوائل القرن التاسع ، وهي شهادة نرى من الضروري إيرادها برمتها لأهميتها .

يتحدث الشاعر عن شاب اسمه « داتوس » أو « دادون » حمل سلاحه عند اقتراب العرب ، وابتعد عن أرضه مع عدد من المحاربين تاركاً أمه وحدها . وأثناء غيابه زار العرب داره وأخذوا ممتلكاته وأسروا أمه التي أخذوها مع الغنائم إلى القلعة .

ولما بلغت هذه الأخبار إلى الشاب ، سارع مع فئة من رفقائه على متن جواد وكانوا مسلحين من الرأس إلى أخمص القدم . ولكن لندع الشاعر الآن يتحدث بلغته :

« كان « دادون » ورفقاؤه على استعداد لاقتحام القلعة . ولكنه رأى ان يصنع كما يصنع النسر الذي يختطف صغار الطير بمخلبه بعدما دخلت مجالاته ثم آوى إلى وكره ، بينما تحوم في الجو رفقاء ضحاياه وهي تثن من الألم ، فإن العرب قد اعتصموا وراء أسوار قلعتهم آمنين ، وهم يهزأون بتهديدات دادون ومحاولاته . ولكن أحد هؤلاء العرب تنازل مع ذلك ، في آخر الأمر ووجه الخطاب بلهجة رقيقة إلى دادون يسأله لماذا جاء ، ويقول له إنه إذا كان قد جاء لاسترجاع أمه ، فيمكنه أن يفتديها بجواده ، وإلا فإنها ستبقى حيث هي . وقد رد عليه دادون قائلاً إنه لا يمكن للعرب أن يصنعوا ما شاءوا بأمه وأنه في الوقت نفسه لن يتنازل عن فرسه أبداً ، ولكن العرب قتلوا أمه ، وراح دادون ييكها بدموع ساخنة ويستنجد بالسكان لأخذ الثأر . ولكن كيف يمكنه أن يقتحم القلعة على العرب ؟ » .

ولما اعيتته الحيلة ترك دادون العالم وزهد واعتزل في مكان يقع على ضفاف نهر «الدوردون» (le Dourdou) حيث أقيم، فيما بعد دير «كونك» (Conque).

وإزاء عدم وجود شهادات كثيرة يمكننا أن نستدل أيضا بحادثة أخرى على طابع الشدة والقسوة التي رافق الغزو العربي الذي تعرض له جزء كبير من فرنسا. وهذه الحادثة وقعت في دير «موناستي» (Monastier) في منطقة «فيلي» (Velay). قيل إن المسلمين غزوا أبراشيات «بوي» (Puy) و«كليرمونت» (Clermont) وأنهم سطوا على كنيسة «بريود» (Brioude) قبل أن يقتربوا من الدير الذي يسمى «سانت ثيوفرو» أو «سانت شافر».

جمع رئيس الدير القساوسة وطلب إليهم أن يخرجوا منه إلى الغابات المجاورة وأن يحمل كل واحد منهم بعض مقتنيات الدير الثمينة، وأوصاهم أن يبقوا مختلفين حتى تتحسن الظروف. أما هو شخصيا فقد صرح لهم بأنه سيبقى في الدير ليتحمل ما سوف ينزله به الغزاة من العذاب. وقال إنه سيكون سعيداً إذا تمكن من إعادة المسلمين إلى طريق الصواب، ولكنه سيكون أسعد إذا نال الشهادة، وعندما سمعوا هذه الكلمات ذرفت عيون القساوسة بالدموع وراحوا يستعطفونه ويرجونه أن يخرج معهم إلى الغابة، أو يسمح لهم بالبقاء معه ليشاركوه مصيره. ولكنه أصر على موقفه وراح يضرب لهم أمثلة في التاريخ الديني وقال لهم إن القديس بولص الذي كان اليهود أعداءه يطاردونه في دمشق لم يجد مانعا لأن يضعوه في سلة وينزلوه من على سور المدينة إلى خارجها. وكذلك القديس بطرس الذي اضطر هو أيضا إلى الفرار من غضب نيرون، وفيما يخصه هو، قال إنه يتحتم أحيانا على الراعي أن يتقدم رعيته، وأنه ربما هدى الله الغزاة على يده، ولكنه إذا قتل فسوف يكون دمه شفاعة لتخفف من غضب الله الذي أثاره شيوع الفاحشة.

وأخيرا رضخ القساوسة لأوامره وقرروا الخروج من الدير في اليوم التالي. وبعدما صلى بهم رئيس الدير أخذ كل واحد منهم ما أمكنه جمعه من التحف والأشياء الثمينة وسار في اتجاهه. ولكن اثنين منهم بقيا متسترين واتجها إلى جبل يشرف على الدير وراحا يراقبان من هناك ما سيجري.

ولم يلبث العرب (أو ما اعتقد أنهم العرب) أن وصلوا. كان رئيس الدير متلهيا بالصلاة فلم يعيروهم التفاتة وراحوا يبحثون في الدير متأملين الحصول على غنائم كبيرة. وقد كانوا ينوون أسر القساوسة الشبان الأشداء وبيعهم في أسواق النخاسين ولما أدركوا أنهم هربوا وأخذوا معهم مقتنيات الدير انهالوا بالضرب على رئيس الدير.

يقول المؤرخون إن ذلك اليوم كان يوم عيد للغزاة ولذلك راحوا يقدمون القرابين ويشربون ويعربدون، وعلى الرغم من أن هؤلاء المؤرخين لا يحددون نوع القرابين التي كانوا يقدمونها، فإن من السهل أن نستنتج من هذه الحقيقة أنه على الرغم من أن العرب غزوا هذه المنطقة فإن العصابة التي استولت على الدير ليست من المسلمين، بل كانوا من البرابرة الشماليين الذين كان عدد كبير منهم لا يزال في ظلمات الجهالة وعلى الوثنية.

كان البرابرة منهمكين في طقوسهم الدينية حينما تقدم إليهم رئيس الدير وعرض عليهم ترك الوثنية وعبادة الأصنام والتحول لعبادة خالق الكون. ولكن هذه الدعوة زادت من غضبهم إلى حد أن قام الشخص الذي يتولى تقديم القرابين وأخذ حجرا كبيرا ورماه به على رأسه ووقع القسيس على الأرض فاقد الوعي. وبعد ذلك كان البرابرة يستعدون لاشعال النار في المعبد، لولا أن زوبعة كبيرة ثارت وأخذ البرد يتساقط والرعد يدوي. وعقب ذلك ببضعة أيام مات رئيس الدير وعاد القساوسة بأمان إلى المعبد.

على الرغم من أن المؤرخين العرب غير صريحين في هذه القضية فإن المرجح أن تكون هذه هي الفترة التي وقع فيها غزو المسلمين لولاية دوفيني (Dauphiné) وليون وبورجون (Bourgogn). لقد تحدث أحد الكتاب المسلمين عن هذه الحوادث بالعبارات التالية:

«قذف الله الرعب في قلوب الكفار. ومتى اقترب أحدهم من المسلمين فهو إنما يفعل ذلك لطلب الرحمة والشفقة. استولى المسلمون على البلد وأعطوا الأمان ثم توغلوا حتى وصلوا إلى وادي الرون. وهناك راحوا يبتعدون عن الشواطئ ويتوغلون في داخل البلد»⁽²⁷⁾.

ونحن لا نعرف الأماكن التي دخلها المسلمون الا بما تركوه فيها من آثار التخريب. ففي ضواحي «فين» (Vienne) على ضفاف نهر الرون، لم تعد الكنائس والأديرة سوى ركام من الخرائب. وكذلك أصيبت كنائس ليون بالخراب والدمار⁽²⁸⁾. وكذلك دمرت كل من «ماكون» (Macon) و«شالون

(27) المؤرخ العربي الذي يشير إليه المؤلف هو أحمد المقرئ الذي ينقل عن ابن حيان. وقد ذكر المقرئ الغزوات التي قام بها طارق بن زياد وموسى بن نصير بالعبارات التالية (ونحن نورد النص العربي في الهامش لأن ترجمته الفرنسية تختلف عن الأصل بعض الاختلاف):

«ثم إن موسى اصطَلَح مع طارق وَاظْهَرَ الرُّضَى عنه، وأقره على مقدمته على رسمه وأمر بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعجلها وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يبران بموضع إلا فتح عليها، وغنمها الله تعالى ما فيه. وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح، وموسى يحيى على إثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق الناس ما عاهدوه عليه». انظر مزيداً من التفاصيل في نفح الطيب، طبعة إحسان عباس، 1/273.

(28) راجع المصدر المذكور: Gallia Christiana, T. IV, p.51.

الواقعة على الصون» (Châlon sur-saône)⁽²⁹⁾ كما تعرضت بون (Beaune) لخراب فظيع، كما التهمت ألسنة النار كنائس «سانت نزيير» (Saint Nazure)، وهدم دير «سانت مارتن» (Saint Martin) الذي يقع قريبا من المدينة⁽³⁰⁾

وفي «صوليان» (Saulien) نهب ابرشية «سانت اندوش» (Saint Andoche). وعلى مقربة من «ديجون» (Dijon) دمر المسلمون دير «بيز» (Béze).

والرأي السائد هو أن المسلمين توغلوا في هذه الغزوات إلى أبعد من الأماكن المذكورة. وإذا لم تكن حركة الغزو تسير وفقا لخطة مرسومة، فإن المسلمين لم يلقوا، مع ذلك، سوى مقاومة ضعيفة، مما يدل على الحالة المحزنة التي كانت توجد فيها فرنسا وعدم وجود حكومة تستحق هذا الاسم فيها. على أننا إذا قارنا ما حدث في فرنسا بما حدث من قبل في الأندلس، فنستجد أن الغزاة الفاتحين، لم يجدوا في أي مكان - إذا استثنينا الأفراد من الانتفاعيين الذين لا وطن ولا ملة لهم - أي تعاطف أو تعاون من السكان. وحتى في المدن التي استقر فيها المسلمون بصفة دائمة، مثل أربونه وقرقشونه، فإن الجماهير ظلت على ولائها لقوانين الكنيسة.

وفي هذه الأثناء، لا تذكر التواريخ شيئا عن أود، دوق أكيثانية، ولا عن شارل مارتل الذي كان في ذلك الوقت وزيرا في قصر مملكة أوسترازي. فإن أود الذي لم يقع أي هجوم على ولاياته كان يتردد في استفزاز عدو خطير وإثارته ضده. وأما شارل مارتل فقد كان منهمكا في الحرب لاختضاع البافاريين

(29) نفس المصدر 860/4 و1042.

(30) انظر تاريخ Recueil des historiens des Gaules, T. II. p.655: Moissac وكذلك : l'Histoire de Bourgogne, par Dom Plancher T.I., p.7

Gallia Christiana, T.IV, p.450.

وكذا:

والساكسون الذين كانوا يهددون باستمرار بعبور نهر الرين والاستقرار في قلب مملكته. وهذه هي الأسباب التي منعتهم من الانتقام للمحاولات التي قام بها المسلمون ضد البورجون، وهي ولاية تعترف بسلطة شارل مارتل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن شارل وأود كان أحدهما ينظر إلى الآخر بعين الحسد والشك، وذلك على الرغم من الصلح الذي عقدها.

إن المؤرخين العرب الذين لم يكونوا على اطلاع على هذه السياسة النحسة، والذين عرفوا فيما بعد الشدة التي دفعهم بها شارل الذي يسمونه «قارل»، يشعرون بالحاجة إلى تفسير مظاهر التقاعس التي يلاحظونها كما عبّر عنه أحدهم في العبارة التالية⁽³⁴⁾.

«ولما أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع منهم قارله، ملك الافرنجة بالارض الكبيرة، وانزعج لانبساطهم، فحشد لهم، وخرج عليهم في جمع عظيم، فلما انتهى إلى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عنه...».

ويعضى المقري نقلا عن الحجاري في المسهب: فيقول: «فاجتمعت الافرنج إلى ملكها الأعظم، قارله، وهذه سمة لملكهم، فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الاندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل، وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي ألا نعترضهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه، وهم في اقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا

(34) المؤرخ المشار إليه هو أحمد المقري. ونحن نقل نص اقتباس المؤلف حرفيا وندرجه في الأصل من نفع الطيب، 274/1.

المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ يتمكنون منهم بأيسر الأمور).

كانت ولاية الأندلس في سنة 730م (112 هـ) قد انيطت بعبدالرحمن (الغافقي) الذي رأينا كيف عاد بالجيوش الاسلامية إلى الأندلس عقب وفاة السمع. وقبل ذلك كان قد تولى أمانة الجيش في المنطقة المجاورة لجبال البرينيز. كان عبدالرحمن زاهدا صارما وكان الجيش يحبه، خصوصا، لقلة اكرائه بأمور الدنيا إلى درجة أنه كان يتنازل عن نصيبه من الغنائم التي يأخذها من العدو. وزيادة على ذلك، كان يحظى بتوقير خاص لأنه كان صديقا حميما لعبدالله بن عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، مما جعله من كبار حفاظ السيرة.

كان عبدالرحمن الغافقي مصمما على الثأر للفشل الجزئي الذي منيت به أسلحة المسلمين في السنوات الماضية في فرنسا، وقد كان في نيته إخضاع هذا البلد كله. ومتى تغلب على هذه العقبة، كان يريد بسط سلطان الاسلام على إيطاليا وألمانيا والامبراطورية الاغريقية. وبالنظر إلى أن الحماس كان لا يزال على أشد ما يكون للجهد، وأن الأرض الفرنسية تتمتع بخصوبة فائقة وتحتوي على مدن مغرية، وأن المحاربين كانوا يتقاطرون زرافات ووحدا على الأندلس، فقد أراد استغلال جميع هذه العوامل لمد حدود الفتوحات الاسلامية إلى أوسع مدى ممكن. وبينما كان تدريب الوافدين الجدد على استخدام الأسلحة، كان عبدالرحمن الذي اتخذ قرطبة مقرا له، يطوف بمختلف ولايات الأندلس لجمع الأموال لبيت المال. وفي غضون هذه الجولات كان يقوم بتنظيم الادارة ويصلح ما طرأ عليها من الخلل، فكان يعزل العمال الذين خرجوا على الطريق ويعين في أماكنهم آخرين من ذوي الكفاءة والصلاح. وكذلك كان عبدالرحمن يعامل المسيحيين معاملة تتفق مع نصوص المعاهدات التي تربطهم بالدولة الاسلامية. وقد قام عبدالرحمن بإعادة الكنائس التي أخذت

من المسيحيين بغير حق، ولكنه هدم الكنائس التي أخذ بعض العمال رشوة في مقابل السماح ببنائها، والتوقع أن المسلمين كانوا في جميع الأوقات لا يسمحون ببناء معابد جديدة ما عدا المساجد، بل انهم في بعض الأحيان لم يكونوا يسمحون بترميم المعابد القديمة.

ليس من شك في أن المسلمين كانوا يشنون غارات أثناء احتلالهم لاربونة وقرقشونة وسبتمانية، على المناطق المجاورة لها. على أن ظروفًا خاصة ساعدت على حماية الولايات المسيحية بعض الوقت. فإن حاكم مقاطعة سردانية (Cerdagne) ومناطق جبال البيرنيز كان، في رواية ايزودور، اسقف بجة، ورودريج خمينز، من المحاربين الافريقيين الذين ضمو جهودهم إلى جهود العرب وساهموا مساهمة فعالة في اتمام فتح الأندلس، وكان يسمى «مونوزة». كان هذا الحاكم يبدي كثيرا من الصرامة والعنف تجاه المسيحيين في مبدأ الامر، بحيث أنه أحرق اسقفا يدعى «انامبادوس» حيا. ولما ظهر الشقاق بين العرب والبربر، اتخذ موقفا مواليا للبربر الذين كان يرى أنهم وقعوا ضحية للظلم. وقد وقع تقارب بينه وبين المسيحيين إلى درجة أن الدوق أود، دوق أكيثانية، زوجه ابنته التي اشتهرت بالجمال والتي يسميها المؤرخون «لامبيجة».

إن «كوندي» الذي اعتمد بدون شك، رواية لبعض الكتاب العرب، يذكر هذه الحوادث في صيغة أخرى. فهو يقول إن مونوزة، الذي يخلطه بشخص عربي اسمه عثمان بن أبي نعسه الذي كان عاملا على الاندلس مرتين، كان ينافس عبدالرحمن الغافقي ويرى نفسه أولى منه بالولاية، وأنه قد أسر الأميرة «لامبيجة» في إحدى غزواته. ولما أخذ بجمالها تزوجها، «فارتبطت بذلك مصالحه بمصالح الدوق أود».

ولما أبدى عبدالرحمن نيته في التوغل من جديد على رأس جيشه في فرنسا، اعتقد مونوزة أن من واجبه أن يحمي علاقات القرابة بينه وبين بيت أود. وإزاء رفض عبدالرحمن الاعتراف بمعاهدة عقدها مونوزة مع أود، قاتلاً

إنه لا يمكن وجود وسيلة أخرى للتفاهم بين المسلمين والمسيحيين سوى حد السيف ، سارع مونوزة إلى إعلام حيه بخطط عبد الرحمن حتى يمكنه من اتخاذ الاجراءات الدفاعية الضرورية⁽³⁵⁾ .

ومهما يكن من أمر ، فإن عبد الرحمن الذي علم بعلاقات المصاهرة بين مونوزة وأود قرر أن يحول دون أن تصبح هذه العلاقات خطراً وعائقاً في طريق فتوحاته . وهكذا وجه جيشاً مختاراً إلى جبال البيرنيز وهجم على مونوزة وأخذ على غفلة . ولما اشتد عليه الخناق وأصبحت المقاومة مستحيلة التجأ مونوزة إلى الجبال ومعه زوجته لاميبيجة . على أن أعداءه تعقبوه ولم يتركوا له الوقت لاستجماع قوته . وقد ساروا خلفه من صخرة إلى صخرة ، وهو يتألم من جراحه ومن الجوع والعطش دون أن ينجده أحد من المسيحيين الذين كان يعاملهم بقسوة . وفي آخر الأمر ، القى بنفسه من إحدى قمم الجبل ومات . وقد حزت رأسه على الفور وأرسلت إلى دمشق . وكذلك أرسلت زوجته «لامبيجة» إلى قصر الخليفة. وهذه الحوادث وقعت في بويسرده (Puycerda) وضواحيها⁽³⁶⁾ .

وفي نفس الفترة؛ إذا صدقنا ما يقوله رودريك خيمينيز، قامت قوات المسلمين المرابطة في لانجدوك بهجوم على مدينة آرل التي كانت تمر بحالة

(35) انظر المصدر المذكور: Conde, Histoire, T.I., p.83.

وقد ذكر أحد المؤرخين المسيحيين أن أود لم يقتصر على مصاهرة العرب، بل هو دعاهم أيضاً إلى الدخول إلى فرنسا. ولكن هذه الرواية التي اعتمدها كثير من القدماء والمحدثين، يبدو أنه لا أساس لها من الصحة، كما لاحظ ذلك « باجي » (P.Pagi) في كتابه Critique des annales de Barnus and 732 No.1.

(36) راجع المصدر المذكور:

Isidor de Beja. P. LVI.

Rodric Himenes, p.12. وكذلك المصدر المذكور:

ازدهار غير معهودة . وقد قامت المدينة بمقاومة شديدة للهجوم ، بحيث يتحدث رودريك على معارك دامية على ضفاف نهر الرون قتل فيها عدد كبير من المسيحيين ، بينما حملت مياه النهر عدداً آخر منهم ، وأما الذين غرقوا وأمكن انتشال جثثهم فقد دفنوا في وقار في « اليسكامب » ، وهو الاسم الذي كانت تعرف به مقبرة آرل القديمة ، وحيث كان السكان حتى في عصر رودريك ، أي في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) يقصدون للترحم على قبور موتاهم⁽³⁷⁾ .

والمؤرخون العرب لا يذكرون مدينة آرل باسمها ، ولكنهم ، مع ذلك يتحدثون عن مدينة ربما كانت هي هذه المدينة العظيمة . وفي ذلك يقول أحدهم :

« وقيل إنه [موسى بن نصير] أوغل في أرض الفرنجة حتى انتهى إلى مفازة عظيمة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية »⁽³⁸⁾ .

ويضيف كاتب آخر قائلاً إن المدينة مبنية على نهر عظيم وهو أكبر أنهار

(37) يقول المؤلف في هامش إن هذه المقبرة كانت لا تزال موجودة حتى عهده (أي النصف الأول من القرن الماضي) ولكنها مجردة من كل آثارها القديمة . أنظر La Statistique du Departement des Bouches du Rhône, T.II., p.438.

ومن جهة أخرى توجد قصيدة في الشعر الفرنسي بعنوان : «Poème de Gaullaum au courtneuz» يفترض كاتبها أن جنوب فرنسا كله وقع تحت احتلال المسلمين ، ويصف معركة كبيرة وقعت بينهم وبين الفرنسيين عند مدينة آرل . والقسم الذي يتحدث فيه الشاعر عن هذه المعركة بعنوان « معركة أليسشا » . وفيه أن الذين كانوا يقودون جيوش المسيحيين هم أبناء وأحفاد « اميري » (Ameri) ، دوناريون ، وأن غليوم بن اميري اوشك أن يفقد حياته في المعركة ، وأن ابن أخيه ، فيفيان (vivien) سقط في المعركة . ومخطوطة هذه القصيدة محفوظة في المكتبة الوطنية وتحمل رقم 23 (Manuscripts de la Vallière) .

(38) نقلنا النص حرفياً من نفع الطيب 277/1 .

البلد ، على مسافة فرسخين أو ثلاثة من البحر ، وتأتي إليها السفن من البحر . ويربط ضفتي النهر جسر عتيق البنيان من السعة والمئانة بحيث أنهم يقيمون عليه أسواقاً . وأما ضواحيها فهي كثيرة الطواحن وتخرقها الطرق⁽³⁹⁾ .

ربما كان الهدف الوحيد من الهجمات التي شنت على مدينة آرل هو تحويل انتباه المسيحيين . فبعد انتهاء الاستعدادات التي كان يقوم بها عبدالرحمن الغافقي والتي استغرقت سنتين ، إتجه جيش المسلمين نحو جبال البرينيز . والمؤرخون يختلفون حول التاريخ الذي وقعت فيه هذه الحملة ، ولربما كانت في سنة 732 م . (114 هـ .) . كان جيش عبدالرحمن كبيراً وشديد الحماس . ويبدو أن عبدالرحمن قد سلك طريق أرجون (Aragon) نافار (Navarre) (نابارة) وأنه دخل إلى فرنسا عن طريق وادي « بيجور » (Bigorre) (وادي « بيارن » (Béarn) . وهذه الحقيقة تشهد بها أيضاً آثار الخراب التي رافقت هذه الحملة من كنائس احرقت وأديرة دمرت الخ . ، فإن أبراشيات « سانت سرفان » الواقعة قريباً من « طارب » (Tarbe) في بيجور قد دمرت كلها ، كما تحولت كنائس « اير » (Aire) و « بازاس » (Bazas) و « أورلون » (Orelon) و « برن » (Bearn) إلى خرائب في اعقاب هذه

(39) هذه الفقرة لم توضع بين فاصلتين معقوفتين في الأصل ، وبالتالي ، فهي اقتباس غير مباشر لم يمكنني التعرف عليه . توجد كثير من الروايات التي تتصل باحتلال المسلمين لمدينة آرل . فان « انبيرت » المحامي في آرل ، مثلاً ، كتب دراسة نشرتها في سنة 1779 ، زعم فيها أن جبل « كورد » (Corde) الذي يشرف على المدينة إنما سمي بذلك لأن العرب الذين كانت قرطبة (Cordove) عاصمتهم كانوا يحتلونه ويرسلون منه السرايا للاغارة على المناطق المجاورة . وكذلك قيل إن الابراج التي بنيت حول مسرح آرل الخلوي ، على غير العادة ، إنما أقيمت لغرض مراقبة تحركات العرب في الوقت الذي كانوا يهددون فيه هذه المدينة .

الحملة⁽⁴⁰⁾ وكذلك التهمت ألسنة النار دير « سانت كروا » الذي يقع غير بعيد من « بوردو » (Bordeaux)⁽⁴¹⁾ .

ومدينة بوردو نفسها لم تقم بأية مقاومة تذكر للغزو العربي . عبثاً حاول أود الذي كان أمامه وقت كاف لجمع القوات ، وقف زحف المسلمين عند معبر نهر « دوردون » (Dordogne) ، فقد هزم ، وكان عدد القتلى من المسيحيين من الضخامة بحيث لا يحصىه إلا الله ، حسبما ذكر ايزيدور اسقف بجة . وبالنظر إلى أن أود كان عاجزاً عن القيام بالحرب بنفسه ، فقد طلب المساعدة من شارل مارتل الذي كانت ولاياته على وشك أن تقع ضحية للغزو العربي والذي كان قد استدعى عصابات من ضفاف الدانوب ونهر « الالب » (Elbe) والمحيط الأطلسي .

وفي هذه الأثناء استمرت الحملة في نشر الخراب في طريقها ، فخرّب العرب دير « سانت إميليان » الذي يقع في ضواحي « ليبورن » (Libourne) ، كما أحرقوا كنيسة « سانت هيلير » في « بواتيه » (Poitiers)⁽⁴²⁾ .

يتحدث المؤرخون العرب عن « كونت » تجراً على إعلان المقاومة فهزم وحزت رأسه ، ونهبت عاصمته التي كانت تحتوي على كثير من الكنوز والذخائر التي كان من بينها الياقوت والزبرجد . لقد كان حماس المسلمين وشدة بأسهم من القوة والعتوّ بحيث أن المؤرخين العرب أنفسهم يشبهونهم بالعاصفة التي لا تُبقي ولا تذر⁽⁴³⁾ .

(40) راجع المصدر المذكور: Gallia Christiana, T.I , p.1149, 1192, 1244, 1247, 1261, et 1268 .

وبرن مدينة قديمة كانت تحتوي على اسقفية وهي غير مدينة برن Berne عاصمة سويسرا الحالية.
(41) نفس المصدر 858/1 .

(42) نفس المصدر 881/1 ، وكذلك : Recueil de Dom Bouquet, T., II., p.454 et 684 .

(43) راجع المصدر المذكور: Conde, Historia, T.I., p.86 .

كان العرب يعتمزون فرض مصير مائل لمدينة « تور » (Tours) التي كانت تغريهم ثرواتها والكنوز التي كان يحتوي عليها دير « سانت مارتن » ، حينما أعلن وصول شارل مارتل إلى ضفاف نهر لوار .

وعقب ذلك أخذ كل من الجيشين في الاستعداد لمواجهة غريمة ، وبالنسبة للمسيحيين لم تتعرض مصالحهم قط لخطر مثل الخطر الحاضر ، لأن المعركة تستهدف المحافظة على دينهم ومؤسستهم وممتلكاتهم ، بل وحياتهم أيضاً .

وأما بالنسبة للمسلمين ، فإن الهدف من الحرب التي يخوضون غمارها هو نشر دينهم الذي يعتقدون أنه الدين الوحيد الصالح ، وذلك إلى جانب الرغبة في الحصول على غنائم واسلاب . وزيادة على ذلك ، فهم يرون أنه لا يمكنهم الانسحاب بطريقة مشرفة إلا إذا حصلوا على النصر .

يقول أحد المؤرخين العرب إن عبدالرحمن الغافقي قد شعر بما يشبه الذعر لدى رأى شارل مارتل وذلك بسبب ما لاحظته من قلة الحماس وضعف الروح المعنوية في جيشه نتيجة للغنائم الهائلة التي كانوا يجرونها وراءهم ، وأنه قد خطر له في لحظة معينة أن يأمر جنوده بالتخلص من بعض أثقالهم . فقد كان يخشى أن تصبح هذه الغنائم التي كسبها المسلمون بكثير من المشقة والتضحيات في مرحلة معينة في المعركة ثقلًا يعرقل القتال ، ولكنه لم يرد إثارة شعور السخط بين جنوده في لحظة حاسمة في الحرب . وكذلك اعتمد على شجاعتهم وأسلم مصيره للحظ . ويضيف ذلك الكاتب قائلاً إن هذا الضعف كانت له عواقب وخيمة .

ويضيف نفس الكاتب قائلاً إن العرب قد اندفعوا إلى مدينة تور على رأى من شارل مارتل واعملوا في أهلها السيف ونهبوها ، وإن ما صنعوه في

هذه المدينة قد أثار غضب الله وكان سبباً في الكارثة التي حلت بالجيش الاسلامي⁽⁴⁴⁾ .

وأما المؤرخون المسيحيون الذين يجب الاعتراف بما يشوب ما كتبوه من النقص ، فإنهم لا يذكرون حتى مجرد حادث استيلاء المسلمين على مدينة تور ، وهم يفترضون أن العرب لم يمسا كنوز دير سانت مارتن . وهنا يجوز الافتراض بأن العرب لم يستولوا إلا على ضواحي المدينة .

وأخيراً ، وبعد ثمانية أيام ظل كل من الجيشين يراقب أحدهما الآخر من بعيد ، وبعد مناوشات صغيرة ، استعد الجيشان للدخول في معركة شاملة . والرواية العربية التي سبقت الإشارة إليها تقول إن المعركة بدأت في ضواحي مدينة تور . وهذا أيضاً هو رأي رودريك خيمينيز الذي يعتمد كثيراً على المصادر العربية⁽⁴⁵⁾ . ومن جهة أخرى ، فإن معظم المؤرخين الفرنسيين ، وخصوصاً ، « مواساك » الذي كان يكتب تاريخه وقت وقوع هذه الحوادث ، يؤكد القول بأن المعركة وقعت على مقربة من مدينة بواتيه .

ويمكن التوفيق بين هذين الرأيين بأن اللقاء الأول بين الجيشين وقع عند أبواب مدينة تور التي نهب العرب ضواحيها ، وإن المعركة التي وقعت عند هذه المدينة خسرها العرب ، ولكن هزيمتهم النهائية وقعت عند أسوار مدينة بواتيه⁽⁴⁶⁾ .

(44) راجع المصدر المذكور: Conde, Historia, T.I., p.87.

(45) قارن: Conde, Historia, T.I., p.87, Isidore de Beja, p.LVIII et Rodric Ximenès, p.13.

(46) توجد رواية قديمة في تور تقول بأن ضواحي المدينة كانت هي مسرح المعركة، وعلى التحديد، في المكان المسمى « سانت مارتن - لوبيل » (St. Martin-le-bel) وأما المؤرخ « شالميل » (Chalmel) فيرى في كتابه المعنون « Une Nouvelle Hit.de Tour » والذي نشر في 4 أجزاء في سنة 1828 ، فيرى أن المعركة جرت في سهل يقع على مسافة ثلاثة

كان ذلك ، في رأي بعض المؤرخين ، في أكتوبر سنة 732 م (رمضان 115 هـ)⁽⁴⁷⁾ وكان العرب هم الذين كانت لهم المبادرة في المعركة بهجمة اشتركت فيها كل خيالتهم . وأما الفرنسيون فقد كانوا يستمدون الروح المعنوية من انتصارهم السابق ومن وجود شارل مارتل على رأسهم ، شارل الذي كان يقاتل في المواقع المحاطة بالخطر . وعبثاً حاول المسلمون الذين اعتمدوا على خفة حركتهم بث الفوضى في صفوف المسيحيين الذين كانوا مسلحين بأسلحة ثقيلة ، هي أشبه ما تكون بحائط حسب تعبير كاتب معاصر للأحداث .

استمرت المعركة طوال اليوم ، ولم ينفصل الجيشان إلا عند حلول الليل . وفي الغد استؤنفت العمليات الحربية ، وضاعف المحاربون المسلمون الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذه المقاومة ، جهودهم وصمدوا أمام عدوهم . ولكنهم فجأة رأوا معسكرهم يقع في يد كتيبة مسيحية يرجح أنها كانت بقيادة دوق اكيثانية .

ولما انتشر خبر هذه الهجمة بين المسلمين غادروا صفوفهم في المعركة واتجهوا إلى المعسكر للدفاع عن الغنائم . عبثاً حاول عبد الرحمن الغافقي إعادة النظام إلى صفوف جيشه ، فقد ذهبت صرخاته مع الرياح ، وفي نفس الوقت أصيب هو بسهم أطلقه أحد المسيحيين وسقط صريعاً في المعركة مستشهداً .

= فراسخ من المدينة ويسمى : « أرض شرلمان » (Lande de Charlemagne) والذي يرى هو أنه كان ينبغي أن يسمى « أرض شارل مارتل » . والجدير بالذكر أن شاميل يستشهد في هذا السياق برواية كاتب عربي شهد المعركة بنفسه . ويضيف أنه تلقى نص هذه الرواية مترجماً إلى الفرنسية بيد شخص مجهول . ولكنه بالنظر إلى أن مثل هذه الرواية لا توجد في كتاب مطبوع أو مخطوط ، حسب علمنا ، ولا في كتاب كوندي الاسباني ، فينبغي عدم النظر بعين الاعتبار إليها .

(47) هذه أوثق الروايات العربية وقد اعتمدها المقرئ في نفع الطيب . وفي رواية اعتمدها المستشرق الاسباني كوندي ، إن معركة بواتيه وقعت في سنة 733 م (115 - 116 هـ) . أنظر غزوات العرب ، ص 119 هامش 3 .

ولما رأى الجيش قائده مضرجاً بدمائه شاع الاضطراب والهلع في صفوفه . وفي نهاية الأمر تمكن المسلمون من تخليص معسكرهم من يد النصارى ولكنهم تركوا عدداً كبيراً من القتلى في ساحة المعركة . وفي الليل قرر شارل مارتل مواصلة القتال في اليوم التالي ، ولكن العرب الذين توغلوا كثيراً في فرنسا التي كانوا يرومون إخضاعها اقتنعوا الآن بصعوبة مواصلة الفتوحات ، ولذلك لم يروا فائدة في الظهور في ميدان القتال . وكذلك استغلوا ظلام الليل وساروا مسرعين في اتجاه جبال البرينيز . وقد كان انسحابهم معجلاً بحيث انهم لم يجدوا الوقت الكافي لرفع خيامهم أو لحمل الغنائم الكثيرة التي استولوا عليها والتي كانت من أسباب النكبة الرئيسية .

وفي الغد جاء شارل مارتل على رأس جيشه إلى ميدان القتال وهو على استعداد لمواصلة المعركة . ولما بلغه انسحاب العرب عمد الى احتلال معسكرهم وقام بتوزيع ما كان يحتوي عليه من الغنائم والاسلاب ، ولكنه أهمل متابعة العرب وملاحقتهم ، إما لأنه كان يخشى أن يكون هذه الانسحاب المفاجئ خدعة حربية قام بها العرب لاستدراجه إلى كمين ، وأما لأنه رأى أن دولته قد أصبحت الآن بمنجى من كل خطر . والمؤكد أنه بعد المعركة مباشرة عبر شارل مارتل نهر اللوار واتجه إلى الشمال ، وهو أشد ما يكون فخراً بالنصر الذي أحرزه . وكذلك أضاف بعد هذه المعركة إلى اسمه شارل الذي كان ذائع الصيت قبلها اسم مارتل ، أو « المطرقة » ، بسبب الدور الذي لعبه شخصياً في المعركة مشبهاً نفسه بالمطرقة التي تكسر الحديد والصلب .

تلك هي نتيجة المجهود الضخم الذي بذلته الحكومة العربية في الاندلس خلال بضع سنوات . والرقم الذي أورده بعض المؤرخين المسيحيين ، وهو ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألف قتيل من المسلمين رقم مبالغ فيه ولا يمكن اعتماده . فمن المعلوم أن المسلمين لم يسقطوا كلهم في ميدان القتال : وكيف يمكن تجريد جيش تعداد رجاله أربعمائة أو خمسمائة ألف

مقاتل في عهد مليء بالفتن والاضطرابات الداخلية ، مثل ذلك العهد ؟ ولو فرضنا ذلك جدلاً ، فكيف يمكن توفير التموين ووسائل النقل لمثل هذا الجيش في اkitانية التي شهدت الخراب والدمار عدة مرات نتيجة لغزوات العرب أو للحروب الدامية التي وقعت بين شارل وأود ؟

على أنه لا يمكن إنكار القول بأن جيش عبد الرحمن الغافقي كان أكبر جيش وجهه المسلمون لغزو بلادنا وأكثره تدريباً على القتال ، وليس أدل على ذلك من المجهود الضخم الذي بذلته فرنسا كلها ومن المكان الذي احتلته هذه الأحداث في ذاكرة الناس عبر الأجيال .

إن الكتاب العرب الذين لم تكن لديهم سوى فكرة غامضة عن مسرح معركة بواتييه (وهذا يصدق أيضاً على الكتاب المسيحيين) لم يستطيعوا أن يقدموا إلينا رواية مفصلة عن هذه المعركة ولا عن مسيرة جيوشهم . وهم يقتصرون على تسمية المكان الذي وقعت فيه « بلاط الشهداء » .

والحق أن الكثيرين من اتباع محمد (ص) قد فقدوا حياتهم في هذه المعركة .

وقد اتجهت فلول الجيش الاسلامي إلى البرينيز وهي تحرب كل ما صادفها في طريقها . وقد اخترقت احدى الكتائب « لامارش » (La Marche) قرب « جيرى » (Gueret) و « ليموزين » (Limousin) حيث احترقت دير « صولينك » . وربما كانت هذه المسيرة البائسة هي المسؤلة عن كثير من الخراب والدمار الذي سبق لنا الحديث عنه لدى الحديث عن دخول جيش المسلمين إلى فرنسا . ويذكر أحد المؤرخين العرب أن المسيحيين تعقبوا المسلمين بالسيف حتى أسوار اربونة . وربما كان أود غير قانع باسترجاع ولاياته فأراد الانتقام لما تعرضت له من العنف من المسلمين .

كانت آثار الكارثة التي تعرضت لها أسلحة المسلمين في فرنسا تختلف في

الاندلس في وقعها على المسلمين والمسيحيين . فأما المسيحيون الذين يبقونون في جوار جبال البرينيز ، فقد رأوا فيها يد العناية الإلهية التي تدخلت لحمايتهم . وهذه أيضاً كانت نظرة سكان الولايات الشمالية في الاندلس الذين سارعوا إلى حمل السلاح لاسترجاع استقلالهم . وأما مسلمو الاندلس فقد تحول شعور الزهو والكبرياء في نفوسهم إلى يأس وحزن عام . وكذلك استغل أولئك الذين كان الشعور الديني لا يزال قوياً في نفوسهم كارثة الهزيمة لكي ينددوا بالفساد والانحراف في صفوف المسلمين ، حيث أن حب الترف واللذة قد احتل في نفوس الرجال ذلك المكان الذي كانت تحتله حتى ذلك الوقت التقوى وحب العمل لمجد الاسلام .

سارع خليفة عبدالرحمن الغافقي الى إبلاغ أخبار الكارثة إلى والي افريقية وإلى الخليفة في دمشق . وقد أرسل والي افريقية عاملاً جديداً إلى الاندلس على رأس قوات عسكرية مهمة ، وهو عبدالملك بن قطن⁽⁴⁸⁾ الذي تلقى أوامر من الخليفة بأن لا يهمل شيئاً في العمل للثأر لدماء المسلمين الغزيرة . وكذلك سار عبدالملك في اتجاه جبال البرينيز . ولما رأى قلة الحماس في صفوف جيشه الذي كان لا يزال تحت تأثير صدمة بواتييه ، قام خطيباً بينهم فوعظهم وبين لهم أن أياماً مشرقة لا تزال تنتظر المؤمنين وأن تلك الأيام هي أيام القتال والجهاد في سبيل الله . وقال لهم إن الموت والحياة والهزيمة والنصر كلها أمور بيد الله ،

(48) عبدالرحمن بن قطن بن نهشل الفهري (33 - 123 هـ.) ، أمير الأندلس وأحد القادة الشجعان ، شهد وقعة « الحرة » بقرب المدينة في سنة 63 هـ . أقام في إفريقيا ثم انتقل إلى الأندلس (في شوال 114) ، حيث كان مقيماً (على عكس ما يقول المؤلف من أن والي افريقية أرسله إليها) عند مقتل عبدالرحمن الغافقي ، وولي الأندلس ، فغزا بلاد « البشكنس » (Vascons) في سنة 115 هـ . وغنم فيها . وقد عزله ابن الحجاب أمير افريقية سنة 117 . انظر أخبار ولايه عبد الملك في نفح الطيب 18/3 — 19 ، وجذوة المقتبس ، ص 268 ، وبغية الملتبس ، ص 369 ، والكامل لابن الاثير ، 64/5 و 70 و 92 وجمهرة ابن حزم ، ص 169 ، والعبرة 324 .

فربّ منهمزم بالأمس انتصر اليوم .

ولكن هذه الموعظة لم تحدث كل الأثر الذي كان ينتظره جميع المسلمين المخلصين .

ذكرنا أن المسيحيين في الولايات الشمالية في الاندلس قد أخذوا السلاح لاسترجاع استقلالهم . وكذلك يتحدث صاحب روض القرطاس عن حملة انطلقت من فرنسا عبر جبال البرينيز استولى الفرنسيون أثرها على « بنبلونة » (Pampelune) و « جيرونده » (Gironde) . ومن المعلوم أن المسيحيين الذين يقطنون شمال الاندلس وسكان جنوب فرنسا يدينون بعقيدة واحدة ، بل إنهم يعزّون لأنفسهم أصلاً مشتركاً وكانوا لا يزالون يذكرون العهد الذي انتقلت فيه جماعات كبيرة من ضفاف نهر الابر (L'Ebre) واستقرت في جسكون .

اتجهت جهود عبد الملك بن قطن في المرحلة الأولى إلى كتالونية وأراجون ونابرة ، وبعد ذلك دخل إلى لانجدوك حيث حصن المدن التي كان يحتلها المسلمون . وبعد وقت قصير انتقل من الدفاع إلى الهجوم . وقد أدى الغزو العربي لفرنسا إلى استرخاء العلاقات الاجتماعية ، فعم الاضطراب وانتشرت الفوضى خصوصاً في سبتمانية وبروفانس . والواقع أن هاتين الولايتين قد ظلتا بدون حكومة منذ سقوط حكم القوط في أسبانيا ، وقد استغل بعض الأشخاص الطموحين هذا الفراغ واقتطعوا لأنفسهم إمارات ، وحكموا المدن الكبرى متخذين لأنفسهم القاب « الدوق » و « الكونت » ، وكان وراء كل واحد منهم انصار واتباع من ذوي المصالح . ولكي يعود النظام إلى نصابه كان من الضروري أن يخضع هؤلاء الأشخاص إمّا لشارل مارتل ، أو لدوق اكيثانية ، ولكنهم كانوا يتخوفون من كليهما . وكذلك التجأوا إلى المسلمين الذين يحتلون أربونة وعقدوا محالفات معهم . ومن أعظم هؤلاء الأشخاص شخص يدعى « مورونت » (Mauronte) الذي تعطيه تواريخنا القديمة لقب

« دوق موسيليا » والذي تمتد سلطته على جميع ولاية بروفانس .

وفي هذه الأثناء كان شارل مارتل منهمكا في نشر سلطانه في بوجون وفي منطقة ليون ، وهما ولايتان لم تدخلا في طاعة ملك أوسترازي إلا مؤخراً . وهناك عين في المناصب الهامة انصاره الأوفياء وأعلن له النبلاء والأعيان طاعتهم .

وعقب ذلك اتجه إلى « الفريزون » (Frison) الذين اعلنوا الثورة من جديد . وكذلك كان الموقع الذي يوجد فيه لا يسمح لشارل مارتل بالسير لمناجزة العرب .

توصل شارل إلى الملك بطريق العنف ونصب نفسه للدفاع عن المسيحية ضد اعدائها في الداخل والخارج ، ولكنه اضطر إلى التضحية بكل شيء لضمان ولاء جنوده . ولما كان لا يملك الموارد المالية الضرورية تنازل لجيشه عن أملاك الكنائس والأديرة ، الأمر الذي أغضب رجال الكنيسة ذوي النفوذ العام . وزيادة على ذلك كانت توجد حزازات بين قسم من سكان جنوب فرنسا الذين ينحدرون من الرومان أو من القوط ، وسكان الشمال الذين هم من الفرنك أو البوجينيون ، فهذه في مجموعها هي الأسباب التي حرمت شارل من عطف السكان ومحبتهم ، وذلك على الرغم من تحريره إياهم .

وفي سنة 734 م [116 هـ] ، توصل حاكم أربونة المسلم ، يوسف (الفهري) إلى اتفاق مع موارونت ، تمكن بموجبه من اجتياز نهر الرون ، على رأس قوة عسكرية معتبرة واستولى على مدينة آرل بدون قتال . وهناك دمر المسلمون دير « سانت أيوتر » وضريح « سانت سيزير »⁽⁴⁹⁾ . وبعد ذلك زحف حتى وصل إلى قلب ولاية بروفانس حيث استولى بعد حصار طويل على مدينة « فريته » (Fretta) التي تسمى حاليا « سانت ريمي » (Saint-Remi) ، ثم

اتجه إلى « أفينيون » (Avignon) . عبثا حاول المحاربون المدافعون عن هذه المدينة الوقوف في وجهه ومنعه من المرور بمضيق « دورانس » (Durance) . فقد تغلب المسلمون على جميع العقبات التي وضعت في طريقهم⁽⁵⁰⁾ . كانت حدود مدينة أفينيون في ذلك العهد تقف عند الصخور التي بني عليها قصر الباباوات . وهذا المكان هو الذي يسميه العرب « صخرة إيبينيون » . وكذلك أصبح جزءا مهما من بروفانس عرضة لنهب الغزاة . وقد دام هذا الاحتلال أربع سنوات .

وبعد وفاة أود في سنة 735 م . سارع شارل إلى ائتيانية حيث أعلن إبنا الدوق الطاعة له .

وفي هذه الأثناء شعر عبد الملك بن قطن بالرضا للنتائج التي اسفرت عنها حملته إلى فرنسا وعاد أدراجه متجها إلى جبال البرينيز لاختضاع سكانها الثوار ، ولكنه لم يحسب حساب تقلبات الطقس ، حيث فاجأته امطار غزيرة في الجبال كانت من اسباب هزيمة جيشه .

ولما بلغت اخبار هذا الفشل إلى الخليفة في دمشق ولى على الأندلس عقبة (بن الحجاج)⁽⁵¹⁾ وابقى عبد الملك عاملا على الولايات الواقعة في مناطق جبال البرينيز .

(50) راجع المصدر المذكور : Moissac, Recueil des historiens de France, T.II., p.655.
(51) عقبة بن الحجاج السلوي (ت 123) . ولاء على الأندلس عبد الله بن الحجاج (وليس خليفة دمشق كما يقول المؤلف) في سنة 116 (أو 117 هـ .) في عهد هشام بن عبد الملك ، وسار غازيا فاتحا إلى فرنسا حتى وصل أربونة وفتح جليقية وبنبلونة ، وقد أسلم على يده خلق كبير من الأسرى الفرنسيين . وتقول رواية إن أهل الأندلس شاركوا عليه فخلعوه في سنة 123 هـ . أي قبل وفاته بوقت قصير . أنظر الكامل لابن الأثير ، 92/5 وجذوة المقتبس ، ص 301 وغزوات العرب ، ص 105 ونفح الطيب (الفهرس) والعبر ، 119 — 4 .

إن الكتاب العرب يصفون عقبة بأنه رجل قوي الايمان شديد الحماس لنشر الاسلام ، وأنه خير في الولاية على عدد من المناطق ولكنه اختار الأندلس لما فيها من فرص للجهاد . وحينما يقع أسير في يده كان دائما يعرض عليه اعتناق الاسلام . وفي عهده أقام المسلمون كثيرا من الحصون في لانجدوك ، وشملت هذه الحصون كل موقع يمكن الدفاع عنه حتى نهر الرون . وهذه الحصون التي يسميها العرب « رباطات » كانت توضع فيها حاميات عسكرية ، ومنها يمكن للمسلمين أن يراقبوا عن كثب كل ما يجري في البلاد المسيحية المجاورة لها .

ليس من شك في أن المسلمين قد اخذوا يغيرون من جديد على أرض دوفيني في هذه الفترة . وقد أصيبت منطقة « سانت بول - طروا - شاطو » (Saint- Paul- trois-Chateaux) ومنطقة « دونزير » (Donzère) بكثير من الخراب⁽⁵²⁾ واحتلت « فالانس » (Valence)، كما خربت جميع كنائس « فين » على كلتا ضفتي نهر الرون مما افلت من التدمير خلال الغارات السابقة . بل إن العرب حاولوا الانتقام من ولايات شارل مارتل للهزيمة الكبيرة التي الحقها بهم قبل ذلك . وكذلك احتلت كتائبهم مدينة ليون من جديد ، كما غزت ولاية بورجونيا .

لم يستطع شارل مارتل أن يتغاضى عن هذه الأعمال . ولذلك ، فعندما ضمن سلامة حدود مملكته الشرقية والشمالية ، بعث بجيشه في سنة 737 م (119 هـ) بقيادة أخيه ، « شيلدبراند » (Childebrand) إلى ليون . وقد كان شيلدبراند ساعده الأيمن في غرضون جميع حروبه . وفي نفس الوقت ، كتب إلى « لويتبراند » (Luitprand) ، ملك إيطاليا يطلب منه المساعدة⁽⁵³⁾ . ويبدو أن

Gallitia Christianae T.I., p.703 et 737.

(52) راجع المصدر المذكور:

Paul Diacon, Recueil de Muratori, T.I., p.508.

(53) راجع:

احتلال المسلمين لبروفانس ، ذلك الاحتلال الذي تم بناء على اتفاق مع مورونت ، قد شمل جميع هذه الولاية وتعدّها إلى جبال دوفيني وبيمونت ، وإنه لولا مساعدة الجيش (الايطالي) الذي جاء عبر نهر « بو » (Pô) لكان من المستحيل على المسيحيين طرد المسلمين من هذه المناطق .

تعقب شيلدبراند المسلمين ثم هبط مجرى نهر الرون وضرب حصارا على مدينة افينيون التي يحتلونها . كانت هذه المدينة في ذلك الوقت منيعة جداً ، ولذلك اضطر شيلدبراند إلى استخدام آلات الحرب الشائعة في ذلك العصر . وعقب ذلك بوقت قصير ، زحف شارل مارتل بنفسه على رأس جيش آخر ، وذلك في الوقت نفسه الذي هجم فيه الملك لويثيراند على المسلمين من جهة إيطاليا (54) .

وهكذا اخذت مدينة افينيون عنوة وقتل كل من فيها من المسلمين بحد السيف (54) . وأثر ذلك عبر شارل نهر الرون وسار حتى وصل إلى أربونة ، وقد كان قائد هذه المدينة يسمى فيما تقول التواريخ القديمة ، عثيمة (؟) (Athima) . وفي نفس الوقت ، فقد أصبحت المواصلات بين سبتمانية والأندلس لا تتم الا عن طريق البحر بسبب قيام سكان جبال البرنيز المسيحيين بقطع الطرق البرية . ولما بلغت اخبار الخطر الذي يهدد أربونة عقبة ، بعث بجيش كبير عن طريق البحر لنجدتها وضعه تحت قيادة رجل يدعى عامر (؟) فنزل هذا الجيش على مسافة قريبة في جنوب المدينة (55) واثّر ذلك مباشرة زحف عليه شارل مارتل على رأس جزء من قواته . وقد وقعت المعركة بين الطرفين في يوم الأحد ، على ضفاف نهر « بير » (Berre) في وادي « كوربيير » (la Vallée de Corbière) ، على مسافة بضعة فراسخ من أربونة . كان الجيش

(54) راجع المصدر المذكور: Recueil des historiens des Gaules, T.II., p.456.

Isidore de Beja, p.IX.

(55) راجع المصدر المذكور:

الاسلامي قد اتخذ مواقعه في مكان مرتفع ، وكان الأمير الذي يقوده يشعر بثقة مفرطة في نفسه بسبب كثرة عدد جنوده ، فاهمل اتخاذ الاحتياطات الضرورية . وقد فاجأه شارل مارتل بهجوم واسع النطاق فلم يترك له الوقت لمراجعة خططه ، وقد انزل بالمسلمين هزيمة كبيرة وقتل أمير الجيش نفسه . وعبثا حاول أولئك الذين نجوا من المذبحة العودة إلى سفنهم عبر المستنقعات التي تمتد في ضواحي المدينة⁽⁵⁶⁾ .

ولكنه على الرغم من هذا النصر ، فإن حامية المدينة ظلت مستبسلة في الدفاع عنها . وبالنظر إلى أن شارل لا يميل بطبعه إلى حرب الحصار ، وإلى أن ثورات الفريزون والساكسون الذين هزمهم عدة مرات ، قد أخذت تشتعل نيرانها من جديد ، فقد تخلّى عن حصار المدينة التي كان من الصعب عليه أخذها . ولما ابتعد عنها قرر نزع السلاح من أيدي المسيحيين الذين كانوا يعارضونه ، كما قرر أن يجعل من المستحيل على المسلمين احتلال أي موقع آخر غير اربونة . وكذلك خرب تحصينات . بيزير و « أجد » (Agde) وغيرهما من المدن المهمة . وقد عمد إلى تحطيم أبواب مدينة نيم الفخمة ، وهو شيء محزن ، كما خرب جزءاً من مدرجاتها القديمة خشية أن يستعمله العرب للتحصن به بسبب اتساعه ومتانته . ونفس المعاملة كانت من سوء حظ مدينة « ماجلون » (Maguelone) ، وهي مدينة ازدهرت في وقت لم تكن فيه « مونبيلي » (Montpelier) موجودة ، وكانت مهمة خصيصاً بملاءمة مينائها الذي كانت تلجأ إليه سفن المسلمين الآتية من اسبانيا ومن افريقيا . ومن وسائل الدفاع الأخرى التي اعتمدها شارل ، إنه أخذ معه ، إلى جانب العديد من الأسرى من المسلمين ، عدداً كبيراً من الرهائن الذين اختارهم من بين

(56) قارن المصدر المذكور: Recueil des historiens de France, p.456; Chronique de Moissac, p.656

سكان المنطقة من المسيحيين⁽⁵⁷⁾ .

إنه لمن المؤكد أن سكان فرنسا الجنوبية كانوا ينظرون بعين السخط إلى سلطة شارل مارتل . فإن هؤلاء السكان الذين كانوا يفتخرون باحتفاظهم بكثير من منشآت الرومان الحضارية ، كانوا يعتبرون سكان الشمال برابرة لا أثر للحضارة لديهم . وأما رجال الكنيسة في الجنوب والشمال معا ، فقد كانوا ينقمون على شارل الطريقة التي وضع بها تحت تصرفه أموال الكنيسة . وفي غضون غزواتهم خرب العرب كثيراً من الكنائس والأديرة ، وحرموها من الأموال الموقوفة عليها . ولما طرد شارل المسلمين من فرنسا لم تُعد إلى الكنيسة الممتلكات التي حرموها منها ، وإنما قام بتوزيع الأراضي التي كانت موقوفة على الكنيسة والمنازل التابعة لها على رجاله وجنوده . وكذلك ظلت معظم الكنائس والأديرة فارغة بعد جلاء المسلمين بسبب عدم توفر الموارد الضرورية لقيامها بمهامها ، الأمر الذي كان المؤمنون يرون فيه فضيحة شنيعة . وفي هذا السياق يذكر المؤرخون ، مثلاً ، « فيليكاريوس » (Wilicarius) أسقف فين الذي أراد العودة إلى أسقفيته بعد جلاء العرب عن المنطقة ، ولكنه وجد أن جميع أموال الكنائس التابعة لهذه الأسقفية قد آلت إلى أيدي رجال لا صلة لهم بالدين . وعقب ذلك تخلى عن مهمته والتجأ إلى « القالي » حيث عين رئيساً لدير « سانت موريس »⁽⁵⁸⁾ .

وهذا الاستغلال لم يتم العدول عنه إلا تدريجياً وبعد عدة سنوات . في عهد بيبين وفي عهد شرلمان .

ولو كانت الظروف غير تلك الظروف لالتجأ رجال الكنيسة إلى حماس

(57) يلتزم « مواساك » الصمت حول قرقشونة . ولكنه من المحتمل أن تكون هذه المدينة التي بنيت على الرتبة الصخرية التي تقوم عليها الكاتيدراية الحالية ، والتي كان مجرى نهر اود (Aude) من وسائل دفاعها ، قد سقطت سريعاً في أيدي المسيحيين .

(58) راجع: Chorvet, Historia de la sainte église de Vienne, p.147.

المؤمنين واخلاصهم للكنيسة . ولكننا إذا صدقنا الشهادات القليلة التي وصلت إلينا من تلك الأحقاب البعيدة ، فإن رجال الكنيسة بصفة عامة ، قد اقتصرُوا على التنديد بالأهوال والآفات التي حاقت بالمسيحية - تلك الآفات التي يصفونها بأنها عقاب وجزاء عادل من الله نتيجة للفساد الذي استشرى ، فكانوا يدعون المذنبين إلى العودة إلى طريق الرشاد والفضيلة⁽⁵⁹⁾ . ومع ذلك ، فقد وجد من بين رجال الكنيسة من اندفع وراء حماسه في مقاتلة المسلمين ولازم شارل ورافقه في حروبه . ومن بين هؤلاء نذكر « هينماروس » (Hainmarus) ، أسقف « أوكسير » (Auxerre) الذي كانت أملاكه الشخصية تمتد على جزء كبير من أراضي بورجون (بوجونيا) والذي كان يترفع عن خدمة المذبح ، فوضع في مكانه شخصاً آخر ليقوم بوظيفة القسيس في كنيسته ، بينما سار هو في اتجاه البرينز مشرعاً سيفه⁽⁶⁰⁾ .

وبعد رحيل شارل مارتل ظهر على مسرح الأحداث من جديد مورونت الذي كان هرب من بروفانس وأعاد ربط صلاته بالمسلمين ولما بلغت هذه الأخبار شارل مارتل ، قرر أن يطهر هذه المنطقة كلها من جرائم الشقاق والفتن التي تعمل فيها منذ وقت بعيد . وهكذا برز في المنطقة في سنة 739 م (121 هـ) برفقة شقيقه شيلدبراند ، وطاردا مورنت من جميع المواقع التي احتلها . وبعد ذلك قام جيش شارل بزيارة شواطئ البحر وتعقبوا انصاره الذين التجأوا إليها ، ثم احتل شارل مرسيليا ووضع فيها جزءاً من قواته . وأما المسلمون الذين كانوا يحتلون أربونة ، فإنهم لم يعودوا يجرؤون على اجتياز نهر الرون⁽⁶¹⁾ .

(59) راجع رسائل القديس إيثيلبادوس (Ethelbadus) ملك موريسية (Mercie) في Recueil Ferrarius, 1605, p.76. انحلترا في غضون سنة 745م .

(60) انظر المصدر المذكور: Gallia Christiana, T. XII, p.270.

(61) راجع المصدر المذكور: Recueil des historiens des Gaules, T. II., p.457.

ونحن تنقصنا المعلومات الدقيقة حول سلوك المسلمين اثناء احتلالهم لبروفانس ، ولكن المرجح أنهم قد امتنعوا عن ارتكاب اعمال التدمير والتخريب هناك وذلك احتراماً لمورونت الذي كان يأمل في أن يصبح سيد البلد⁽⁶²⁾ .

وفي هذه الأثناء تجمعت في البروفانس ولانجدوك أسباب الكوارث التي أصابت الولايتين عدة قرون والتي جعلت جنوب فرنسا كله نهبا للقلق والاضطراب . ونحن نقصد هنا بدء نزول المسلمين من الأندلس ومن افريقيا من البحر على هذه الشواطىء .

لم يفكر العرب في أوج حماسهم الحربي في الاستفادة من الطرق البحرية لحمل الحرب إلى عقر دار اعداء دينهم . فقد كان بدو الجزيرة العربية قرونا عديدة بعيدين عن عنصر الماء ، وكانوا يجدون في سجن الواحد منهم في سفينة في عرض البحر حرماناً له من حريته . وكذلك نرى أن جميع المحاولات التي تمت في العهود القديمة لتسيير أساطيل في البحر الأحمر والخليج انما قام بها الفنيقيون وغيرهم من الأجانب .

وهذا النفور الذي كان يشعر به النبي العربي (ص) من البحر لا يزال حتى اليوم لازمة لسلوك كثير من اتباعه . بل إن بعض الفقهاء يقولون أن الرجل الذي يكثر من السفر في البحر انسان فاقد العقل ولا تقبل شهادته⁽⁶³⁾ .

على أنه بعد فتح المسلمين لسورية ومصر وافريقيا الشمالية ، وبعد ما

(62) يبدو لنا أن التفاصيل التي يوردها كاتب سيرة القديس بورقيير (St. Porcaire) حول تدمير المسلمين وتخريبهم في داخل البلد، تعود إلى احتلال البرابرة الشماليين، أي بعد سنة 889م. انظر: Recueil des Bollandistes, والأمر كذلك فيما يتعلق بروايات أخرى ماثلة سنعرض لها أسفله.

(63) راجع مقتبساتنا المعنونة: Extraits d'Auteur arabes relatif aux guerres des Croisades, Paris, 1829, p.370- et 476.

أصبح علم الاسلام يرفرف على موانئ صور وصيدا والاسكندرية وقرطجنة وغيرها من الموانئ البحرية، أنشأوا وأساطيل بحرية مهمة وقاموا بغارات بحرية .

ومنذ سنة 648 م (68 هـ .) ، أي بعد وفاة الرسول بخمس عشرة سنة ، فقط ، غزا معاوية جزيرة قبرص . وفي سنة 669 م . (49 هـ .) ، أرسلت حملة بحرية أخرى إلى جزيرة صقلية . ومنذ ذلك الوقت والامبراطورة الاغريقية كلها (بدون استثناء القسطنطينية) تعاني ، في غضون حروب الاباطرة مع المسلمين ، من غازات الاساطيل الاسلامية المتوالية ومن هجماتهم البرية .

كان ربابنة سفن المسلمين في البداية من المغامرين والاجانب الذين اعتنقوا الاسلام ، ولكن المسلمين لم يلبثوا أن تعلموا فنون الملاحة وأخذوا يقومون بغارات يعودون منها بغنائم وثروات طائلة . وبالنظر الى أن معظمهم يعتقدون أنهم ينشرون الاسلام في الوقت الذي يجمعون فيه الاسلاب والغنائم ، فهم يستهينون بالاحطار التي تواجههم في غضون هذه الغزوات . ونحن قد عرفنا أن الرسول لم يفكر قط في الغزوات البحرية كوسيلة لنشر الاسلام . ومع ذلك ، فإن بعض المؤمنين المتقين لم يلبثوا أن اكتشفوا من الحجج والادلة التي تثير حماس الناس للمغامرات البحرية .

ذكروا أن الرسول نام ذات يوم في منزل أحد اصحابه ، فرأى في المنام جماعة من أصحابه يقومون بغارة بحرية عادوا في اثره بكثير من الغنائم والأسرى ، فشعر بسرور كبير واستيقظ بعد ذلك وهو منشراح الصدر . ولما قام معاوية بغزو جزيرة قبرص ، أصرت أم حرام⁽⁶⁴⁾ . زوجة ذلك الصحابي ،

(64) توفيت أم حرام بنت ملحان النجارية الانصارية في سنة 27 هـ . حينما شاركت في غزو جزيرة قبرص . وهي صحابية مجاهدة شاهدت عددا من الوقائع . وكان سبب موتها تعثر =

على أن تشترك في تلك الغزوة . وقد ماتت أم حرام في الجزيرة في هذه الغزوة فبنى لها المسلمون ضريحاً هناك أصبح بعد ذلك مزاراً مقصوداً .

وقيل أيضاً أنه حينما فرض الاسطول الاسلامي الذي قام من الاسكندرية حصاراً على القسطنطينية في سنة 716 م . ، كان ابن الخليفة عمر ابن الخطاب موجوداً في ميناء هذه المدينة ، وقد سأل قائد الاسطول ما رأيته في ذنوب أولئك الذين يشتركون في هذه الحملة ، فأجابه أمير البحر قائلاً ، إنهم مثلنا جميعاً ، ذنوبهم في رقابهم . فقال ابن عمر : « كلا ، والذي نفسي بيده ، فهم قد تركوا ذنوبهم على الشاطئ ! »

وكذلك روى بعضهم عن النبي أن الجهاد في البحر أعظم عند الله عشر مرات من الجهاد في اليابسة ، وإن الذين لم يحضروا الجهاد معه ممن يأتون بعده سيكون لهم نفس الثواب إذا جاهدوا في البحر .

وعزى إلى النبي أيضاً أنه قال إن المسلم الذي يقتل في معركة في البر يشعر بمثل لسعة النملة ، وأما المسلم الذي يقتل في معركة في البحر فهو يشعر بما يشعر به الظمآن في الصحراء حين يصب الماء العذب البارد في فمه ممزوجاً بالعسل .

وفي نفس السياق قيل إن عائشة أم المؤمنين قالت إنها لو كانت رجلاً لنذرت نفسها للجهاد في البحر .

كانت الحملات البحرية الاولى التي سَيَّرَها المسلمون قد قامت من موانئ سوريا⁽⁶⁵⁾ ومصر ، وكانت موجهة ، خصوصاً ، ضد ولايات الامبراطورية

= البغل الذي كانت تركبه فسقطت وكسر عنقها ، وقد دفنت في الجزيرة . انظر الاعلام للزركل 182/2 والمراجع التي أحال إليها .

(65) انظر النصوص التي اقتبسناها من بعض الكتب العربية :

Journal Asiatique, T.VIII, p.337 et T.IX, p.189.

اليونانية التي كانت في حرب شبه مستمرة مع الخليفة ولما سقطت قرطجنة في يد العرب ، يبدو أنهم لم يفكروا أولاً في المزايا البحرية التي تمثلها هذه المدينة العظيمة والتي كانت ستسمح لهم بالسيطرة البحرية في حوض البحر الأبيض ، على العكس ، فبدلاً من أن يتخذوها عاصمة لهم قرر زعيمهم ، عقبة بن نافع ، بناء عاصمة أخرى ، هي القيروان التي تقع على مسيرة بضعة أيام من البحر⁽⁶⁶⁾ .

ولما قرر موسى بن نصير ، والي افريقية ارسال أول حملة بحرية الى الاندلس لم يكن تحت تصرفه سوى أربع سفن ، فكان من الضروري أن تروح هذه السفن وتغدو بين العدوتين لنقل الجيش الاسلامي الى جبل طارق⁽⁶⁷⁾ . على أن موسى لم يلبث أن أدرك ضرورة بناء أسطول بحري يضمن استمرار المواصلات بين شبه جزيرة الاندلس والشاطئ الافريقي . وقد سارع وأمر ببناء السفن في جميع موانئ ولايته . والاندلس تشمل في امتدادها من برشلونة الى قادس على عدد من الموانئ العظيمة . والأمر كذلك بالنسبة الى الشواطئ الافريقية التي تمتد من مضيق جبل طارق حتى طرابلس الغرب . وفي سنة 736 م . قام أحد ولاية افريقية ببناء دار ضخمة لصناعة السفن في تونس . وفي ذلك الوقت فقدت قرطجنة صيتها البعيد لصالح المدينة البحرية الجديدة .

وفي الاندلس كان يوجد منصب أمير كانت مهمته إدارة شئون الاسطول ، وكان يطلق عليه لقب أمير الماء . والمرجح أن كلمة « اميرال » في اللغات الأوروبية قد أخذت من الكلمة العربية⁽⁶⁸⁾ .

(66) راجع: Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale, T.II, p.157.

(67) أنظر ابن القوطية، المصدر المذكور، ورقة 52 ظهر.

(68) أنظر نهاية الارب للتويري، النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الأهلية ببائيس، رقم 702 ورقة 10 ظهر.

يتحدث المؤرخون العرب عن حملة وجهها موسى (بن نصير) إلى جزيرة « سردينيا » (Sardaigne) منذ سنة « 712 . ، بينما يتحدث المؤرخون المسيحيون عن غزوة قام بها المسلمون لجزيرة كورسيكا قبل ذلك بستين⁽⁶⁹⁾ . وهاتان الجزيرتان ، مثل جزيرة صقلية ، كانتا مدة طويلة من الزمن تابعة لامبراطور القسطنطينية . ولكنه بالنظر الى ضعف أباطرة القسطنطينية المتزايد مع مرور الزمن ، تركت هذه البلاد البعيدة لتعتمد على قواتها الخاصة . ولهذا السبب ، فإن المسلمين لم يلقوا سوى مقاومة ضعيفة لدى غزوهم لهذه الجزيرة التي كانت من قبل محل اقلاع وحط لسفنهم . وقد اقتصرنا في مبدأ الأمر على شن غارات لنهب الكنائس وبيوت الأثرياء . ولما نضبت هذه الموارد اخذوا يشنون غارات على داخل البلاد .

وأول غارة شنّها العرب على شواطئ فرنسا كانت على جزيرة « ليرين » (Lerins) في نواحي « أنتيب » (Antibes) ولكن تاريخ هذه الغزوة غير مؤكد ، حيث أن المؤرخين الذين يذكرونها يحددون لها تواريخ بين سنة 728 و 739 م . وفيما يلي الطريقة التي وصل إلينا بها خبر هذه الغزوة :

كانت جزيرة ليرين في ذلك العهد مشهورة في جميع البلدان المسيحية بديرها الذي كان معهداً علمياً كبيراً يمد الكنيسة بالعلماء والكهنوت والشهداء . وفي تلك الظروف كان القديس بورقيز هو رئيس الدير الذي كان يضم خمسمائة قسيساً لتلقي اللاهوت من مختلف أنحاء فرنسا وإيطاليا ومن جميع البلدان الأوروبية ، وذلك عدا عدد كبير من الأطفال الذين جاءوا اليه لطلب الثقافة والأدب . ولما اقترب المسلمون من المنطقة قام القديس بورقيز بترحيل جميع الاطفال الصغار الى ايطاليا . وأما بقية القساوسة ، فإن رئيس

(69) زعم كاتب كورسيكي من القرن الخامس عشر أن المسلمين دخلوا إلى الجزيرة في عهد الرسول، وأنهم ظلوا يحتلون كورسيكا حتى عهد شرلمان. وهذه الرواية ملفقة.

الدير لم يجد لديه الوقت ولا الوسائل الضرورية لتفسيرهم ، وقد جمعهم وحثهم على التذرع بالشجاعة ورباطة الجأش في انتظار العرب . وقد وافقوا جميعاً على البقاء في الدير ، ما عدا قسيس واحد التجأ إلى مغارة ليخفي فيها نفسه . ولما وصل العرب إلى الجزيرة أخذوا يتجولون فيها بحثاً عن ما يكون فيها من الثروة . ولما لم يعثروا على شيء يذكر سلطوا جام غضبهم على قساوسة الدير ، فنزلوا عليهم بالضرب واللكم ، وراحوا يحطمون الصلبان ويقلبون المذابح ، ولما لم تجد هذه الأعمال ولم تحدث أثراً في الكبار ، اتجهوا الى الشبان لحملهم على اعتناق الاسلام ، ولكن اغراءهم ، مثل تهديدهم ، لم يكن له أي تأثير في نفوسهم . فإن الشبان والشيوخ جميعاً ظلوا أوفياء لدينهم . وبعد ذلك قتلوهم ولم يتركوا منهم على قيد الحياة سوى أربعة نقلوهم على مراكبهم . ولكنه كان من حسن حظ القساوسة ، أن المركب الذي نقلوا فيه أرسى في ميناء « أجوي » (Aguay) وقد استغلوا فرصة غفلة العرب فهربوا والتجأوا إلى الغابة المجاورة ، ومن هناك رجعوا إلى جزيرة ليرين حيث قاموا بإصلاح الأضرار التي وقعت في الدير .

بعد موت شارل مارتل في سنة 747 ، تولى الملك من بعده ابنه « بيبين - لو - بريف » (Pepin - le - Bref) الذي كرس السنوات الأولى من حكمه للعمل لفرض سلطانه في اكيثانية التي كانت تدين بالطاعة لابناء أود ، وفي شمال فرنسا وفي الولايات الواقعة وراء نهر الرين .

كان من الممكن أن يستغل العرب هذه القلاقل ويجددوا محاولاتهم لبسط سلطانهم على ولايات فرنسا الجنوبية ، ولكن صفوفهم كانت نهياً للشقاق والنزاعات التي شلت حركتهم مدة طويلة .

لقد رأينا كيف أن جيوش المسلمين كانت تتكون من عناصر غير متجانسة ، فكان لكل كتيبة لغتها ومصالحها الخاصة ، وهكذا ، فإن الشقاق

بين العرب والبربر لم يلبث أن ظهر في وضوح النهار . فإن البربر كانوا يدعون أنهم قدموا مساهمة لا تقل عن مساهمة العرب في الفتوحات السابقة ، وكانوا يشكون من سوء معاملة العرب لهم .

وأما العرب فلم يكونوا أكثر تفاهماً فيما بينهم . ونحن نعرف أن الرُّحْل كانوا دائماً يتمسكون بالعصية القبلية . ومن هنا أهمية النسب عندهم حيث يذكر اسم أحدهم في توار يخهم مقروناً باسم أبيه وباسم القبيلة التي ينتمي إليها . وأصول النسب العربية تعود إلى اصلين كبيرين : قحطان بن سام ابن نوح ، واسماعيل بن ابراهيم الخليل . والقحطانيون تلقوا لقب الاعارب ، وكانوا في قديم الزمان يحتلون شرق شبه الجزيرة العربية وجنوبها ، ولا سيما بلاد اليمن السعيدة ، ومن هنا تسميتهم أيضاً باليمنية .

وأما بنو اسماعيل فينحدرون من سلالة عن طريق ابناء قيس عيلان ابو مضر (بن نزار) ويسمون المضرية ، وقد استقر بهم المقام في ارض الحجاز ، حول مكة والمدينة ، وهم يفخرون بأن النبي محمد ﷺ من سلالتهم .

ومنذ أوقات متوغلة في القدم ، كان شعور المنافسة والحسد على أقوى ما يكون بين هذين القبيلين ، وكانت له عواقب دامية في الجزيرة العربية نفسها وفي سورية ومصر ، بل إن النزاع بين القحطانية والمضرية انتقل أيضاً إلى الأندلس وشمل العرب المحتلين لفرنسا .

وهكذا التجأ الغزاة فجأة إلى حد السيف لفض خصوماتهم : البربر ضد العرب ، والقحطانية ضد المضرية ، وكل فريق يعمل للدفاع عن مصالحه الخاصة .

كانت حكومة افريقية في الفترة التي تمهنا (سنة 737 م) قد الغت كل مظاهر التمييز ، الذي كان العرب يسيرون عليه تجاه البربر حيث قررت أن تطبق تعاليم القرآن التي تقضي بعدم التمييز بين العربي والعجمي ، ولكنها

أعلنت نيتها في أن تتشدد فيما يتعلق بدفع الزكاة وأنها ستحمل البربر على القيام بهذا الفرض طبقاً للشريعة⁽⁷⁰⁾. وهذا الفرض ، فيما يتصل بالاموال القابلة للنقل ، مثل الحيوانات والمال السائل ، التي تشكل الثروة الوحيدة عند الرحل ، يمثل اثنين ونصف في المائة⁽⁷¹⁾.

ولكن البربر الذين تعودوا على الاستقلال والحرية التي لا حدود لها في الصحراء ، اعتبروا هذا الفرض جوراً وتعسفاً ، وحاولوا التخلص منه بقوة السلاح⁽⁷²⁾.

ومن أعماق الصحراء أخذ البربر يندفعون في اتجاه شمال الاطلس ،

(70) راجع نهاية الأرب للنويري - النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس ، رقم 702 ، ورقة 11 ظهر .

(71) عمم المؤلف كثيراً في هذا التقرير . وموضوع الزكاة الذي هو من الأبواب الأساسية في الاسلام ، موضوع طويل ومعقد ، ولكنه فيما يتعلق بالحيوانات والمعادن (أو النقود كما يسميها المؤلف ، فنحن نقدم الملاحظات الموجزة التالية :

يقضي النظام الذي وضعه أبو بكر لزكاة الانعام ، أي الابل والبقر والغنم (والحيل أيضاً عند الخنفة) بمراعاة نوع الحيوانات وعددها . والنصاب الذي تجب عليه الزكاة ، هو خمسة من الابل ، وثلاثون من البقر ، وأربعون رأساً من الغنم ، ولا تجب الزكاة على الحيوانات إلا إذا كانت سائمة غير معلوفة حولاً كاملاً (أو دونه في بعض الأقوال) . وأصناف الممتلكات التي تدفع الزكاة عنها برع العشر ($2\frac{1}{2}\%$) هي عروض التجارة والذهب والفضة ، ونصاب المعادن النفيسة يقدر بحسب وزنها ، وهو في الذهب عشرون مثقالاً (أو دينار = 84 جراماً على وجه التقريب) ، ونصاب الفضة سبعة أضعاف ذلك ، وهو ، 200 درهم (ويقدر النصاب لحلي الذهب والفضة بحسب قيمتها التجارية) . أما قيمة عروض التجارة فيجب أن تقدر في نهاية الحول بالذهب . والزكاة لا تجب على المعادن النفيسة وعروض التجارة إلا إذا ظلت حولاً كاملاً .

(72) كان الرحل في جميع الأزمنة والأمكنة يرفضون دفع الضرائب ويرجع الفضل إلى الاسلام الذي كان له الاثر النفسي المطلوب في حمل عربان الجزيرة على الخضوع لفريضة الزكاة ، وذلك على الرغم من أن بعض الأفراد قاوموا هناك أيضاً هذا الفرض .

عراة حتى السرة ، يركبون خيولاً صغيرة الحجم ولكنها ضامرة سريعة العدو ،
ويبدون ضروباً من الشجاعة في الدفاع عن حرية الصحراء .

ولما عجزت حكومة افريقية عن إخضاع البربر ، عبر عقبة ابن الحجاج
مضيق جبل طارق من اسبانيا إلى المغرب ليساعدها في إعادتهم إلى حظيرة
الطاعة . ولكن انسحاب هذا الجيش من اروبيا ساعد شارل مارتل كثيراً على
تحقيق انتصارات مهمة على المسلمين في جنوب فرنسا . ولما مات عقبة حل
محلّه عبد الملك .

على أن الجيش العربي عجز عن قمع ثورة البربر ، بل إن أحد الجيوش
قد أصيب بهزائم متوالية من جميع الجهات مما اضطره الى اللجوء إلى
الاندلس .

ولما انتشر خبر عودة هذا الجيش بين العرب والبربر الذين استقروا في
شبه جزيرة الاندلس وفي فرنسا ، والذين وزعت عليهم الأرض مكافأة لهم
على جهادهم ، خشوا أن يتسبب ذلك في إعادة توزيع الأرض ليشمل أفراد
الجيش العائد من افريقية . وهكذا سارعوا إلى حمل السلاح استعداداً لصّد
هؤلاء .

ونحن لكي نأخذ فكرة عن مدى ما بلغت هذه الحركة من العنف ،
يكفي أن نورد هنا حادثة واحدة . فإن الوالي ، عبد الملك بن قطين وقع في يد
الحزب المعارض فعلق على أعواد مشنقة ، فوق جسر قرطبة ووضعت رأسه بين
رأس خنزير ورأس كلب⁽⁷³⁾ وعقب ذلك ، قرر عبد الرحمن بن علقمة قائد

(73) كان عبد الملك بن قطين قد قاتل البربر الذين ثاروا عليه بجنود الشام وهزمهم وأوقع بهم
وكان ذلك لأخذ ثار العرب الذين أخرجوهم من جليقية واسترقه وشمالى الاندلس .
ولكن العرب لم يتسع أمامهم الوقت لتذوق ثمرة انتصارهم ، لأن احقادهم وضغائنهم
القديمة كانت لا تزال تعتلج في نفوسهم . وكذلك ثار جنود الشام الذين كانوا أداة =

جيش اربونة البقاء على ولائه لعبد الملك وسارع إلى الاندلس للأخذ بثأره على رأس جميع القوات العسكرية التي كانت تحت تصرفه .

وهناك في الأندلس وقعت معركة كبيرة بين الفريقين في ضواحي قرطبة . قيل إن جيش عبد الرحمن كان يتكون من مائة ألف مقاتل ، وقد كان عبد الرحمن نفسه بارعاً في فنون القتال ، وقد سدد رمحه إلى قائد جيش العدو فأرداه قتيلاً . وبعد هذا النصر ، قفل راجعاً إلى اربونة⁽⁷⁴⁾ .

كان خلعاء دمشق عاجزين على السيطرة على زمام الأمور على مسافة بعيدة مثل التي تفصل بين دمشق والأندلس . وزيادة على ذلك ، فقد كانت الاضطرابات والنزاعات تنهش المناطق الشرقية من المملكة الاسلامية ، كما أن الجيوش العديدة التي وجهها الخلفاء إلى المغرب قد استنزفت امكانيات الخلفاء العسكرية⁽⁷⁵⁾ .

كانت هذه الحروب القاسية ، على الرغم من عدم خوض يبين غمارها ذات أثر ملحوظ على سبتمانية . فإن العرب الذين يحتلون اربونة قد زحفوا على نيم واستولوا عليها وعلى جميع المدن المجاورة لها . ولكن هذه المدن لم تلبث أن فرغت ممن كان فيها من الجنود بحيث اضطر قوادها المسلمون إلى الاعتماد كثيراً على السكان المسيحيين لإدارة شئونهم . وفي هذه الظروف توصل القوط الذين كانوا يشكلون اغلبية السكان الى استرجاع كثير من نفوذهم القديم .

انتصاره على عبد الملك وقتلوه ، كما ذكر المؤلف ، وقد أظهر ولداه اللذان كانا في اربونة إلى العودة الى مراجعة البربر الذين لا تزال سيوفهم تقطر من دمائهم ليستعينا بهم لأخذ الثأر بهم على العرب .

(74) أنظر ابن القوطية ، المصدر المذكور ، ورقة 7 ظهر .

(75) انظر تاريخ أبي الفداء ، طبعة كوبنهاجن ، 1789 ، 198/1 وما يليها .

وهكذا نرى أن مدن لانجدوك الكبيرة ، مثل بيزير ونيم وماجلون ، على الرغم من أنها خاضعة لحكم المسلمين كان ، لكل منها « كونتها » الخاص وإدارة محلية خاصة بها⁽⁷⁶⁾ . وكذلك وقع تغيير مائل في استرقة ونابارة وغيرهما من الولايات الشمالية في الأندلس ، حيث استطاعت بعض الشخصيات أن تجمع جهودها وتحقق لهذه البلاد نوعا من الاستقلال الذاتي .

وفي سنة 747 م (130 هـ) وصل رجل يسمى يوسف (بن عبد الرحمن الفهري) بعد عناء إلى ولاية الأندلس ، فوجه ابنه عبد الرحمن إلى جبال البرينيز لكي يجمع ثورة مسلحة قام بها المسيحيون في هذه المناطق . ولكن مقاومة المسيحيين نجحت في آخر الأمر .

ونتيجة لانقطاع المواصلات البرية بين أربونة والأندلس عبر جبال البرينيز ، أصبح من المحتم أن تتحرّر سبتمانية من حكم المسلمين . ولكن هذا البلد كان محلا لاطماع ابن أود ، « فيفر » (Vaifre) ، دوق اكيثانية وبيين معا . وفي سنة 751 م غزا البلد فيفر من ناحية اربونة . ولكن بيين بلغ الآن درجة من القوة بحيث كان هو وحده الذي يستطيع تقديم بعض الضمانات للسكان من الهدوء والاستقرار ، فقد توجه البابا ملكا . وهذا اللقب الذي لم يظفر به شارل مارتل على الرغم من جميع الانتصارات التي حققها ، رفع مكانته في نظر الشعب وفي سنة 752 م . سار بيين على رأس جيش إلى لانجدوك . وهناك سلم إليه أحد النبلاء من القوط مدن نيم وأجد وماجلون وبيزير⁽⁷⁷⁾ .

(76) راجع المصدر المذكور:

l'Histoire de Nime, Par وكذلك l'Histoire du languedoc, par Dom Vaissette Menard.

وسياتي تفصيل هذا الموضوع أسفله.

(77) راجع المصدر المذكور: Chronique de Moissac dans le Recueil des historien de France, T.V., p.68.

وعقب ذلك اتجهت كل جهود يبين إلى اربونة . ولكنه لما كانت هذه المدينة صعبة المنال ، فقد اقتصر على ترك قوة عسكرية صغيرة بجوارها عهد بقيادتها إلى نفس النبيل الذي يدعى « انسموندوس » (Ansmundus) ولكن ظروفها عاقت نجاح هذه القوة ، أهمها مقتل « أنسموندوس » الذي نصب له المسلمون كمينا ، وثانياً وقوع مجاعة فضيعة شملت جنوب فرنسا واسبانيا معا . وقد بلغت ندرة المواد الغذائية درجة أخطر معها الملك إلى وقف تحركات الجيوش (78) .

وفي هذه الأثناء سقطت الخلافة الأموية التي كان مقرها في دمشق وحلت محلها دولة بني العباس ، عم النبي العربي . والخلفاء الجدد لم يلبثوا أن حولوا مقر خلافتهم إلى بغداد ، على ضفاف دجلة . والدولة العباسية هي التي سوف ترفع راية مجد الاسلام عاليا في الأفق . وأما أسرة بني امية المنهزمة فقد شتت رجالها في كل اتجاه ، ولم ينج من افراد هذه الأسرة التي وسعت كثيرا رقعة الفتوحات الاسلامية سوى رجل واحد أفلت من يد الجلادين والتجأ إلى افريقية حيث بقي متخفيا لدى بعض القبائل بعض الوقت . ولما بلغته اخبار القلاقل والاضطرابات التي تحتاج الأندلس اتصال ببعض الأمراء هناك ، ثم لم يلبث أن نزل بساحل مالقة . وهناك استقبله أبناء الفاتحين استقبال البطل المحرر . كان ذلك في سنة 755 م (138 هـ) . والأمير الوارد يدعى عبد الرحمن (79) .

(78) قارن : Chromique de Moissac dans le recueil de Dom Bouquet, وابن القوطية ، المصدر المذكور ، ورقة 75 .

(79) هو عبد الرحمن بن معاوية ، الداخل (113 - 172 هـ) . والملقب « صقر قرش » ، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس . ولد بالشام ونشأ يتيماً وترى في بيت الخلافة . وقد أفلت من بني العباس عقب سقوط الخلافة الأموية . وبعدما أقام مدة في مكانة تحول إلى منازل نفزاوه من البربر حيث كان يكتب بعض أمراء الأندلس الذين جاء جمع من كبرائهم ليعلموا إليه طاعتهم وسار معهم في مركب ونزل بالمنكب (Almunecare) ومن هناك انتقل إلى =

قدر لعبد الرحمن الداخل وابناؤه من بعده أن يكتبوا اعظم صفحات مجد الاسلام في الأندلس ، وفي عهد الدولة الأموية بالأندلس ازدهرت الحضارة العربية التي لا تزال آثار عظمتها قائمة إلى اليوم . فقبل عبد الرحمن كان غزاة الأندلس منهمكين في تعصبهم أو مشغولين بالنزاعات والحروب الأهلية بحيث لم يجدوا الوقت للبناء والتشييد والتعمير . ولكن عبد الرحمن وابناؤه كان عليهم أن يحاربوا وقتا طويلا النعرات القبلية والنزاعات العنصرية والمصالح الخاصة .

وفي هذه الأثناء خضعت جميع الولايات الاسلامية الشرقية ، بما في ذلك افريقيا الشمالية ، بدون مقاومة للثورة التي قام بها بنو العباس . ولكن عبد الرحمن ، على الرغم من أنه كان يجمع بين السلطة الروحية والدنيوية ويتمتع بسلطة مستقلة ، لم يكن يحكم سوى جزء من اسبانيا . وهذا الاعتبار ، بدون شك ، هو الذي حمله على عدم حمل لقب الخليفة ، وجعله يلزم ابناءه من بعده بالاكثفاء بلقب « أمير » .

وأيا ما كان الأمر ، فإن قرطبة ، عاصمة الدولة الأموية لم تلبث أن أصبحت مركزا للعلوم والفنون ومقصد الغادين والرائحين لطلبها .

وبمجرد ما رأى عبد الرحمن الداخل سلطته استتبّت ، فكر في وضع مدينة ناربونة التي اشتد حصار جيش بيبين عليها ، فوجه إليها جيشاً كبيراً بقيادة رجل يدعى سليمان سار إليها عن طريق جبال البرنيز ليقدّم إليها النجدة . ولكن المسيحيين فاجأوا هذا الجيش في الجبال ومزقوه تمزيقا . وأخيرا قرر المسيحيون الذين يشكلون اغلبية السكان والذين تحملوا

= أشبيلية ثم إلى قرطبة . وبعد قتال مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، ظفر الامير الاموي ودخل قرطبة واستقر له الأمر وقطم خطبة العباسيين ، راجع سيرته في الكامل لابن الأثير ، 182/5 / والاستقصاء ، 53/1 54 والعبر ، 130/4 وغزوات العرب ، ص 112 ، والرحلة السيرة ، 35/1 - 42 ، والبيان المغرب ، 49/2 .

كثيراً نتيجة للحصار، القيام بتحرير انفسهم من حكم المسلمين. ونحن نجعل تفاصيل هذه الثورة⁽⁸⁰⁾، وكل ما نعرفه هو أنهم دخلوا في مفاوضات سرية مع بيبين وأنهم حصلوا على وعد منه بأنه سوف يتركهم، بعد تحرير مدينتهم، أحراراً ليحكموها حسب قوانينهم القوطية. وحينئذ استغلوا فترة غفلة الجنود المسلمين وقتلوهم عن آخرهم ثم فتحو أبواب المدينة للجيش الفرنسي⁽⁸¹⁾.

حدث ذلك في سنة 759 م (142 هـ). ومنذ ذلك التاريخ اخلت المملكة كلية من العرب، ووضع بيبين قوات معتبرة على الحدود لمنعهم من العودة إلى مملكته⁽⁸²⁾.

* * *

(80) من الصحيح أنه توجد تفاصيل طويلة في رواية « فيلومين » (Philomène) التي نشرت في فلورنس في سنة 1823 تحت عنوان: *Gesta Caroli Magni ad Careasonam et Narbos*. والمؤلف يدعي أنه كتب كتابه بناء على أمر من شرلمان، ولكن الكتاب وضع في الأصل باللغة البروفانسية وقد عزا فيه المؤلف بعض الأحداث إلى عهد شرلمان، على الرغم من أنها وقعت في عهد أبيه، بل وفي عهد شارل مارتل. وهذا الكتاب لا بد وأن يكون قد وضع في القرن الثاني عشر وليس قبل ذلك، وهو لا يستحق أي قدر من الثقة.

(81) راجع المصدر المذكور: *Recueil de Dom Bouquet, T.V., p.69 et 335.*

(82) نفس المصدر، 6/1. وإذا صدقنا بعض المؤرخين، فإنه بقي بعض المسلمين بعد هذا التاريخ في دوفيني وفي منطقة نيس وفي جبال الألب، وأن هذه الجماعات قد التزمت الهدوء طيلة عهد بيبين وشرلمان. وقد ذكر عدد من الكتب التي تتعلق بتاريخ دوفيني أن المسلمين قد احتلوا جرونوبل (Grenoble) والبلاد المجاورة لها. ومن جهة أخرى، يفترض مؤرخ لدير ليرين (راجع Vincent Barral, p.132) أن المسلمين قد استقروا في منطقة نيس، ويقول إن شرلمان هو الذي طردهم منها (أنظر المصدر المذكور *Gallia* منطقة نيس، *Christina, T.III, p.1275*) وهذا ما جعل بعض المؤرخين يعتقدون أن المسلمين لم يبعدوا كلية عن دوفيني حتى أوائل القرن العاشر، حتى جاءت موجة أخرى من الفاتحين الذين كانوا يسيطرون على بروفانس وزحفوا منها حتى بيمونت وسويسرا. أنظر: *l'Histoire généalogique de pair de France, par Courcelles.*

القسم الثاني

الغزوات الاسلامية لفرنسا منذ اجلاء المسلمين عن اربونة
حتى استقرارهم في بروفانس في سنة ٨٨٩م

إن الفترة التي سنتناولها بالبحث في هذا القسم تختلف اختلافا كبيرا عن الفترة السابقة . فقد رأينا كيف أن المسلمين لما غزوا فرنسا لم تكن نيّتهم تقتصر على احتلال هذا البلد ونشر الاسلام فيه ، بل إن خططهم كانت تقضي بالاستيلاء على أوروبا كلها وجعل هذه المنطقة التي كان الرومان يهددون منها العالم كله ، مجرد ولاية من ولايات المملكة الاسلامية . وفي هذا السياق يجب أن لا ننسى أن معظم قواد الجيش الفاتح وزعمائه ينتمون إلى الجزيرة العربية وإلى سوريا والعراق ، وأن الشرق كان مركز اشعاع دينهم وقوتهم . وهكذا لم تحلّ أية عوائق من أي نوع كان دون تقدم هؤلاء الرجال الذين ساهموا في فتوحات لا مثيل لها في التاريخ . فكلما كان البلد المنوي فتحة واسعا والصعوبات التي تعترض طريقهم كبيرة ، كانت الفرص لكسب المجد ولإرضاء الله اكبر في نظرهم .

كانت هذه هي الروح السائدة بينهم في الفترة الأولى ، ولكن هذه النظرة تغيرت في الفترة التي نعالجها . فإن سيد اسبانيا الجديد شاهد الانقلاب على أسرته التي أفنيت بالعنف في سوريا . ولما التجأ إلى الأندلس ، لم يكن يرى في افريقية وفي غيرها من الولايات الاسلامية سوى أعداء للملكه ولأسرته المنقرضة والتي ساهمت مساهمة عظيمة في نشر راية الاسلام في مختلف الاصقاع .

ومن جهة اخرى فإن الأندلس بوضعها الذي توجد فيه الآن ، لا توفر قاعدة صالحة لأعمال جريئة للغزو والفتح . ونتيجة للحروب الداخلية التي لم تفتأ تمزقها منذ عهد طويل وللروح الطائفية والنزاعات العرقية التي لا تزال تنخرها حتى الآن ، استغل المسيحيون في ولايات الأندلس الشمالية ظروف القلاقل السائدة ليقفوا موقف التهديد . وأخيراً ، فإن ذكريات الهزائم السابقة لا تزال عالقة بالأذهان .

أضف إلى كل ذلك أن فرنسا التي كانت الهدف الأول لغزو المسلمين كانت تزداد قوة مع مرور الأيام تحت يمين وشرلمان ، بفضل وحدتها . وكذلك كانت لفرنسا مزية أخرى ، وهي أنه كان في استطاعتها أن تستنجد بآي من المانيا ، أو بلجيكا أو إيطاليا لصد أي هجوم عربي عليها . وهكذا انقلبت الوضعية الآن فلم يكن مسلمو الأندلس هم الذين يهاجمون فرنسا ، بل كان الفرنسيون هم الذين يشنون هجمات على الأندلس . وقد كان كل من يمين وشرلمان يجري اتصالات مع مسيحي كتالونيا وأراجون ونابارة ليشجعوهم على الاعتراف تدريجياً بسلطانها ، وأن يعملوا على تأييد محاولات الأمراء المسلمين وعمال المقاطعات للاستقلال والانفصال عن السلطة المركزية في قرطبة . بل إن شرلمان وأبناءه من بعده سوف يدخلون إلى الأندلس مشرعي السلاح ، بل إن الولايات الواقعة على ضفاف نهر إبرة (Ebre) قد ظلت زمناً طويلاً تابعة لفرنسا . وفي أوقات لاحقة حينما شرع نصارى شمال الأندلس في حركة استرجاع بلدهم ، كان كثير من المحاربين من جنوب فرنسا الذين يفخرون بأنهم ينتمون إلى أصلهم ، يسارعون لنجدتهم وللقتال في صفوفهم .

والشيء الجدير بالملاحظة والتسجيل هو أن خليفة بغداد وأمير قرطبة كانا أكثر انشغالا بمضايقة أحدهما الآخر منها بمقاتلة المسيحيين وإتمام فتح اسبانيا . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى قوة الضغائن والأحقاد التي تعمل في النفس البشرية !

وبينما كان أمير قرطبة الأموي يعمل لتوثيق عرى المصالح التي تجمعها بامبراطور القسطنطينية الذي كان في حرب شبه مستمرة مع المسلمين في سوريا وفارس ومصر ، كان الخليفة العباسي في بغداد قد دخل في تحالف مع أمراء فرنسا . وكذلك كانت السفن الفرنسية في هذه الفترة ، كما كانت منذ بداية التجارة القومية ، تقلع من مرسيليا وفريجيوس (Fréjus) وغيرهما من الموانئ وتجه إلى موانئ سوريا ومصر لتزود منها بالتوابل والأقمشة والحرير والعطور الخ ؛ دون أن يعترضها معترض في تلك البلدان⁽¹⁾ .

وترافق العلاقات التجارية حوافز التقوى التي كانت تجعل العديد من المسيحيين يستهينون بالأخطار الجسام للحج إلى الأماكن المقدسة المسيحية . وحتى في اعنف موجة الزحف العربي على فرنسا ، أي في سنة 733 م ؛ كان الحجاج المسيحيون يتجولون بكل حرية في القدس والناصرة ودمشق ، بل إن الحجاج الفرنسيين كانوا يدخلون إلى قصر الخليفة نفسه دون أن يلحقهم سوء ، وذلك إما لأن الخليفة لم تكن لديه سوى فكرة غامضة عن بلد هؤلاء الرجال ، أو أنه يعرف ذلك ولكنه كان يحترم الدوافع التي جاءت بهم فلم يعرهم اهتماما⁽²⁾ .

كان الخلفاء العباسيون ينتهجون سياسة ودية للغاية تجاه فرنسا . وإذا كان الولاة الذين عهدوا إليهم بالشواطئ الأفريقية يقومون في فترة لاحقة بالغارات والغزو لشواطئنا ، فإن ذلك مرجعه إلى ضعف الاتصالات بين هؤلاء وبين الحكومة المركزية التي تفصلهم عنها صحارى ومسافات شاسعة ،

(1) أنظر وصف: Deguingue, Mémoire de l'Académie des inscriptions, T. XXXVII, p.466, وكذلك: Pardessus, Lois maritimes, T.I., Introduction, p.62.

(2) راجع: La vie de St. Guillebaud, dans le Recueil des Ballandistes, au 7 Juillet.

الأمر الذي كانوا يستغلون معه أول فرصة لاعلان استقلالهم

ومنذ سقوط أربونة حتى وفاة بيبين في سنة 768 م ؛ لم ترتكب أية أعمال عدوان بين فرنسا والمسلمين . فأمّا بيبين ، فقد كان يعتبر جبال البرينيز الحدود الطبيعية لفرنسا . وأما عبد الرحمن الداخل ، فقد كان منهمكا في الحرب لاختضاع الأمراء الذين يرفضون الاعتراف بسلطانه . على أن بيبين لم يكن يهمل شيئا من شأنه أن يساعد على إذكاء نار الفتنة بين الفئات المتطاحنة في الأندلس .

ومنذ سنة 759 م ؛ أي بعد سقوط اربونة في يد فرنسا بسنة واحدة ، دخل الحاكم المسلم لبرشلونة وجيرون (جيرونده) ، واسمه سليمان ، في علاقات مع بيبين . وإذا صدقنا ما يقوله المؤرخون الفرنسيون ، فإن سليمان هذا وضع نفسه تحت راية ابن شارل مارتل .

وبعد ذلك نشاهد ظاهرة تعدد الأمراء المسلمين في شمال اسبانيا ، ممن يعترفون بسلطان فرنسا ، وذلك كلما اشتد ضغط أمير قرطبة على واحد منهم . ولكن هؤلاء الأمراء لا يلبثون أن يعودوا ويعلموا ولاءهم لقرطبة من جديد كلما أبدت فرنسا تطرفا فيما تطلبه منهم .

والعامل الذي يسهل محاولات الأمراء المسلمين في الشمال ومحاولات المسيحيين في الولايات الشمالية الاسبانية هو طبيعتها الجبلية . ونحن نعرف أن كتالونية واراغون ونابرة بلاد ذات جبال صعبة المرتقى بحيث يمكن لجماعة صغيرة من المحاربين فيها أن يصمدوا أمام جيش كبير . وبالنظر إلى أن العرب لم يحتلوا هذه البلاد إلا عن طريق المرور بها ، فإن الكتاب العرب لم يكونوا عنها سوى فكرة غامضة . وهم يُسمّون عادة قشتالة القديمة (- la Vieille Castille) أي (Castella Vetulla) والبة (Alva) : « بلاد ألبة والقلاع » . وبالفعل ، فإن هذه المناطق تحتوي على كثير من القلاع والحصون

الصعبة المنال . ومن جهة أخرى فهم يسمون نابرة بلاد الباشكنس . وهذه التسمية تشمل في ذهن بعض الكتاب العرب القسم الذي يقع وراء جبال البرينيز من بلاد (قرقشونة) التي تجمعها وحدة أصل اللغة مع (نابرة) .

وفيما يتعلق بجبال البرينيز فإن الكتاب العرب يسمونها « جبل البرطات » ، وهي مأخوذة من التسمية اللاتينية « Portus » ومن الاسبانية « Puerto » ، ومعناها : المنفذ . لأن الواقع هو أنه يجب المرور عن طريق هذه الجبال من اسبانيا للاتصال بالقارة الاروية . والعرب يميزون أربعة أبواب ، أو ممرات ، يقولون إنها لا تتسع إلا لمرور فارس واحد . وهذه الممرات الأربعة هي :

1 - الممر المؤدي من بریشلون إلى نابرة ، والذي يمر بمدينة « بيرينيان » (Pirpignon) الحالية .

2 - ممر « بويسردة » (Puycerda) الذي يخترق سردانية .

3 - الممر المؤدي من بنبلونة الى « سانت - جان بيي - دو - بور » (Saint - Jean - Pied - de - Port) .

4 - وأخيراً ، الممر الذي يربط طلوزة (Toulouse) ببيون (Bayonne) .

وسلسلة جبال البرينيز كانت في العصور الوسطى أكثر وعورة مما هي الآن . وهذه الحقيقة يظهر أثرها فيما ذكره الكتاب العرب عن هذه الجبال ، ومن هنا ، فإن عدداً من الاسماء الجغرافية التي ذكروها لم يمكننا التعرف عليها

كان اللقب الذي يطلق على حكام الولايات وحكام المدن الكبيرة في

الأندلس في الفترة التي تعيننا ، هو لقب الوزير . وأما كتب التاريخ الفرنسية القديمة فتسميهم « ملوك » ، وذلك لأنهم كثيراً ما يدعون الاستقلال . وأما حكام المدن ذات الحجم العادي فهم يلقبون بلقب « القائد » .

في الوقت الذي كان فيه يبين يعمل لكي يحبط مساعي كل فريق في اسبانيا بفريق آخر ، ويذكي نيران الشقاق والفتنة . كان المنصور العباسي قد انتهى من بناء مدينة بغداد وقد أصبح أشد ما يكون حرصاً على إعادة الوحدة الدينية والسياسية للامبراطورية الاسلامية ، تلك الوحدة التي انفصمت عقب تولي عبدالرحمن الداخل الملك في قرطبة . وكذلك وجه الى الاندلس اسطولاً من الشواطئ الافريقية ، وكان عدد من الأمراء الذين يأملون في الحصول على سلطات أوسع في الاندلس ، قد أعلنوا تأييدهم للمنصور . وأما يبين الذي لم يكن يتوقع أي ضرر من المنصور ، بل كان يعرف أنه يستطيع الاعتماد على مساعدته ، فقد سارع الى إقامة إتصال بالخليفة العباسي . والمؤرخون الفرنسيون يذكرون الخليفة بلقبه الكامل : « أمير المؤمنين » .

وفي سنة 765 م . وجه يبين سفارة إلى بغداد عادت بعد ثلاث سنوات ومعها سفارة من الخليفة العباسي ونزل الجميع في مرسليليا .

استقبل يبين سفارة بغداد أعظم استقبال وأنزل أعضائها أثناء الشتاء في « متز » (Metz) . ولما انتهى الشتاء أعادهم إلى قصر « سال » (Sels) الواقع على ضفاف نهر اللوار . وقد ودعت السفارة وعادت مثقلة بالهدايا عن طريق مرسليليا⁽³⁾ .

وهذه السياسة الودية التي سار عليها يبين تجاه الخلفاء العباسيين هي التي انتهجها ابنه ، شرلمان ، من بعده ، وبمجرد ما رأى هذا الأمير الجريء

Recueil des historiens de France T.X, p.8.

(3) راجع المصدر المذكور:

سلطته متوطدة ، سارع إلى ربط علاقات مودة مع الشخصيات الكبيرة من المسلمين والمسيحيين معاً في الاندلس. وقد كان يلوح للمسيحيين بالمساعدة لنيل الاستقلال والتحرر من نير قرطبة ، بينما كان يعد الأمراء المسلمين بمساعدتهم على الانفصال والاستقلال باماراتهم في ظل حمايته . وبالنسبة للمسيحيين كان شرلمان يعتبر نفسه الحامي الطبيعي للمسيحية والمدافع عن البابا ضد طغيان الملوك اللومباردين ، والصدى الأوفى للعقيدة المقدسة التي يتهم عليها المجددون الهرطقة .

كان المسلمون لدى احتلالهم اسبانيا قد تركوا للمسيحيين حرية ممارسة عقائدهم الدينية، فكان يوجد في قرطبة وطليطلة وغيرها من المدن الاندلسية كنائس وأساقفة وقساوسة . وأما الولايات التي تقع على الثغور ويتداول حكمها المسلمون والمسيحيون ، فيبدو أنه لم يكن يوجد فيها أساقفة ، وكان شرلمان هو الذي تكفل بتوفير رجال الدين الذين يحتاج اليهم السكان . ونظراً لأن المسلمين قد خربوا مدينة « طرْقونة » (Tarragone) فقد وضع مسيحيو كتالونية تحت رعاية رئيس أساقفة أربونة⁽⁴⁾ . كما وضع تحت اشرافه الروحي رئيس أساقفة « أوش » (Auch) مسيحي أراجون . ومتى قام نزاع بين مسيحي اسبانيا فإن الحكم الفصل فيه هو حتماً شرلمان . ومتى كانت لديهم مطالب يريدون أن يعرضوها على البابا ، كان شرلمان هو الوساطة الذي لا ترد شفاعته لديه .

وفي هذه الظروف دخل اثنان من امراء الولايات الواقعة على ضفاف نهر ابرة في حرب مع امير قرطبة في سنة 777 م (161 هـ .) . فاجتازا جبال البرينيز وقصدا على رأس حاشية كبيرة إلى « ويستفاليا » (Westphalie) وأعلنا طاعتها لشرلمان الذي كان يقيم في مدينة « باديربورن »

(4) راجع المصدر المذكور: Gallia Christiania, T.VI, p.15.

(Paderborn) حيث كان « الديت » ، أو البرابن ، يعقد اجتماعاً مهماً⁽⁵⁾ .
وأحد هذين الأميرين يسمى سليمان ، وكان يحكم ولاية سرقسطة⁽⁶⁾ . وفي
معركة جرت مع جيش قرطبة أسر سليمان هذا قائد الجيش وقدمه هدية إلى
شرلمان . ويضيف مؤرخونا أنه استسلم بعد ذلك لسلطان شرلمان .

وهكذا أوجد شرلمان الذي يريد مد سلطانه على الأندلس هذه الفرصة

(5) كان ملوك فرنسا منذ الآن يشعرون بالغيرة لأن يروا امراء العرب يشتركون في الاجتماعات العامة . ومع ذلك ، فإن قصص الفروسية تتحدث كثيرا عن العرب الذين يأتون من « أطراف بعيدة » للاشتراك في المباريات مع الفرسان المسيحيين من أجل إثبات التفوق في الشجاعة وفي فنون القتال .

(6) راجع المصدر المذكور Recueil de Dom Bouquet, T.V., p.19, 40, 42, 203, 319 et 328.

وانظر كذلك ابن القوطية ، المصدر المذكور ، ورقة 95 ظهر . وسليمان هذا اختلف المؤرخون في اسمه ، فمنهم من يسميه سليمان بن قحطان العربي ، ومنهم من يسميه مطرف بن العربي . والأصح أن اسم هذا الأمير هو : « سليمان الاعرابي الكلبي . والأمير الثاني الذي لم يذكر المؤلف اسمه ، والذي كان ، فيما يبدو ، صاحب المبادرة في الخيانة ، هو الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي الذي كان أميراً على سرقسطة . والنقطة الأخرى التي تحتاج إلى التنبيه أن المؤلف يورد هذا الخبر ضمن حوادث سنة 777م . التي تقابلها سنة 161 هجرية ، بينما يذكر هذه الحوادث كل من المقرئ في نفع الطيب (48/3) وابن الاثير (الذي يسميه سليمان بن يقظان الكلبي) وابن الاثير في الكامل (14/6) ضمن حوادث سنة 157هـ (المطابق لسنة 774-773م) . انظر كذلك غزوات العرب ، ص 157 هامش 1 . وأما القائد الذي أسره صاحب سرقسطة وقدمه إلى شرلمان فهو ثعلبة بن عبد الذي أسره بحيلة . وفيما يتعلق بسليمان الكلبي فقد يجد القارئ فائدة في معرفة مصيره . ذكره ابن الاثير في العبارة التالية : « وفيها (سنة 157 هـ) أخرج سليمان بن يقظان الكلبي قارله ، ملك الافرنج إلى بلاد المسلمين من الأندلس ولقيه بالطريق وسار معه إلى سرقسطة ، فسبقه إليها الحسين بن يحيى الأنصاري ، من ولد سعد بن عبادة ، وامتنع بها ، فاتهم قارله ، ملك الافرنج سليمان فقبض عليه وأخذته معه إلى بلاده . فلما أبعد من بلاد المسلمين هجم عليه مطروح وعيشون ، ابنا سليمان في اصحابها فاستنقذا اباهما ورجعا إلى سرقسطة » .

مناسبة لتحقيق أطماعه ، فوجه نداء إلى المحاربين الفرنسيين والالمان واللوباردين وجهاز جيشه لعبور جبال البرينيز .

كان ذلك في سنة 778 م . ، وكان شرلمان لا يخافه شك في أنه بمجرد ما يجتاز جبال البرينيز سيسارع السكان إلى استقباله وعلان طاعتهم له . ولكن الأمراء المسلمين الذين قاموا بذلك المسعى إنما قاموا به رغبة في المحافظة على استقلال إماراتهم ، وبالتالي ، فقد استعدوا للمقاومة . وهذا أيضاً كان هو الموقف الذي وقفه المسيحيون من سكان الجبال الذين أقسموا أن لا يعترفوا بسلطة أجنبية على بلادهم ولما جاء شرلمان من الجانب المقابل لجبال البرينيز ، اضطر إلى تشديد الحصار على بنبلونة التي لم تستسلم له إلا بعد معركة دامية . وكذلك قاومت زحفه مدينة سرقسطة⁽⁷⁾ : وأما حكام برشلونة وجيرونة وهويسكا ، فقد اكتفوا بتوجيه الرهائن اليه لإثبات ولائهم .

وفجأة أعلن أن الساكسون الذين لم يريدوا التخلي عن الوثنية ، رفعوا السلاح ودخلوا في ثورة .

سارع شارلمان بالعودة إلى فرنسا . وبينما هو في طريق رجوعه ، انقض عليه المسيحيون ، وساعدهم في ذلك المسلمون عند وادي «رونسفو» (Ronceveau) فافقوا بمؤخرة جيشه هزيمة وسقط في الميدان عدد كبير من أبطال جيشه الذين قيل إن «رولان» (Roland) ، الفارس المشهور كان من بينهم⁽⁸⁾ .

(7) راجع المصدر المذكور وانظر تعليقاتنا اعلا .
Recueil de Dom Bouquet ,

T.V., p.14, 20, 26, 142, 2030 : et 3043.

(8) لا تزال ذكرى هذه الاحداث حية في ذاكرة الناس في البلد بحيث أنهم يمثلون في أيام الأعياد مسرحية عنوانها « مسرحية رونسفو» . راجع : l'Histoire litteraire de France ,
T. XVIII, p.720.

والمناطق التي كانت تملكها فرنسا وراء جبال البيرينيز كانت رقعتها تختلف باختلاف الأزمنة ، وهي المناطق التي تسمى « مارش » (Marche) (أي الثغور) لأنها كانت تشكل منطقة حدود فرنسا المتوغلة في الأراضي الاسبانية . وهذه الأراضي كانت تشكل جزءاً من أراضي أكتانية التي كون منها شرلمان مملكة لابنه « لويس » (Louis) والتي كانت طولز عاصمتها . والعرب يطلقون عليها الاسم العام الذي يشمل غيرها من البلاد ، وهو « بلاد الافرنج » ، وهو مصدر آخر للخلط في كتبهم⁽⁹⁾ .

ليس في نيتنا سرد الحوادث الكثيرة التي نجمت عن سياسة شرلمان الطموحة ، لأن هدفنا هو تتبع تاريخ الغزو العربي لفرنسا ، ولذلك نكتفي بذكر نتائج مشروعاته ومغامراته .

بعد رحيل شرلمان سارعت معظم المدن التي خضعت له إلى التخلص من نير سلطانه . وقد شعر المسلمون باهانة كبيرة لاضطراهم للخضوع له ، ولكي ينتقموا لأنفسهم وجهوا جهودهم إلى جيرانهم المسيحيين . وقد اضطرو المسيحيون الذين تعودوا على شطف العيش إلى لبس جلود النمرور واعتصموا بالجبال أو في أعماق الأودية ليدافعوا عن أنفسهم بالفؤس . ولكن عدداً كبيراً من الأغنياء الذين لم يستطيعوا البقاء في ملكياتهم اضطروا إلى الهجرة وطلبوا حق اللجوء إلى شرلمان .

كانت توجد في جوار أربونة سهول شاسعة خربتتها الحروب السابقة وتحولت إلى صحرا قاحلة . وهذه الأراضي هي التي وزعها شرلمان على هؤلاء اللاجئين الذين لم يفرض عليهم أي واجب في مقابلها ، فيما عدا واجب الخدمة العسكرية . ويبدو أنه كان يوجد بين هؤلاء اللاجئين بعض المسلمين الذين أصبحوا مسيحيين ، هذا ، على الأقل ، ما يستنتج من أسماء بعض

(9) ويسمونها العرب أيضاً بلاد ناربونة.

العائلات⁽¹⁰⁾ وكثير من هؤلاء اللاجئين أصبحوا يشكلون فيما بعد جزءاً من حاشية بعض العظماء . وحتى في الوقت الحاضر توجد عائلات ترقى شجرة نسبها الى هؤلاء اللاجئين⁽¹¹⁾ .

مات عبدالرحمن الداخل في سنة 788 م (172 هـ .) . والمؤرخون الفرنسيون يصفونه بالشدة والقسوة ويقولون إنه قتل عدداً كبيراً من رعاياه من العرب والافريقيين ، ويضيفون إن المسيحيين واليهود عانوا كثيراً من الآلام على يده⁽¹²⁾ . والمؤكد أن هذا الأمير الذي أنشأ لنفسه مملكة قد اضطر إلى صد هجمات متوالية من أعدائه من الداخل والخارج ، لم يكن في وسعه دائماً أن يحافظ على حياة رعاياه وثرواتهم ، ولكنه كان بطبعه لين الجانب وكان يرعى الآداب والعلوم والفنون . وبما لا شك فيه أن الحضارة الاسلامية في الأندلس مدينة لمواهبه ولصفاته الشخصية . ويبدو أن عبدالرحمن لم تكن له صلة مباشرة بشرلمان . ويذكر أحد المؤرخين أن عبدالرحمن الداخل طلب إلى قارلة أن يزوجه ابنته ، ولكن هذا الكاتب ربما كان يقصد عبدالرحمن الثاني الذي كان يرتبط بعلاقات سياسية مع شارل الاصلع الذي كان يعيش في عهد لاثير فيه مثل هذه المصاهرات وخز الضمير .

اختار عبدالرحمن الداخل خلفاً له ، ابنه الثالث ، هشام⁽¹³⁾ . الذي

(10) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T.V., p.77 et T.VI, p.486.

(11) ومن بين هذه العائلات، عائلة Villeneuve التي تقيم في لانجدوك. راجع: L'Histoire générale de la maison de Villeneuve, Paris, 1830.

(12) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T.V., p.74.

(13) هشام بن عبدالرحمن الداخل (139 - 180 هـ.) ، أبو الوليد ، ثاني أمراء الدولة الأموية في الأندلس . بوع له بعد وفاة أبيه ، في سنة 172 هـ . ، وكان أبوه قد ولاه في حياته . كان أميراً حازماً شجاعاً مجاهداً حسن السيرة والمعاملة لرعيته . غزا الافرنج وبنى عدة مساجد وأتم بناء مسجد قرطبة الجامع وقد أحبه الناس لعدله وفضله . أنظر اخباره في

فضله عن ابنين آخرين أكبر منه سناً . وهذه الظروف لم تلبث أن تمخضت عن الاضطراب⁽¹⁴⁾ فقد اتجه هشام في المرحلة الاولى إلى تثبيت دعائم سلطانه في قرطبة وفي الولايات المجاورة . وبعد ذلك زحف على الولايات الواقعة على ضفاف إبرة لكي يعيد الثوار فيها إلى حظيرة الطاعة .

ولما عاد الأمن والنظام إلى نصابه ، اعتقد هشام أن أفضل وسيلة للقضاء على روح العصية التي أحدثت أضراراً كبيرة في الأندلس ، هو أن يعمل للقضاء على جذور الفتنة في الخارج ، وأن يسعى للانتقام من سياسة بيبين وشرلمان اللذين كانا يوجهان الثورات والاضطرابات عبر جبال البرينيز ، وزيادة على الخطر الذي ينطوي عليه تدخل الملكين الفرنسيين ، فقد شعر هشام بالخطر المهدد من مسيحيي استرقة وغيرها من الولايات الشمالية بالاندلس . وكذلك وضع خطة تقضي بالهجوم على المسيحيين من جميع الجهات ، فقرر تسخير جميع موارد المملكة لنجاح هذه الخطة . والواقع أن كبار الشخصيات الاسلامية في الاندلس كانت تشكو منذ وقت طويل من أن القوات الاسلامية لم تعد تقاتل إلا قوات اسلامية . بل إن بعض العلماء ذهبوا الى حد الدعوة إلى الامتناع عن دفع الزكاة إلى امراء لا يشنون الحروب إلا على المسلمين . وكان هؤلاء يضربون المثال بالخلفاء العباسيين الذين رفعوا صيت

= نفح الطيب ، 334/1 - 338 ، العبر ، 124/4 ، جذوة المقتبس ، ص 11 ، الحلة السرياء ، 42/1 - 44 ، البيان المغرب 61/2 ، المعجب في اخبار المغرب ، ص 19 .

(14) يشير المؤلف هنا إلى خروج أخ هشام ، سليمان عن الطاعة واعتصامه بطليطلة حين لحق به أخوه عبد الله ، وقد بعث هشام جيشاً إليه فلم يظفر به ، فاضطر إلى السير إليه بنفسه فحاصر طليطلة فاستولى عليها ، ثم قام سليمان بعدة محاولات أخرى كان مآلها الخيبة ، قبل أن يلتجئ إلى جبال بلنسية ويعتصم بها . وأخيراً طلب العبور إلى المغرب مع أسرته فأجازه هشام ، بل وأعطاه أيضاً مبلغ ستين ألف دينار صلحاً على تركه أبيه . انظر التفاصيل في العبر ، 124/1 ، والكامل لابن الاثير ، 112/6 و 116 - 117 .

الاسلام عالياً بحروبهم المتواصلة مع أباطرة القسطنطينية⁽¹⁵⁾ .

كان هشام يريد أن يعطي لهذه الحرب أعظم مظاهر الجد والوقار ، فأعلن « الجهاد »⁽¹⁶⁾ في جميع أنحاء الاندلس ، فكانت الدعوة للجهاد تقرأ في المساجد عقب صلاة الجمعة ، أو في اجتماعات تعقد في الساحة العمومية . وتقول الدعوة إن على جميع من يستطيعون حمل السلاح أن يسيروا في الحال في اتجاه جبال البرينيز . وأما العاجزون عن الجهاد فعليهم أن يساهموا في الحرب بالأموال وبغير ذلك من الوسائل . وتتضمن آيات من القرآن . وهي عادة تبدأ بالحمدلة وتكرر فيها عبارة « الله أكبر » ! والآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامك ﴾ الخ .

استجاب المسلمون لهذه الدعوة بحماس في مختلف أنحاء الاندلس وسارع الكثيرون منهم إلى حمل السلاح . والمتطوعون للجهاد يشكلون جيش القتال الوحيد ، حيث أن الدولة في الاندلس لا تحتفظ بجيش دائم . وإلى جانب جواهر المسلمين في الأندلس كان يسارع في الماضي كثير من ذوي النيات الحسنة من بلدان المغرب ، بل ومن الجزيرة العربية وسوريا أيضاً ، للاشتراك في الجهاد . ولكن الحدود بين هذه البلدان وبين الاندلس شبه معلقة في الوقت الحاضر .

كان ذلك في سنة 792 م (176 هـ) ، وعلى الرغم من اتساع نطاق الحرب فإن عدد الذين انضموا تحت لواء القتال لم يكن يزيد عن مائة ألف رجل . قسم هذا الجيش إلى قسمين فسار أحدهما إلى استرقة لمقاتلة المسيحيين ، ولكنه لم يظفر إلا بنجاح محدود في هذه الحملة ، وسار الآخر بقيادة وزيره ، عبد الملك

(15) راجع المصدر المذكور: Code, Historia, T., I, p.199.

(16) بالعربية مكتوبة بالحروف اللاتينية في الأصل.

(بن عبد الواحد بن مغيث) الى كثالونية [ألبه والقلاع في رواية المقرئ] ،
واستعد للدخول إلى فرنسا .

وفي سنة 792 م . (176 هـ :) . قام عبد الملك بهذه الغزوة ، بينما كان
شرلمان موجوداً على ضفاف الدانوب منهمكاً في محاربة شعب « الافار » (les
Avars) ، بينما كانت أفضل قوات جنوب فرنسا العسكرية في ايطاليا بقيادة
لويس ، ملك اكيثانية . ولما اقترب المسلمون ، التجأ سكان السهول إلى
المغارات أو إلى قمم الجبال العالية .

كان هدف المسلمين مدينة أربونة ، الحصن العظيم الذي أقاموا فيه مدة
طويلة والذي عيل صبرهم لاسترجاعه . ولما وجدوا المدينة مستعدة للدفاع ،
اضرموا النار في ضواحيها ، ثم اتجهوا إلى (قرقشونة) (17) .

وجه كونت طولوزة جيوم ، الذي وكل اليه لويس مهمة حماية سبتمانية
والدفاع عنها ، نداء إلى الكونتات وكبار رجال الولاية يطلب إليهم المساعدة ،
فسارع المسيحيون في جميع الجهات إلى حمل السلاح والانضواء تحت رايته .
وقد التقى الجيشان على ضفاف نهر « أوربيو » (Orbieux) في مكان يسمى
« فيلدين » (Villedaigne) يقع بين قرقشونة وأربونة .

(17) Chronique de Moissac, dans le recueil de Dom Bouquet, T.V., p.74.

وهذه التفاصيل والتفاصيل التالية تكمل الرواية العربية التي يشوبها الاقتضاب، وتخلو،
خصوصاً، من أسماء قادة الجيش النصراني. وللمقارنة نورد هنا رواية المقرئ التي نقل
كل عناصرها تقريباً عن ابن خلدون، وهي أفضل من رواية ابن عذارى:
«وفي سنة ست وسبعين، بعث (هشام) وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزو
العدو، فبلغ ألبه والقلاع، فأثنى في نواحيها، ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعون إلى
أربونة وجربنده فأثنى فيها ووطئ أرض برطانيا، وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار
وهزمهم الخ». وأما صاحب غزوات العرب، فإن ما ذكره لا يكاد يتجاوز ما نقله عن
رينو. انظر غزوات العرب، ص 165 - 167.

كانت المعركة شديدة للغاية ، وقد تحمل الفرنسيون خسائر كبيرة في الأرواح ، فاضطروا إلى الانسحاب ، بعدما أبلى جيوم بلاء كبيراً .

وأما المسلمون الذين قتل أحد قوادهم في المعركة ، فإنهم لم يجرؤوا على التقدم إلى الامام ، بل اكتفوا بما وقع في أيديهم من الغنائم الكثيرة ، ثم عادوا أدراجهم إلى الأندلس حيث استقبلوا استقبال المنتصرين المظفرين ، فاقامت صلوات في جميع مساجد الأندلس لشكر الله على هذا النصر الذي لم يشاهدوا مثله منذ وقت طويل⁽¹⁸⁾ .

بلغ خسر الغنائم الذي آل إلى بيت المال طبقاً لنصوص الشريعة الإسلامية خمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب (وهو مبلغ ضخيم خصوصاً إذا اعتبرنا ندرة المال من نقود الذهب في ذلك العهد ، وإذا اعتبرنا أن البلد الذي اخذ منه بلد فقير وقد انهكته الحروب) .

كرس هشام بن عبد الرحمن هذا المال لاتمام بناء مسجد قرطبة الجامع الذي شرع أبوه في بنائه . والشيء الذي يضيف طابعاً خاصاً من القداسة لمسجد قرطبة ، هو أن ما بنى منه في عهد عبد الرحمن كله بنى بريع الغنائم التي أخذت من المسيحيين . ويذكر أحد الكتاب العرب أنه لما تم بناء جميع بنايات المسجد الجديدة ، رفض المسلمون إقامة الصلاة فيه . ولما أبدى هشام دهشته وتساءل عن السبب قيل له إن القسم القديم صرف على بنائه من ريع الغنائم ، ومن ثم ، فإن الله يستجيب للدعاء فيه . وعندئذ صرح الأمير أمامهم ، بأن البنائات الجديدة قد صرف عليها أيضاً من أموال الغنائم ، ثم احضر القاضي وكبار رجال الدولة ليشهدوا بصدق ما قاله⁽¹⁹⁾ .

(18) راجع المصدر المذكور: Recueil des historiens de France, T.V., p.74 et 360 .

وكذلك نهاية الارب، المصدر المذكور، ورقة 195 ظهر.

(19) انظر: Extrait d'une histoire de Arabes d'Espagne, Leipsick, 1791.

وبضيف بعض المؤرخين أن أسس البنايات الجديدة قد اقيمت على تراب نقل أثناء الغزوة الأخيرة من ارض جليقية ولانجدوك ، أي على مسافة حوالي مائتي فرسخ ، على عجالات أو على ظهور الأسرى المسيحيين⁽²⁰⁾

وإذا صدقنا بعض المؤرخين العرب ورودريك الذي ينقل عنهم ، فإن المسلمين قد استعادوا أربونة . ولكن رواية هؤلاء المؤرخين يشوبها كثير من الخلط . واسم « بلاد الافرنج » (Pays de Francs) الذي يطلقونه على البلاد الواقعة أمام جبال البرينيز وخلفها معاً ، يحول بينهم وبين فهم الطريق التي سلكها الجيش الاسلامي⁽²⁰⁾ .

(20) راجع المصدر المذكور: Rodric Ximenes, p.18. وقد ذكر المقرئ أمر هذا التراب بالعبارة التالية :

« وفي أيامه فتحت أربونة الشهيرة واشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المنفتحة يحملونها إلى باب قصره (هشام) بقرطبة وبني منه المسجد الذي قدام باب الجنان وفضلت منه فضلة بقيت مكمّمة النفخ ، 337/1 » .

(20) وهكذا نرى أن الأدريسي ، مثلاً ، يضع مدينة جيرون (جيرونده) التي تقع في كتالونية ، في جاسكون في ضواحي « أوش » (Auch) . ومن جهة أخرى نرى أن النويري الذي يروي خبر هذه الحملة بشيء من التفصيل ، لا يقول صراحة إن أربونة قد سقطت في يد المسلمين (تعليق المؤلف) ونحن يجب أن نلاحظ هنا أن المؤلف لم يتح له لدى كتابة كتابه الاطلاع إلا على بعض كتب التاريخ العربية التي كانت تحتوي عليها المكتبة الملكية (المكتبة الأهلية حالياً) بباريس وبعض النصوص التي ترجمها كوندي ، حيث أن « أمهات » الكتب التاريخية العربية لم تكن قد نشرت بعد . وفي مقدمتها كتب ابن الأثير « الكامل » وابن خلدون « العبر » والمقرئ « نفح الطيب » وابن عذارى « البيان » . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الكتاب ، مثل النويري ، لا يذكر صراحة أن المسلمين احتلوا أربونة في هذه الغزوة . فإن ابن عذارى يستعمل كلمة « أوقع بمدينه أربونة » ، وابن الأثير يقول : « فبلغوا أربونة وجرونده ، فبدأ بجرونده وكان بها حامية الفرنج ، فقتل رجالها وهدم اسوارها وأبراجها ، فرحل عنها إلى أربونة ففعل [بها] مثل =

ولو سقطت مدينة أربونة في يد المسلمين في تلك الغزوة لذكر ذلك المؤرخون المسيحيون في كتبهم ، على الأقل ، عند استرجاع النصارى لها . ونحن يجب أن لا ننسى أن شلمان قد وضع نظاماً محكماً في دولته في الوقت الذي وقع فيه هذا الغزو ، وأن المؤرخين المعاصرين كانوا يسجلون كل ما يحدث من الأمور الهامة في المملكة ، سنة بعد سنة .

ولكنه إذا كان المؤرخون المسيحيون المعاصرون للأحداث لا يذكرون شيئاً عن سقوط أربونة في يد المسلمين ، فإن الكتاب المتأخرين يفترضون أن المسلمين قد استولوا على هذه المدينة القديمة ، بل وعلى جميع جنوب فرنسا . ونحن قد سبق أن ذكرنا أن الزعيم المسيحي الذي برز في هذه المعارك ، هو الكونت جيوم . والكونت جيوم ينتمي إلى أسرة عريقة ، وقد استحق المكانة العالية التي شغلها بتقواه وبشجاعته معا . وهذا الشخص هو نفسه الذي ساهم مساهمة فعالة بعد ذلك ببضع سنوات في استيلاء الجيش الفرنسي على برشلونة . ولما سئم المظاهر الخداعة في هذا العالم ، تنسك والتجأ إلى دير « جيلون » (Gellone) الذي يقع في ضواحي « لوديف » (Lodeve) والذي كان قد أنشأه هو نفسه . وقد مات في هذا الدير وهو أشد ما يكون إيماناً وتقوى ، وبذلك استحق مرتبة القديسين . وهذه الظروف جعلت جيوم يتمتع بسمعة شعبية عارمة في جنوب فرنسا . ويخبرنا كاتب وضع سيرته وكان يعيش في غضون القرن العاشر الميلادي ، أن الناس كانوا يتغنون به وبأعماله

= ذلك . وهذا النص ، في رأيي ، دليل واضح على أن العرب لم يحتلوا أربونة في هذه الغزوة ، إذ لو كان الأمر كذلك لما هدموا أسوارها وتحصيناتها التي يحتاجون إليها في الدفاع ضد عدو يعرفون جيداً أنه غير بعيد وأنه سيأتي لمحاصرتهم ولا محالة . والمقرى ، مثل ابن خلدون الذي ينقل عنه . يكتفى بالقول بأنه (عبد المالك) « فبلغ إليه والقلاع فآخض في نواحيها ، ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجزنده فآخض فيها » .

البطولية ضد المسلمين في ذلك العهد في الكنائس وفي مختلف الاجتماعات الدينية العديدة⁽²¹⁾ .

وبعد ذلك بوقت قصير أخذ الشعراء الفرنسيون ينظمون قصائد لتمجيد أعمال شرلمان التي كان من بينها الصحيح والمزيف . بل إنهم راحوا يجدون أعمال بعض رجاله أيضاً ، وفي مقدمتهم كونت ظلوزة .

ومن أهم القصائد التي أبقي عليها الدهر في الأدب الفرنسي قصيدة تحمل عنوان « جيوم - اوكوني » (Gaillaum au Court-ney) . وفي هذه القصيدة نقرأ أن نيم وأورانج (Orange) وآرل مدن احتلها المسلمون وأنها مدينة بتحريرها لهذا البطل⁽²²⁾ .

ومن جهة أخرى ، كان يوجد نقش باللغة اللاتينية احتفظ به في مدينة آرل قبل الثورة الفرنسية في دير « مونت ماجور » جاء فيه أن شرلمان اضطر إلى الحضور شخصياً إلى آرل للمساعدة في طرد المسلمين منها . ولكن هذه الروايات لا تقوم على أساس . فإن من المعلوم أن كتاب قصص الفروسية قلما يحترمون الحقيقة التاريخية . وإلى جانب ذلك ، فإن النقش الذي كان محفوظاً في آرل ، نقش مزيف . لأن النقش يضيف إلى ما تقدم أن شرلمان أراد أن يخلد انتصاره على المسلمين ببناء دير « مونت ماجور » . ولكننا نعرف يقيناً أن الدير لم يؤسس إلا بعد ذلك بمائة وخمسين سنة . إنه لمن الواضح أن الذين اختلقوا كتابة هذا النقش الذي يقوم على إشاعات شعبية رائجة في ذلك الوقت ، كانوا

(21) راجع المصدر المذكور: Mabillon, Annales Bèndictini, T.II, p.369.

(22) الروايات والقصص التي تمثل أصول هذه الرواية قديمة جداً ، حيث أنها كانت شائعة في الأوساط الشعبية منذ القرن الحادي عشر . راجع :

Roman de la Violette Franeisque Michel. P. 72

Recueil des historiens de la Normandie, par Duchesne, p.598

وانظر أيضاً :

يهدفون ، خصوصاً ، إلى حمل الناس على الاعتقاد بأن الدير أقدم مما هو في الحقيقة وإلى إعادته إلى أصل ليس له⁽²³⁾ .

مات الأمير هشام ، أمير قرطبة في سنة ، 796 م (180 هـ) . وخلفه على العرش ابنه الحكم بن هشام (الرضيي)⁽²⁴⁾ .

وبعد مبايعته مباشرة ، قام عليه عمّاه اللذان كانا قد ثارا على أبيه من قبل ، معتبرين أنها أولى بالامارة منه . وكما صنع أبوه من قبل ، وجد الحكم نفسه مضطرا منذ البداية إلى اخضاع هؤلاء الثوار .

وفي السنة التالية وصل إلى بلاط شرلمان الذي كان مقيما في « إكس لاشابيل » (Aix-la-Chapelle) حاكم برشلونة المسلم وطلب نجده . وكذلك حضر إليه عبد الله ، عم الحكم الذي خابت مساعيه لخلع ابن أخيه ، أمير قرطبة ، وكان هو أيضاً يريد مساعدة فرنسا وتأييدها لمحاولاته⁽²⁵⁾

وفي نفس السنة استقبل الملك لويس بن شرلمان ، ملك أكيثانية الذي

(23) راجع : Millin, Voyage dans les Départements du Midi de la France, T.IV, p.2.

(24) الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل ، ثالث ملوك الدولة الأموية بالاندلس (154 - 206 هـ) . أول من جند الاجند وجمع الاسلحة واتخذ ابنة الملوك وجعل الملك متوارثا في عقبه . ولقب بالرضي لأنه اكتشف مؤامرة لخلعه دبرت في الرض فأحبطها ونكب الذين قاموا بتدبيرها . وقد قام بنفسه لقتال الافرنج الذين افسدوا عليه ولايات حدود مملكته ، فافتتح الحصون وعاد بالغنائم مظفراً مهابا إلى قرطبة . راجع تفاصيل اخباره في العبر ، 124/4 ، المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، 40 و 44 و 144 - 146 ، والبيان ، المغرب 70/2 ، المعجب ، ص 21 و 22 . نفح الطيب ، (الفهرس) ، غزوات العرب ، ص 129 - 130 .

(25) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T.V, p.22 et 50.

كان يحضر مجلس البرلمان كعادته ، في طولوزة ، مبعوثا موفدا من الملك الفونس (للاذفوش) ملك جليقية واسترقه ، يدعوه إلى توحيد جميع قوات المسيحيين لمواجهة العدو المشترك . وكذلك حضر إلى البرلمان أمير مسلم لنواحي « وشقة » (Huesca) يسمى « بهالوك » ليعلن رغبته في العيش في سلم ووثام مع المسيحيين⁽²⁶⁾ .

كان يبدو أن الوقت ملائم لأخذ الثأر للاضرار التي أحدثها المسلمون في لانجدوك ولتأمين انتصار الأسلحة الفرنسية عبر جبال البرينيز .

كان لويس وشقيقه شارل ، ابنا شرلمان ، قد سبق أن قاما ببعض الاعتداءات على الحدود ، من جهة نهر إبرة ، فأحرقا ، وأفسدا ، وأعملا السيف في الرقاب . ومرة أخرى اجتاز لويس جبال البرينيز من جهة اراجون وضرب حصاراً على وشقة التي بعث حاكمها برؤسائها إلى شرلمان ، والتي رفضت ، مع ذلك الاستسلام للفرنسيين .

وفي نفس الوقت استولى عبد الله ، عم الحكم ، على مدينة طليطلة (Toledo) ، كما استولى شقيقه ، سليمان ، على بلنسية (Valence) .

وفي هذه الظروف الدقيقة ، وجه الحكم جيشه إلى طليطلة لمحاصرتها ، بينما سار هو بنفسه في اتجاه جبال البرينيز ، فاعاد إلى طاعته مدينة برشلونة ومعظم المدن الأخرى الثائرة ، ثم زحف على المسيحيين الثائرين في جبال البرينيز ، فحدث كثيرا من الأضرار في أراضيهم ، كما قتل الرجال الذين تسمح حالتهم بحمل السلاح وسبا النساء والأطفال والعبيد⁽²⁷⁾ ،

(26) راجع المصدر المذكور:

Recueil des historiens des Gaules, T. VI, p.90 et 91.

(27) قارن ما ذكره المؤلف نقلا عن المصادر المسيحية برواية المقرئ في نفح الطيب، 340/1 وابن عذارى في البيان، 72/2. وكلتا الروايتين تكمل الأخرى، وانظر كذلك كتاب =

هؤلاء الأطفال خصوصهم ، ووضعهم على حراسة الحريم والبعض الآخر أصبح فيما بعد حرسا للقصر .

ولقد كان الحكم بن هشام أول ملك في الأندلس يتخذ لنفسه حرسا خاصا ، ولكي يضمن ولاء الحرس كان يختارهم من بين الأسرى من النصارى .

وهذا النصر الذي احرزه الحكم على المسيحيين هو الذي أوحى إلى جنوده بلقب « المظفر » الذي اطلقوه عليه⁽²⁸⁾ . وعقب عودته ، فتحت طليطلة أبوابها لجيشه وقتل عمه ، سليمان في هذه الواقعة . واما عمه الآخر ، عبد الله ، فقد هجر إلى أفريقية ، في انتظار فرصة أخرى لكي يظهر من جديد على مسرح الأحداث .

وفي هذه الأثناء شن الملك الفونس (أذفونش) ملك جليقية حملة على أشبونة (Lisbonne) . ولدى عودته بعث إلى شربان بعدد من الأسرى المسلمين اركبهم على البغال بكامل اسلحتهم ، بما في ذلك الدروع ، ومن جهته ، قام ملك اكيثانية بنهب وشقة .

وهذه الانتصارات المحدودة النطاق والتي يحققها الطرفان سجلا ، لم تكن لها نتائج ذات بال ، هذا إذا استثنينا الخراب الشامل الذي يلحق البلدان التي تجري في اراضيها المعارك .

وأهم عقبة في طريق الفرنسيين هي أن الأمراء العرب الذين يتجهون

= العبر ، 125/4 ، وفيه أن الحكم لم يستعد طاعة برشلونة بنفسه ، بل بعث « العساكر إلى برشلونة مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث » . ويذكر المؤلف في تعليق قصير في هذا السياق أن كوندي قد غلط في افتراضه أن العرب وصلوا في هذه الغزوة إلى اربونه ، أنظر أيضاً غزوات العرب ، ص 176 ، الذي ينقل صاحبها كثيرا عن رينو .

(28) وهي الكلمة التي حرفها المؤرخون الفرنسيون القدماء إلى « أبولفر » (Abulfer) .

اليهم لطلب النجدة والمساعدة ، يرفضون استقبالهم حينما يقصدون إلى مدتهم . ومتى حاول الفرنسيون استعمال القوة ضدهم التجأوا إلى أمير قرطبة . والمسلمون الذين كانوا سادة المدن الكبرى ، مثل برشلونة وطرطوشة (Tortose) وسرقسطة (Saragose) ، كانوا دائماً على يقين من أنهم سيجدون الملجأ المأمون عند الحاجة . ومن هنا ، فهم يستطيعون دائماً شن غارات على المسيحيين . ومن بين جميع مدنها كانت برشلونة افضل موقع جغرافي لهذه الغاية . فهذه المدينة القوية التحصينات تقع قريباً من الحدود الفرنسية عن طريق البر وعن طريق البحر معا . والغزوة التي تنطلق منها قد تنشر الذعر والخراب في تلك الجهات .

والأمير العربي الذي كان يحكم برشلون والذي تسميه كتب المسيحيين القديمة « زادوس » أو « زَنطون » أعلن طاعة إمارته لشرلمان عدة مرات ، ولكنه كان دائماً يرفض دخول الفرنسيين إليها .

وفي رأي جيوم ، كونت طولوزة ، أن لويس بن شرلمان ، قد صمم على محاولة الاستيلاء على هذه المدينة .

كان ذلك في سنة 800 م ؛ وكان شرلمان يقيم في روما ويستعد لتلقي التاج الامبراطوري .

وفي نفس الوقت ، أعلن لويس أمام برلمان في طولوزة وإلى جميع النبلاء ، نيته في القتال واصدر أوامره بحمل السلاح للزحف على عاصمة كتالونية .

لقد وصلتنا تفاصيل عديدة عن حوادث حصار برشلونة تضمنتها قصيدة باللغة اللاتينية للشاعر « ادموندوس نيجلوس » (Edmondus Nigellus) . وبالنظر إلى أن هذه التفاصيل تلقي ضوءاً على الطريقة التي كانت تدار بها رُحى الحرب لدى المسلمين والمسيحيين معا في ذلك الوقت ، فسنتبس مقطوعات

من تلك القصيدة⁽²⁹⁾ . يقول الشاعر :

« لقد أصبحت برشلونة قلعة منيعة للمسلمين . ومن هذه المدينة ينطلق فرسان على متن جياد خفيفة لشن غزوات على الأراضي المسيحية ويعودون بالغنائم . وعبثا نشر الفرنسيون الخراب مدة سنتين حول أسوارها ، فإن حاكم المدينة قد رفض الاستسلام » .

« ولما وصل محاربو اكيثانية أمام أسوار برشلونة أخذ كل منهم يعمل لانجاز المهمة التي كلف بها . فهذا يعمل لاعداد السلام ، وذاك يضرب الأوتاد في الأرض ، والآخر يحمل الأسلحة ، ورابع يكوم الحجارة . ها هي السهام الآن تنطلق من كل جهة والأسوار تردد صدى طلقات المنجنيق ، والمرجام يحدث أثارا فظيعة . ورغبة منه في تعزيز الروح المعنوية بين رجاله ، أعلن حاكم برشلونة أن نجداث في طريقها من قرطبة إليه . وبعد ذلك أشار بيده إلى الفرنسيين قائلا : « انظروا إلى هؤلاء الرجال ذوي القامات العالية والذين لا يتركون لحظة من الهدوء للمدينة : إنهم شجعان وذوو كفاءة وبراعة وهم خفيفو الحركة ، واسلحتهم دائما في ايديهم . هيا ، لندافع عن حصرتنا بشجاعة ! » .

كانت الجيوش المسيحية قد قسمت إلى ثلاث كتائب ، كلفت الكتيبة الأولى منها بمهاجمة المدينة ، وتولت الكتيبة الثانية التي كانت تحت قيادة الكونت جيوم مهمة مواجهة الامدادات التي تأتي المدينة من قرطبة . وأما الكتيبة الثالثة فقد عسكرت على جبال البرينيز وهي على اتم الاستعداد لتتجه إلى المكان الذي تدعو فيه الحاجة إليها .

ولما وجدت القوات التي جاءت من قرطبة لنجدة برشلونة الممرات

(29) راجع المصدر المذكور: Recueil des historiens des Gaules, T.IV, p.13 et suiv. وكذلك T.V, p.80 et 81.

محروسة ومغلقة في وجهها اتجهت إلى مقاتلة مسيحيي أشرطة الذين اضطروهم إلى التراجع .

وعقب ذلك عاد الكونت جيوم إلى برشلونة وشدد الحصار من جديد على هذه المدينة .

ولما رأى أمير المدينة أنه أصبح عاجزاً عن الدفاع عنها ، خرج منها وسقطت في يد المسيحيين . وبعد ذلك قام الفرنسيون بهجوم عام وفتحت المدينة أبوابها .

سقطت برشلونة التي بقيت في يد المسلمين تسعين عاماً في سنة 801 م (85 هـ) . وعقب ذلك حولت مساجد المدينة إلى كنائس ، وبعث لويس إلى شارلمان بجزء من العنائم التي أخذها منها ، وهي عبارة عن دروع وسيوف وخوذات وجياد بسروجها الفاخرة .

وعلى اثر ذلك قسمت الممتلكات الفرنسية في اسبانيا إلى ثلاث ولايات : ولاية قوطية وسبتمانية اللتين تشكلان كتالونية الحالية والتي كانت برشلونة عاصمة لها ، وولاية جاسكون التي كانت تشمل المدينتين الفرنسيتين أراجون ونابارة (نافار) .

وفي السنة نفسها استقبل شارلمان سفارة من هارون الرشيد ، الخليفة العباسي المشهور . وقبل ذلك بوقت بعث شارلمان ببعثة إلى الخليفة تتكون من يهودي يسمى اسحاق ومسيحيين فرنسيين . وقد زود هذه البعثة بأوامر تقضي بأن تقرر على مدينة القدس التي أصبحت الآن مقصداً للحجاج وللتجار معاً ، وبعدم تدارس حالة الأماكن المقدسة المسيحية فيها ، وتطلب إلى الخليفة أن يمد بجميع المزايا التي من شأنها أن ترفع من قيمتها ويسهل الدخول إليها على الحجاج والتجار الذين يترددون عليها من مختلف أنحاء العالم . وزيادة على ذلك ، كلفت البعثة بأن تطلب إلى الخليفة أن يقدم إلى شارلمان فيلا ، وهو

حيوان لم يره الناس في فرنسا ، على الأرجح منذ عهد هنيبال ، ومن شأنه أن يؤثر منظره كثيراً على خيال الناس . أحسن الخليفة استقبال البعثة الفرنسية ، ومنح شرلمان حق السهر على الأماكن المقدسة المسيحية . وكذلك بعث إليه بالفيل الوحيد الذي كان في حوزته في ذلك الوقت ، وقدم إليه على سبيل الهدية خيمة عظيمة مصنوعة من القطن ومن الحرير النادر ، وكميات من الروائح العطرية من مختلف الأنواع ، وشمعدانين كبيرين مصنوعين من النحاس ، وبساعة مصنوعة هي أيضاً من النحاس تتحرك بقوة الماء حسب الساعات الاثنتي عشرة من النهار . نزل الفيل وغيره من الهدايا في بيزه (بيزيه = Pise) ومن هناك نقلت في احتفالات ضخمة إلى ايكس لاشابيل ، حيث يوجد قصر شارلمان المفضل . وقد كلفت السفارة بأن تبلغ تحيات هارون الرشيد إلى شرلمان وتقول له إنه يقدر صداقته أكثر من صداقته لأي ملك آخر⁽³⁰⁾

وكذلك كلف شرلمان البعثة الفرنسية بأن تعود عن طريق تونس وتجه

(30) راجع المصدر المذكور : Recueil de Don Bouquet, T.V, P. 53.

والمؤلفون العرب لا يتحدثون عن العلاقات بين هارون الرشيد وشرلمان ، ولكن معظم الكتاب الفرنسيين الذين عاشوا في ذلك العصر قد ذكروها ، كما ذكروا العلاقات بين بيبين لوبوف والخليفة (ابو جعفر) المنصور العباسي ، والسفارة التي بعثها المأمون إلى « لويس لو ديونير » (Louis-le-Debonnaire) كما سيأتي ذلك . اصف إلى ما تقدم أن البابا ليون الثالث قد كتب إلى شرلمان ، بعد موت هارون الرشيد في سنة 813م . رسالة قال فيها إنه إذا كان قراصنة الشواطئ الافريقية لم يعودوا يحترمون شواطئ الامبراطورية الفرنسية ، مثلاً هي الحالة بالنسبة إلى الشواطئ الاغريقية ، فذلك لان اسم الخليفة (هارون الرشيد) لم يعد يكبح جماح هؤلاء .

أنظر : Pagi, Critique des annales de Baronius, an, 813, No.20 et suiv. ومع ذلك ، فإن العالم « بوكفيل » (Pouqueville) يصف هذه العلاقات في Mémoire de l'Académie des inscriptions (T.X, p.529). بأنها مزورة وينكر رواية « ايجينارد » (Eginard) كلية . والمرجح أن بوكفيل قد خلط بين هذا الكاتب وبين « ايجينلر » ، فسيس « سانت جال » (St. Gall) الذي كثيرا ما كانت رواياته موضوع نقد يستحقه .

إلى خرائب قرطاجنة ، بعدما تطلب إذنًا من ابراهيم بن الأغلب ، والي هارون الرشيد على افريقية ، بأن يسمح لها بنقل رفاة القديس « سيريان » (Cyprien) وغيره من شهداء المسيحية الذين أرووا الأرض الافريقية بدمائهم الغزيرة . وقد منح ابراهيم اذنه بدون صعوبة لهذه الغاية ، بل زاد على ذلك ووجه ، بعد رحيل البعثة الفرنسية سفيراً إلى الامبراطور شرلمان ليلبغه تحياته .

ونحن نتصور بدون صعوبة الأثر الهائل الذي تحدثه هذه الاتصالات مع الخارج في شعوب كانت ترى إن الأرض كلها تبجل وتعظم ملكها .

وفي هذه الأثناء استمرت الحرب في نابرة وأراجون وكتالونية والنصر فيها كان سجالاً . لا ريب في أن شرلمان لم يجد الوقت للاهتمام بهذه الناحية من حدود مملكته ، أو ربما لم تجد تعليماته من يطبقها . والمؤكد أن هذا الرجل العظيم لم يحظ في هذا الجانب بنجاح مماثل لنجاحه في كل مكان آخر . ونحن يمكننا أن نستخلص فكرة عن الوضعية الغربية التي وجد نفسه فيها وعن السياسة التي انتهجها أمير قرطبة بالحادثة التالية :

لما توفي الكونت « اوربول » (Auréole) الذي كان حاكماً لسرقسطة لحساب شرلمان في سنة 809 م . ، استولى الأمير المسلم المدعو « أمورو » على هذه المدينة وغيرها من القلاع التابعة لها ، وهو ينوي تسليمها إلى شرلمان . ولكنه لما جاءت القوات الفرنسية لاستلامها ، رفض استقبالهم قائلاً إنه سوف يفي بتعهده في الدورة القادمة للبرلمان . وعلى ضوء هذا الموقف حرم أمير قرطبة هذا الحاكم من ممتلكاته . وقد كانت النتيجة ، على كل حال ، أن ممتلكات أوربول قد بقيت في يد المسلمين . تلك هي رواية المؤرخين المسيحيين⁽³¹⁾ .

(31) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T. V, p.58 et suiv.

وفيا يلي ما ذكره أحد الكتاب المسلمين عن هذه الشخصية :

ولد هذا الأمير في وشقة من أب مسلم وأم مسيحية ، وهو نوع من المصاهرة كان عادياً في ذلك الزمن في اسبانيا ، ولا سيما في الولايات الشمالية التي تقطنها أغلبية من المسيحيين . والاشخاص الذين يولدون من أبوين ينتمي كل منها إلى دين وجنسية تختلف عن دين وجنسية الآخر ، يسميهم العرب «مولدين»⁽³²⁾ . وهؤلاء الاشخاص لا يتمسكون ، عادة بأي مبدإ ديني ، وهم يسيرون دائماً مع المعسكر الغالب⁽³³⁾ .

وقبل ذلك ببضع سنوات كانت مدينة طليطلة تعج بأمثال هذا الشخص ، وقد بلغ الأمر بهم في وقت ما أن هددوا بحمل علم الثورة . ولما كانت الثقة وطيدة بين أمير قرطبة وأمورو ، وقع اختياره على الأخير لاختاد تلك الحركة . وبعدما رسم خطة باتفاق معه ، قصد إلى طليطلة وتظاهر بأنه رجل ساخط ويشارك السكان ميولهم ، وأنه لا ينتظر سوى مناسبة ملائمة ليعلن الثورة . وباتفاق مع السكان قام ببناء حصن في أعلى مكان في المدينة ليكون قلعة لحريتهم . ولما تم بناء الحصن وجه الدعوة لكبارهم ووجهائهم للاحتفال بهذه المناسبة وبمجرد ما يصل أحدهم ويدخل القلعة تقطع رأسه ، وبذلك قتل اربعمائة (وفي قول خمسة آلاف) من المولدين الثائرين . وربما قتل عدد أكبر لولا أن السكان اكتشفوا أمر هذه المذبحة في الوقت المناسب⁽³⁴⁾ .

تلك هي شخصية الرجل الذي استولى على ممتلكات الكونت أوربول ، بنية إعادتها إلى الفرنسيين

(32) ربما كانت الكلمة الاسبانية «mulato» والكلمة الفرنسية «mulâtre» مشتقة من الكلمة العربية.

(33) انظر ابن القوطية، المصدر المذكور، ورقة 28 و36 ظهر.

(34) نقل هذه الحادثة عن ابن القوطية، المصدر المذكور، ورقة 19 والنويري، المصدر

والآن نريد أن نتحدث عما حققته البحرية الاسلامية في اسبانيا والمغرب في هذه الفترة ، وعن النتائج الوخيمة التي ترتبت عليه بالنسبة إلى فرنسا .

رأينا كيف أن الأندلس كان يشكل دولة مستقلة عن الولايات الاسلامية ، عقب سقوط الدولة الاموية واستقرار الأمر في يد عبدالرحمن الأول في قرطبة ، وإن بني العباس قاموا بعدة محاولات فاشلة لبسط سلطانهم على هذه البلاد . وبعض هذه المحاولات جرت عن طريق البحر انطلاقاً من الشواطئ الافريقية . وفي هذه الظروف اضطر أمير قرطبة إلى أن يولي الاسطول البحري عناية خاصة .

ومنذ سنة 773 م (157 هـ) . أنشأ عبدالرحمن الأول دوراً للصناعة (أحواضاً لبناء السفن) في موانئ « طرْقونه » (Tarragone) و « طرطوشة » (Tortose) و « قرطجنة » الاندلس (Carthagéne) و « إشبيلية » (Séville) و « المرية » (Almerie) الخ . . وقبل هذا التاريخ كانت جزر البليار و « سردانية » (Sardaigne) و جزيرة « كورسيكا » (la Corse) عرضة لهجمات سفن القراصنة . ولما تركت هذه الجزر لتتولى الدفاع عن نفسها بنفسها ، وضعت نفسها تحت حماية شرلمان⁽³⁵⁾ .

ومنذ ذلك الوقت كان المسلمون في اسبانيا يشنون حرباً بحرية تضمن لهم غنائم وفيرة ، فضلاً عن أنهم يواصلون الحرب البرية التي يخوضون غمارها ضد ملك فرنسا منذ وقت طويل . وهذه الحرب (البحرية) لم تكن

= المذكور، ورقة 98، وكذلك عن رودريك، المصدر المذكور، ص 20. وأما كونديه فيروي هذه الحادثة في صيغة مختلفة نوعاً ما.

(35) أحرز سكان جزر البليار من المسيحيين في سنة 799م على بعض الانتصارات على المسلمين وغنموا رايات قدموها رمزا لولائهم إلى ملك فرنسا. انظر المصدر المذكور:

Recueil de Dom Bouquet, T.V, p.51.

تعترف لأي شيء بالقداسة . فكل شخص يستطيع حمل السلاح يؤسر ، والنساء والأطفال يوضعون في قيد العبودية ، ولم يكن المسلمون يقون إلا على الشيوخ والمعطوبين الذين لا يستطيعون المقاومة ولا يفيدون في شيء .

وفي سنة 806 م . عمل العرب في النهب والحرق في جزيرة كورسيكة ، وقد وجه بيبين الذي عهد اليه أبوه ، شلمان ، بحكم ايطاليا ، إليها اسطولاً لطردهم منها ، ولكن العرب انسحبوا منها قبل وصول الاسطول المسيحي . وقد اعترض طريقهم « أدمار » كونت جنوة ، فهاجمهم ووقعت بين الطرفين معركة انتهت بهزيمته وقلته . وقد أسر العرب في هذه المعركة ، ضمن من أسروا ، ستين قسيساً ، باعوهم في أسواق النخاسين في الاندلس . وبعض هؤلاء القساوسة تولّى الامبراطور شراءهم في وقت لاحق⁽³⁶⁾ .

وفي سنة 808 م . (193 هـ) . هجم قراصنة اندلسيون على جزيرة سردانية ، ولما صدهم سكانها عنها حولوا غضبهم إلى كوسيككة ، ولكن القائد « بورشار » (Burchard) هجم عليهم وفاجأهم ، ففقدوا ستة عشر مركباً من مراكبهم ، وانهزموا . وقد اعتبر المسيحيون هذا النجاح بمثابة عقاب من الله انزله على المسلمين الذين ارتكبوا كثيراً من أعمال القسوة⁽³⁷⁾ .

ومع ذلك ، فإن مسلمي شمال افريقية قاموا بغارة بحرية في السنة التالية على جزيرة سردانية . وفي نفس الوقت ، قام مسلمو الاندلس بغارة على جزيرة كورسيكة وفاجئوا أهلها يوم عيد الفصح ، فعاثوا فيها فساداً وغنموا وأسروا كثيراً⁽³⁸⁾ . وفي سنة 813 م قاموا بغارة أخرى على كورسيكة . وبينما

(36) نفس المصدر 25/5 و56.

(37) راجع المصدر المذكور: Recueil des historiens de France, T.V, p.56.

(38) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T.V, p.60 et 61. وانظر كذلك صفحة 335. وإذا صدقت شهادة السكان، فإن العرب قد استقروا على السواحل الشرقية =

كانوا يتراجعون عنها نصب لهم الكونت « أمبورياس » (Amporias) كميناً غير بعيد من مدينة بيرينيان الحالية ، فاستولى على ثمانية من مراكبهم التي كانت تحتوي على خمسمائة أسير .

ولكي ينتقموا لما نالهم في هذه المعركة اجتاح المسلمون شواطئ « نيس » (Nice) وولاية بروفانس وسواحل « كونتوسيل » (Contocelle) التي تسمى حالياً « سفينة فكشيا » (Civira - Vecchia) في جوار روما⁽³⁹⁾

ومضاعفة هذه الغارات يدل على أن محاربين جدد أنزلوا إلى المعركة ، وأنه إذا لم يتخذ الامبراطور اجراءات استثنائية فسوف تنهار الامبراطورية التي أقام دعائمها بكثير من الجهد والمشقة .

رأينا كيف أن افريقيا الشمالية كانت تعترف بسُلطان بني العباس ، على الأقل ، اسماً ، وإن فرنسا كانت ترتبط بعلاقات ودية مع الخلفاء العباسيين . وطالما كان هارون الرشيد على قيد الحياة ، كان الأمراء الاغالبية يحترمون شواطئ الامبراطورية . ولكنه لم تكد تغمض عينيه (سنة 809 م - 193 هـ) . حتى نشبت حرب بين ابنه حول ولاية الخلافة . وفي هذه الظروف تحرر الأمير الاغلبى من كل اعتبار . فأصبحت موانئ تونس وسوسة اوكارا للقرصنة . ولما اشتكى عامل صقلية إلى رسول قادم من عند الأمير الاغلبى من عبث القرصنة في سواحل الجزيرة ، أجابه الرسول قائلاً : « منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيداً يريدون أن يصبحوا أحراراً ، والذين كانوا أحراراً ولكنهم فقراء يريدون أن يصبحوا أثرياء » .

للجزيرة، في موقع المدينة القديمة « اليريا » (Aléria) وأن الفرنسيين وجدوا صعوبة كبيرة في إخراجهم منها على الرغم من مساعدة الأهالي . انظر :

Jacobi, histoire de la Corre. Paris, 1835, T.I, P. 110 et suiv.

Dom Bouquet, T.V, p.62.

(39) راجع المصدر المذكور:

وأما القراصنة فقد راحوا يبحثون عن الثروة حيث توجد فعلاً .
والتجارة التي استمرت بين فرنسا وإيطاليا من جهة ، ومصر وسوريا وآسيا
الوسطى من جهة أخرى كانت مجالاً خصباً للقراصنة الأفريقيين⁽⁴⁰⁾ .

وقد انضم إلى القراصنة الأفريقيين القراصنة النورمانديون . كانت
« جوتلاند » (Jutland) وسواحل بحر البلطيق في تلك الآونة لا تزال مسرحاً
لممارسة الطقوس الوثنية ويعيش فيها شعب فقير متمرس بالحرب . ولما كانت
الوسيلة المضمونة في هذه البلدان المتوحشة للوصول إلى المجد ، هي إراقة
الدماء والنهب والسلب ، فإن كل رجل مغامر فيها يطمح إلى مصادمة رجال
الجنوب المائعين . وكذلك أخذت مراكبهم الخفيفة تظهر عند شواطئ فرنسا
على المحيط الأطلسي⁽⁴¹⁾ .

كان شيرلمان مدركاً تماماً لما تنطوي عليه القرصنة من أخطار . وكذلك
أمر جميع الكونتات وحكام الولايات في سنة 810 م . بأن يقوم كل واحد منهم
ببناء الأبراج والحصون في بلده عند مصب النهر الذي كان المنفذ الذي يدخل
منه القراصنة إلى البلد . وكذلك حث على بقاء الأساطيل على قدم الاستعداد
في الموانئ البحرية الرئيسية حتى تقوم بمطاردة أساطيل العدو الغازية . وما دام
هذا الملك على قيد الحياة ، كانت هذه الاجراءات كافية لحماية السواحل
الفرنسية⁽⁴²⁾ .

ومع ذلك ، فإن الطرفين سثما في نهاية الأمر من أعمال العدوان المستمرة
والتي تحدث أضراراً كبيرة بكليهما فكان الطرفان يرغبان في عقد هدنة . وهذه

(40) راجع المصدر المذكور: Pagi, Critique des annales, an 813, No.20 et suiv.

(41) راجع: Depping, Histoire des expéditions maritimes des Normands, Paris, 1826, 2vol., et August le prevost, Notes pour servir à l'histoire de la

Normandie, Coen, 1834.

(42) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T.V, p.96, T.VI, p.91.

هي المرة الأولى التي يتحدث فيها المؤرخون عن مفاوضات بين ملكي فرنسا وخليفة قرطبة . والواقع أن روح الاسلام لا تسمح بقيام سلمٍ دائمٍ بين المسلمين والمسيحيين على حدود البلدان الاسلامية ، فقد جاء في القرآن : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (سورة 8 - الآية 39) . وترك المسلمين للمسيحيين ولغيرهم من اتباع الديانات الأخرى غير الاسلام الحرية لممارسة عقائدهم الدينية إنما يقوم على التسامح وسعة الصدر ، وكلمة « الصلح التي يستعملها المسلمون إنما تعني الهدنة⁽⁴³⁾ .

عقدت الهدنة الأولى بين الطرفين في سنة 810 م . ولما نقضت عقدت هدنة أخرى بعد ذلك بستين . فإن مبعوثاً عربياً ، ربما كان هو يحيى بن الحكم⁽⁴⁴⁾ . الذي ينوه الكتاب العرب بذكائه وفطنته ، وصل إلى ألكس

(43) راجع : Moradgeo d'Hsson, Tableau de l'empire ottoman, T.V, p.66; Roland, D'issertation miscellanœ, T. III, p.50 et nos Extraits des historiens arabes relatifs aux guerres des Croisades, Paris, 1829, p.164 et 542.

(44) يقصد المؤلف هنا، بدون شك، يحيى بن حكم البكري الجبائي، الملقب بالغزال (بتخفيف الزاي) شاعر وصفه الحميدي بأنه «مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند أمراء بلده» ونقل صاحب نفع الطيب عن ابن حيان وصفه له بأنه كان « حكيم الإندلس، وشاعرها وعرافها»، وقد عاش تحت خمسة من أمراء الأندلس، من عبدالرحمن الداخل، حتى عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم وعمر 90 تسعين سنة. ولما وقعت الاتصالات الأولى بين عبدالرحمن الداخل وإمبراطور القسطنطينية، وقع اختيار أمير قرطبة على يحيى ليقوم بسفارة إليه. وقد كان من كبار رجال دولته. انظر تفاصيل اخباره في جذوة المقتبس (طبع بيروت) ترجمة 888، ص 374-375، نفع الطيب، 346/2-347 بغية الملتبس ترجمة ١٤٦٧، والمغرب لابن سعيد، 57/2 والمطرب لابن دحية، ص 125-141 (وفيه تفاصيل وافية) وتاريخ الأدب الاندلسي لاحسان عباس، ص 111.

وكذلك Allen (W), the Poet and the Spac Wife, London, 1960.

لأشابييل واستقبله الامبراطور . وقد توصل الطرفان إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات ، ولكن حظها لم يكن أحسن من حظ الهدنة السابقة ، حيث أن العرب شنوا غزوة في سنة 813 م . على جزيرة كورسيكة ، في الوقت نفسه الذي انتجه فيه عبدالرحمن بن الحكم⁽⁴⁵⁾ إلى جبال البرينيز لينشر الخراب والدمار ، وقد توغل المسلمون في هذه الغزوة حتى وصلوا إلى حدود فرنسا ، وربما كان القديس « افنتين » (Aventin) أحد الذين قتلوهم في هذه الغزوة ، وذلك في مقاطعة « هوت - جaron » (Haute - Garonne) الحالية⁽⁴⁶⁾ .

لم تحدث وفاة شرلمان في سنة 814 م سوى تغييرات طفيفة بالنسبة إلى علاقات فرنسا بالمسلمين .

ولما خلفه على العرش « لويس - لو - ديونير » (Louis - le - Debonnaire) الذي كان يسير دفة الحكم تحت إشرافه مدة طويلة ، انتهج سياسة أبيه . ولكنه من سوء حظه أنه بينما كانت الحرب شبه مستمرة على ضفاف ابره ، كان القراصنة المسلمون يقومون بغارات متوالية على الشواطئ الفرنسية . وقد وقعت حادثة في هذه الفترة في اسبانيا ساهمت مساهمة كبيرة في إعطاء أبعاد جديدة للقراصنة .

رأينا كيف أن الحكم (بن هشام) قد أحاط نفسه بحرس دائم ، مما حتم عليه نفقات جديدة وحمله على فرض ضرائب إضافية . وقد كان الحكم مكروهاً من الرعية بسبب قسوته وتقلب مزاجه . ولما قامت ثورة من الربض

(45) أنظر أسفله

(46) راجع : Notice del'église de saint- Aventin par le conte de castellane, dans les : (46) mémoires de la société archeologique du midi de la France, toulouse I.I.

المجاور لقصره سارع الى قمعها على رأس حرسه . وقد استغرقت العملية عدة أيام وسالت الدماء فيها أنهاراً .

ولما تم له قمع الثورة أمر الحكم بهدم جميع منازل الربض ، كما نفى الأشخاص الذين نجوا من المذبحة . وقد اتجه جزء منهم يبلغ عدده خمسة عشر ألفاً الى الاسكندرية . وبعد ذلك قبلوا مبلغاً من المال قدمه إليهم حاكم المدينة فرحلوا عنها مع جماعة من المغامرين الذين ينتمون إلى مختلف البلدان إلى جزيرة كريت (اكريطش)⁽⁴⁷⁾ التي كانت تابعة لليونان في تلك الأزمنة⁽⁴⁸⁾ .

عشاً حاول السكان المقاومة ، فقد انهارت كل جهودهم أمام عنف الهجوم . وأما المهاجرون فقد استقروا في جزيرة كريت .

وفي فترة لاحقة استولى مسلمو اسبانيا على جزر البليار كما سيطر مسلمو

(47) بدأت هذه الواقعة التي يصفها ابن الأثير بـ « الشنعاء » يوم الأربعاء 13 رمضان سنة 202 هـ . وقد قتل الحكم من أهل الربض مقتلة عظيمة وأسر خلقاً جماً صلب منهم نحو ثلاثمائة . . . ولم ير فيما سلف أكثر منهم عدداً ولا أهول منظراً ، وقمادى القتل والنهب لئلازهم والتتبع لمستخفيهم ثلاثة أيام . انظر تفاصيل أخرى في الحلة السيرة ، 44/1 - 45 . وأما الهاربون والمنفيون ممن نجوا من هذه المذبحة ، فقد لحق بعضهم ببطليلة التي كانت على عصيان والتجأ آخرون بسواحل البربر ، بينما سارت طائفة منهم تتكون من 15 ألفاً إلى الاسكندرية . ولكن أهل الاسكندرية حاولوا إذلالهم ، فأبوا الضيم وثاروا عليهم فغلبوهم واعملوا فيهم السيف وقتلوا كثيراً منهم وملكو الاسكندرية مدة قصيرة حتى ورد عبدالله بن طاهر أميراً على مصر من قبل المأمون ، فصالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم في النزول حيث شاءوا من جزر البحر الابيض فاخترأوا جزيرة اكريطش (كريت) . قارن نفع الطيب ، 1339/1 والبيان ، 106/2 ، والعبر ، 126/4 .

(48) قارن المصدر المذكور ، Conde, Historia, T.I., p.253, Quatremere. Mémoire historique sur l'Egypte, T. II, p.197, et le beau, Histoire du Bas-Empire, liv. LXVIII- 43.

شمال افريقيا على صقلية ، بحيث أصبح البحر الأبيض كله مرتعاً لاساطيلهم وقاعدة لانطلاق غاراتهم .

وفي سنة 816 م . وصلت بعثة عربية إلى الامبراطور الذي كان يقيم في « كومبيين » (Compiègne) موفدة من قبل عبدالرحمن بن الحكم الذي كان أبوه قد سلم إليه مقاليد الحكم ، ومن هناك اتجهت الى ايكس لاشابيل حيث سيعقد البرلمان اجتماعاً⁽⁴⁹⁾ . على أن الهدنة التي توجت هذه الاتصالات لم يحترمها كلا الطرفين .

وفي سنة 820 م . ، خرج اسطول اسلامي من طرْقونة وقام بغارة على جزيرة سردانية . ولما خرج الاسطول المسيحي لمواجهته أصيب بهزيمة منكرة ، وقد أغرقت ثلاث سفن مسيحية كما اشعلت النار في عدد آخر وأحرقت⁽⁵⁰⁾ .

وفي السنة نفسها (206 هـ .) . مات الحكم بن هشام ، وخلفه على العرش ابنه ، عبدالرحمن الثاني⁽⁵¹⁾ . وبسبب قسوته أطلق على الحكم رعاياه لقب « أبو العاصي »⁽⁵²⁾ . وهذا اللقب هو الذي حرفته التواريخ الفرنسية

(49) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T. VI, p.98 et suiv.

(50) نفس المصدر، 180/6، وكذلك المصدر المذكور:

Conde, Historia, T.I, p.255.

(51) عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن، أبو المطرف (176 - 238 هـ). ولد في طليطلة أثناء ولاية أبيه على هذه لمدينة وبويع بالامارة عقب وفاة أبيه في قرطبة. وقد اشتهر بسيرة على سنن الخلفاء في الزينة والشكل كما اشتهر بأعماله العمرانية التي من بينها جلب الماء إلى قرطبة وبناء عدد من القصور والمساجد، وقد ضرب السكة باسمه في قرطبة ونظم الجيش واستكثر الأسلحة. وفي أيامه عرفت الأندلس هدوءاً ورخاء نادراً. له غزوات كثيرة. انظر سيرته في البيان، 80/2 وما يليها، نفح الطيب، 344/1 وما يليها، العبر 127/4، المغرب لابن سعيد، 45/1 - 51، جذوة المقتبس، ص 11، الحلة السيرة، 113/1 - 119، الكامل لابن الاثير، 200 - 202 و408 - 411.

(52) بالعربية في الأصل .

التي تتحدث عن الحكم ، إلى « ابولاز » (Abulaz)⁽⁵³⁾ .

ولدى وفاة الحكم ، سارع عبدالله الذي قام بعدة محاولات من قبل للاستيلاء على العرش ، سارع من افريقية حيث كان ملتجئاً ، وادعى تأييد شرلمان له وقام بثورة على ابن أخيه . وقد استغل الفرنسيون فرصة هذا النزاع وزحفوا على المناطق التي لم تكن تعترف بسلطانهم من كتالونية واراغون واعملوا فيها هدماً وتخريباً وقتلاً . ولكنه في هذا الوقت بالذات ، أخذت الصلات التي تربط مختلف أجزاء الامبراطورية التي أقام شرلمان دعائمها بجهد ومشقة ، ترتخي وتنقسم ، وشهدت مختلف المناطق مغامرين وطموحين يرفعون علم الثورة . وفي سنة 820 م نفسها ، اتهم « بيررا » (Bera) حاكم برشلونة بالخيانة ، أي بمحاولة ربط تفاهم مع العرب الذين كلف بمحاربتهم .

وبعد ذلك بوقت قصير ، قام سكان (نابرة) المسيحيون الذين يشكون من تعسف الحكام الفرنسيين ، فيما يبدو ، بعقد مخالفة مع المسلمين . وعقب ورود هذه الاخبار وجه الامبراطور الى المسيحيين مبعوثين يحملان لقب الكونت ، بقصد إقناعهم بالعدول عن هذه المخالفة ، ولكن سكان جبال البرينيز من المسيحيين هاجموهما وأخذوهما . فأما أحدهما ، وهو الكونت « اسنار » (Asnar) من جاسكون (قرقشونة) فقد احترموه ، وأما الآخر ، واسمه « إيبيل » (Eble) ، وهو فرنسي ، فقد سلموه إلى أمير قرطبة⁽⁵⁴⁾ .

كان لويس بن شرلمان يتحرق لأخذ الثأر من المسلمين لهذه الالهانة . وفي سنة 826 م . بدت الفرصة مواتية . فإن مدينة « مارده » (Merida) كانت دائماً مسرحاً للاضطرابات ومصدر القلق لقرطبة ، وها هي الآن تستعد للثورة من جديد بحجة سوء معاملة حاكمها للسكان⁽⁵⁵⁾ . وكذلك سارع

(53) راجع المصدر المذكور : Recueil de Don Bouquet, T.V,P. 80 et 81.

(54) نفس المصدر ، ص 106 و 185 .

(55) النويري ، المصدر المذكور ، ورقة 161 ظهر .

لويس لاغتنام هذه الفرصة ، فاتصل بالسكان . وفيما يلي رسالته إليهم :

« باسم الله وباسم منقذنا ، المسيح ، نحن لويس بعناية الله ، امبراطور ، إلى القساوسة وإلى شعب ماردة ، تحية باسم سيدنا المسيح . بلغتنا محتتم وما تحملتموه على يد عبدالرحمن الذي لم ينفك عن اضطهادكم وعن الطمع في ثرواتكم ، إنه يصنع مثل ما كان يصنعه معكم أبوه « أبو العاصي » الذي كان يريد أن يضطركم إلى دفع مبالغ غير مستحقة من المال ، والذي جعل من أصدقائه أعداء ومن الطائعين ثواراً . إنه يريد أن يحرمكم من حريتكم ويرهقكم بالضرائب من مختلف الأنواع ويهينكم بجميع الطرق . ولكنكم ، لحسن الحظ قمتم برد الظلم وعدوان ملوككم بشجاعة . لقد قاومتم ببسالة وحشيته وجشعه . وهذا الخبر وصل إلينا من مختلف المصادر . ونتيجة لذلك اعتقدنا أن من الواجب كتابة هذه الرسالة لمواساتكم وأحثكم على مواصلة النضال الذي بدأتموه من أجل الدفاع عن حريتكم . وبالنظر إلى أن هذا الملك المتوحش عدونا بقدر ما هو عدوكم ، فإننا نقترح عليكم التعاون والتنسيق لمحاربة ظلمه ، ونحن نؤي أن نرسل في الصيف القادم ، بعون الله ، جيشاً ليعبر جبال البرينيز ونضعه تحت تصرفكم ، وإذا وجه عبدالرحمن جيشه اليكم وحاول هذا الجيش الزحف عليكم ، فإن جيشنا سيقوم بمناورة كبيرة لصرفه عنكم . ونحن نصرح بأنكم إذا خلعتم طاعته وأعلنتم طاعتنا ، فسوف نرد إليكم حريتكم التي كنتم تتمتعون بها سابقاً دون أن تمس ، وإننا لن نفرض عليكم أقل ضريبة . لكم أن تختاروا القانون الذي تعيشون في ظله ، وسنعتبركم أصدقاء يريدون أن يشاركوا في الدفاع عن امبراطوريتنا . ندعو الله أن يحفظكم في صحة وعافية⁽⁵⁶⁾ .

(56) كان « لوكوانت » (lecointe) هو الذي تولى نشر هذه الرسالة لأول مرة ، تم أعاد نشرها دوم بوكيه في كتابه :

Recueil des historiens de France, T.VI, p.379.

وفي الدورة العامة التي عقدها « الديت » ، أو البرلمان في ايكس لاشايل ، والتي حضرها إلى جانب لويس ابنه بيبين الذي أصبح ملك اكيثانية ، وكونتات مختلف ولايات ثغور الاندلس ، أعلن الامبراطور نيته في أن يقوم بأكبر مجهود لإنزال العقاب بالذين أهانوا أسلحته .

ولكنه قبل أن يرفع البرلمان جلسته ، اختفى أحد أعضائه من نبلاء القوط ، ويدعى « عيزون » (Aizon) وكانت الشكوك تحوم حوله بتهمة التجسس لحساب المسلمين الذين كلفوه بمهمة أثناء هذه الدورة البرلمانية . وبعدما اجتاز جبال البرينيز ، وضع نفسه على رأس الساخطين على الحكم الفرنسي في كتالونية وأراجون فاستولى على مدينة « أسونة » (Ausson) وأحدث أضراراً كبيرة في البلاد التي كان يحتلها الفرنسيون⁽⁵⁷⁾ .

وقبل أن يتحرك الجيش الفرنسي في ربيع سنة 827 م . ، كان عيزون قد استنجد بأمر قرطبة ، ثم سار بنفسه الى هذه العاصمة ليحث الأمير على الاستعجال في إرسال النجدة ، وقد سارع عبدالرحمن بإرسال جيش يضم خيرة جنوده ، وكان من بين تشكيلاته جزء من حرسه الخاص بقيادة ابن عمه ، عبدالله ، فسار هذا الجيش مع عيزون واغذوا السير . ولما كان تقدم الجيش الفرنسي بطيئاً ، فقد وجد الجيش الاسلامي الوقت الكافي ليعيث فساداً في أراضي برشلونة وجيرونده وبعدما اجتاحتها توغل حتى سردانة في أراضي « فال سبير » (Val - Spir) ، أي وراء جبال البيرينيز في الأراضي الفرنسية ، حيث ارتكبوا كثيراً من أعمال القتل والنهب⁽⁵⁸⁾ .

وفي هذه الأثناء كان سكان ماردة يبذلون أقصى جهودهم في مواصلة الثورة على قرطبة . وبعد ثلاث سنوات قضوها في الحرب وفي انتظار النجدة

(57) نفس المصدر 107/6 و 149 و 187 .

(58) نفس المصدر ، 108/6 و 188 .

التي وعدهم بها امبراطور فرنسا ، استسلموا وفتحوا أبواب مدينتهم لجيوش قرطبة .

وفي نفس الفترة ، كان النورمانديون الذين ضاقت بهم بلادهم المتوحشة ، يشنون غارات تتزايد عنفاً وكثرة كل سنة على الشواطئ الألمانية والفرنسية والانجليزية والاسبانية . ومن جهة أخرى ، فإن قراصنة الأندلس والمغرب كانوا يقومون بغارات واسعة النطاق على جنوب فرنسا وإيطاليا

وفي سنة 808 ، قام بونيفاس ، أمير كورسيكة بقيادة حملة بحرية غارت على قرطبة ثم جالت في جميع هذه الشواطئ فامعنت في الحرق والنهب ، وذلك على سبيل الانتقام⁽⁵⁹⁾ . والموانئ الأندلسية والأفريقية التي تنطلق منها مراكب القراصنة تقع في حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يتعرض فيه القراصنة أيضاً للمراكب الفرنسية . وفي هذه الفترة كان الناس يتحدثون عن بارجة اسلامية قيل إنها من الضخامة بحيث تبدو من بعيد وكأنها قلعة محصنة عالية الاسوار . وهذه البارجة هي التي شنت غارة على جزيرة « أوي » (Oye) في بروتانيا ، عند مصب نهر اللوار⁽⁶⁰⁾ .

ويبدو أن هذه السفينة لم تترك أثراً كبيراً من الخراب ، لأن مؤرخي بروتانيا لا يتحدثون عن هذه الغارة⁽⁶¹⁾ .

بلغت حالة الامبراطورية في هذه الفترة حالة مفزعة من التدهور . وأما لويس الذي أعطاه التاريخ لقب « Débonnaire » (أي الطيب القلب إلى حد الضعف) الذي لا يشرف ملكاً ، فإنه لم يكن في وضع يسمح له بالارتقاء إلى مستوى الاحداث المؤلمة التي وضع فيها ضعفه الامبراطورية .

(59) نفس المصدر، 109/6 .

(60) نفس المصدر، 308/6 .

(61) لم ترد إشارة إلى هذه الغارة لا في تاريخ D. Morice ولا في تاريخ Daru .

وبعد ما كان من الرعونة بحيث قسم الامبراطورية إلى ثلاث ممالك وزعها على أبنائه الثلاثة ، أمعن في غيه وأعاد تقسيمها إلى أربع ممالك ليقطع مملكة لابنه الأصغر (الرابع) . وهذا الاجراء الأخير اعتبره أبنائوه الثلاثة الكبار ظلماً وعدواناً فرفعوا السلاح في وجه أبيهم . وبعد حروب انتصر في بعضها وانهمز في البعض الآخر ، انتهى الأمر بخلعهم ثم باعادته إلى العرش . ولكنه الآن فقد كل اعتبار في نظر رعاياه .

وقد تلت هذه الأحداث حالة من الفوضى والمساوىء التي كانت تتزايد مع مرور الأيام بحيث كان الانقياء يرون في هذا الانهيار العام مظهر لغضب الله ونقمته التي أثارها انتشار الفساد في جميع طبقات المجتمع . فقد جاء في رسالة وجهها لويس إلى جميع اساقفة المملكة ما يلي :

« لقد نزلت المجاعة والطاعون وجميع الأوبئة على شعب امبراطوريتنا . فمن الذي يؤكد أن أعمالنا الشريفة قد أثارت غضب الله ونقمته »⁽⁶²⁾ .

وهكذا أمر لويس الامبراطور بالتزام الصوم العام ، كما أمر الاساقفة أن يعقدوا اجتماعات في المدن الكبرى في الامبراطورية التي من بينها طلوزة ، لكي يبحثوا عن وسائل لعلاج هذه الحالة المحزنة .

وهذه الأمراض نفسها لم تنج منها اسبانيا الاسلامية حيث اضطر أمير قرطبة الى قمع عدة ثورات .

على الرغم من كل هذه الاحداث ومن نشاط القرصنة فإن العلاقات التجارية بين مصر وسوريا من جهة ، والامبراطورية الفرنسية لم تنقطع قط . والعلاقات السياسية التي قامت بين هارون الرشيد وشرلمان قد عادت الى مجراها بمجرد ما استقرت الأمور في المشرق . وقد ذكرت التواريخ الفرنسية

Recueil de Dom Bouquet, T.VI, p.344.

(62) راجع المصدر المذكور:

وصول سفارة تتكون من ثلاثة أعضاء الى فرنسا في سنة 831 م .
(216 هـ .) . من قبل الخليفة المأمون بن هارون الرشيد . واثان من أعضاء
البعثة من المسلمين والثالث مسيحي . وقد حملت إلى الامبراطور من بين ما
حملته من الهدايا ، أقمشة الحرير والعطور⁽⁶³⁾ .

وفي هذه الأثناء ، كانت الحرب متواصلة وراء جبال البرينيز . وفي سنة
838 م . ، قام عبيد الله بن عم الأمير عبد الرحمن بغزوة على بروفانس التي
يحتلها الفرنسيون فاجتاحها . وفي نفس الوقت ، غزا الفرنسيون قشتالة
فأفسدوا فيها وسفكوا دماء غزيرة .

وفي نفس الوقت ، سار اسطول للمسلمين وبإسبة Ibiza من طرقونه تلقى
تعزيزات بقطع حربية من جزيرة ميورقة وهاجم مرسيليا وانزلوا في نواحيها
الجنود واستولوا على عدد كبير من الأسرى الذين من بينهم عدد من الرهبان
القادرين على حمل السلاح⁽⁶⁴⁾ . والمظنون أن هذه هي المناسبة التي حصلت
فيها الحادثة المعزوة إلى القديسة « أوزيبيا » (Eusibie) ، رئيسة دير الراهبات
بمرسيليا والأربعين راهبة اللاتي كن يقمن في ذلك الدير . فإن هؤلاء
الراهبات خشين الوقوع في يد الغزاة واشفقن على أعراضهن ، فشوهن
وجوههن بجذع أنوفهن وخدش وجوههن ، وقد أطلق عليهن السكان فيما بعد
لقب « دنزاداس »⁽⁶⁵⁾ .

(63) راجع : Vita Ludovici Pii et annales de Saint.

(64) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T.VI, p.199.

(65) لا يزال يوجد حتى الان نقش في مرسيليا يحمل اسم القديسة « أوزيبيا » ولو أنه لا يحمل
تاريخاً . أنظر :

Millin, Voyage dans les départements du midi de la France, T.III, p.179;

Maubillon, Annales Benidictini, T.II, p.90.

وهذا المؤرخ الأخير يذكر استشهاد هذه القديسة ضمن حوادث سنة 732م .

مات الامبراطور لويس - لو - دو - ديونير في سنة 840 م ، فوقع شقاق كبير بين اولاده عقب ذلك واشتعلت نيران الحروب بينهم . وفي ذلك الوقت كانت أوروبا عرضة لنقمة وعقاب الهي فضيع من النوع الذي قال عنه « بوسوي » (Bousuet) أنه يشعر بقهرة أمما بأسرها ، ويضرب الله به البريء والمذنب بدون تمييز .

اغتنم المسلمون هذه الاحداث والاضطراب العام الذي يسود أوروبا ، فدخلوا الى بروفاس عن طريق مصب نهر الرون واجتاحوا ضواحي آرل⁽⁶⁶⁾ . وفي الوقت نفسه أغار أمير « تطيلة » (Tudéle) في بلاد نافار ، ويسمي موسى على سردانة واكتسح تلك البلاد كلها⁽⁶⁷⁾ .

ومن جهة أخرى ، اشتدت غارات النورماندين البحرية بواسطة مراكبهم الخفيفة وتوغلوا في داخل الأراضي الفرنسية عن طريق مصب نهر « ايسكو » (l'Escaut) و « السين » (le Seine) والوار و « الجارون » (le Garonne) ، وشرعوا يحولون المملكة إلى خرائب . وتاريخ هذه الفترة لا يعدو كونه نسيجاً من مؤامرات الطموحين والخيانات المخزية ، والكوارث من مختلف الأنواع . والمؤرخ يشعر بصعوبات كبيرة لتتبع مجراه وتعرجاته اعتماداً على روايات المعاصرين .

تلقي شارل الأصلع بن لويس عند تقسيم والده للامبراطورية ، فرنسا كلها تقريباً ، ولكنه نتيجة للحروب الداخلية كانت ولايات هذه المملكة تنتقل من يد إلى يد كل سنة ، بل إنهم لم يكونوا يتركون الولاية سليمة بحدوها .

(66) راجع المصدر المذكور Recueil de Dom Bouquet, t.VII, p.61.

(67) راجع نفع الطيب للمقري ، طبعة إحسان عباس ، 345/1 و350 . ويذكر الكاتب أنه كان لموسى (بن موسى) في هذه الغزوة مقام محمود . وتطيلة من مدن الثغر الاعلى ، إلى الشمال من سرقسطة .

وكانما كانت نيتهم القضاء على كل نوع من العلاقات التجارية ، فقد قسمت كل من لانجدوك وبروفانس بين الامبراطور « لوطير » (Lothaire) ، والملك شارل - لو - شوف وبيبين ، الابن الاصغر لبيبين ، ملك اكيثانية سابقاً . وبعد ذلك بقليل ثار أحد النبلاء ، واسمه « فولكراد » (Folcrade) على لوطير ، وأعلن نفسه كونتا على آرل وبروفانس .

وقد بلغ تدهور الاوضاع وانحطاط الاخلاق درجة أن بعض الأمراء والرؤساء اطلقوا العنان لاطماعهم حتى يوسع كل واحد منهم منطقة نفوذه ، بحيث أننا نرى بعض أحفاد شارل مارتل وشرلمان يلجئون الى المسلمين ليعقدوا محالفات معهم ويربطوهم بتزاعاتهم الداخلية .

وايطاليا لم تكن باحسن حظ من فرنسا لأن المسلمين كانوا قد احتلوا جزيرة صقلية . وكان اثنان من امراء البلد يتنازعان على امارة « بينفتي » (Beneventi) قزنايلي ، فاستنجد كل منها بالمسلمين الذين كانوا في صقلية . وأخيراً ، فإن القراصنة الافريقيين والاندلسيين كانوا يتساوون الشواطئ الايطالية باستمرار⁽⁶⁸⁾ .

وفي سنة 846 م . ، صعد القراصنة مجر نهر « تير » (le Tibre) ونهبوا كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولص ، اللتان تقعان عند أبواب روما . وكذلك غزا القراصنة ضفاف نهر جنوة وامعنوا فيها فساداً بحيث اضطر الرهبان انفسهم إلى حمل السلاح لتخليص البلاد من قبضة المسلمين⁽⁶⁹⁾ .

(68) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T.Vii, p.63.

(69) أنظر Recueil des Bollandiste, Vie de Saint Bernulf, au 24 Mars.

هذا وتوجد تفاصيل كثيرة عن غزو المسلمين لمنطقة نيس في الكتاب المخطوط الذي وضعه « جيوفردو » (Giofredo) المعنون « Storia delle Alpi maritime » في أرشيفات مدينة تورين . أنظر كذلك:

l'Histoire de Nice, Par Louis Durante, Turin, 1823, en 3vol.

والأندلس نفسها لم تكن اسعد حالاً من فرنسا وإيطاليا . في تلك الايام .
فقد كانت مختلف الفئات في تطاحن مستمر . هذا من جهة ، ومن جهة
أخرى ، فإن النورماندين الذين لا يجدون الآن الثروات التي كانوا يجنونها في
سواحل فرنسا ، اتجهوا إلى غزو اشبونة واشبيلية وغيرهما من المدن الاسلامية
التي تملك ثروة طائلة .

وكأنما لم يكن ذلك كافياً ، فقد أصيبت البلاد بقحط أفسد جزءاً كبيراً
من المحاصيل وأتلف قطعان الحيوانات ، وزارت البلاد سحائب الجراد الآتية
من الشواطئ الافريقية لتلتهم ما أبقى عليه الجفاف من الزرع والعشب .
ولكن عبدالرحمن عمل في الاندلس ما في وسعه للتخفيف من آلام شعبه .

وفي سنة 848 . ، وبينما كان المسلمون يجتاحون سواحل مارسيليا من
جديد وشواطئ جنوة⁽⁷⁰⁾ ، لم يتردد الملك ببين الأصغر الذي كان في حرب
مع عمه ، شارل الاصلع ، من أجل امتلاك لانجدوك ، والذي كان قد
استعان من قبل بالنورماندين ، لم يتردد في أن يستنجد بالمسلمين ، وأما
الشخصية التي اختارها للقيام بالمفاوضات لهذه الغاية فهو جيوم ، كونت
طلوزة ، وهو حفيد جيوم الذي كان قد اشتهر قبل ذلك بخمس وخمسين سنة
شهرة عارمة بحماسة للدين وللدفاع عن الوطن .

سار جيوم إلى قرطبة واحسن عبدالرحمن استقباله هناك ، وبالمساعدة
العسكرية التي أمده بها أمير قرطبة ، استطاع أن ينتزع من شارل برشلونة ،
عاصمة كتالونية وعدداً من المدن⁽⁷¹⁾ .

قام بعض القراصنة المسلمين بغارة على ضواحي مدينة آرل ، ولكن

Recueil de Dom Bouquet, T.VII, p.66.

(70) راجع المصدر المذكور

(71) نفس المصدر ، 41/7 و 58 و 65

رياحاً معاكسة عاقتهم عن الوصول إليهما . ولما رأهم السكان حملوا السلاح وساروا إليهم فقتلوهم عن آخرهم .

وفي هذه الأثناء ، قاد موسى (بن موسى) أمير سرقسطة جيشاً وتوغل به من جهة « أورجل » (Urgel) و « ريباجور » (Ribagore) حتى دخل فرنسا حيث اعملوا السيف وعاثوا فساداً . وقد بلغ الذعر بالأهالي الى درجة أنهم كانوا يعرضون أموالهم وممتلكاتهم على العرب من تلقاء أنفسهم ، في مقابل الابقاء على حياتهم . وكذلك اضطر شارل الاصلع الى طلب الصلح ، من المسلمين ، ولم يحصل عليه إلا بعد ما دفع هدايا باهظة التكاليف⁽⁷²⁾ .

وفي هذه السنة (850 م .) . تعرض المسيحيون في الاندلس للاضطهاد عقب سخط الأمير عبدالرحمن على مستخدميه ، وقد بلغت اصداء هذه الحوادث حتى فرنسا⁽⁷³⁾ . وأما سبب هذا الاضطهاد فيمكن تلخيصه فيما يلي :

تنص الشريعة الاسلامية على حرية الضمير للمسيحيين الذين يسمح لهم بممارسة عقائدهم الدينية ، وكل ما عليهم هو دفع الجزية . ولكن الشريعة الاسلامية تعرف المسيحي بأنه هو الشخص المولود من أبوين مسيحيين ، ولكنه متى كان أحد الأبوين مسلماً اعتبر الطفل مسلماً حتماً⁽⁷⁴⁾ . وهذا يصدق أيضاً على الطفل غير البالغ المولود من مسيحي أو من مسيحية ، متى أسلم الأب أو الأم . وإذا بلغ هذا الطفل سن الرشد ورفض الانتهاء إلى الاسلام ، يمكن

(72) كان موسى بن موسى أميراً على تطيلة، كما سبق، وليس على سرقسطة. وفي رواية نفح الطيب أن الذي قام بهذه الغزوة هو عبدالكريم، حاجب عبدالرحمن. أنظر النفح، 346/1.

(73) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T.VII, p.42, 64, 66.

(74) راجع المصدر المذكور، T.II, Moradges d'ohsson, Tableau de l'empire ottoman, p.313 et T.V, p.167.

للقاضي أن يرغمه على ذلك⁽⁷⁵⁾ . ومن ناحية أخرى ، لكي تثبت صفة المسيحية حقاً يجب أن لا يكون المسيحي قد اعتنق الاسلام ثم ارتد . وحتى لو نطق بالشهادتين : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » على سبيل اللعب أو في حالة السكر ، فهو يعتبر مسلماً ، ولا يحق له اتباع دين آخر . والمسيحي لا يجوز له أن يتزوج امرأة مسلمة . وأخيراً ، يجب على المسيحي أن يمتنع عن القذف في الرسول ، أو في دين الاسلام . ومتى صدر عنه شيء من ذلك لم يعد له الخيار إلا في اعتناق الاسلام أو الموت .

ونحن سبق أن أشرنا إلى أن المصاهرة بين المسلمين والمسيحيين كانت أمراً شائعاً في الاندلس . وقد كان كثيراً ما يحدث أن تلقن الأم المسيحية ابنها ، وخصوصاً بنتها ، مبادئ العقيدة المسيحية ، وهو كثيراً ما نجمت عنه حوادث دامية .

كان يوجد في قرطبة راهب متضلع في العلوم المسيحية والعربية معاً ، وقد شاع في قرطبة أن هذا الراهب قد تلفظ بالشهادتين في حالة غفلة . وذات يوم قابله بعض المسلمين في أحد شوارع قرطبة فسألوه عن رأيه في محمد ﷺ وفي دين الاسلام الذي جاء به .

رفض الراهب الاجابة في مبدأ الأمر خشية أن ينطوي السؤال على فح ، ولكنه لما رأى أولئك الأشخاص يكثران اللاحاح على سؤاھم ، عبّر لهم عن رأيه صراحة ووصف النبي بأنه مزيف . لم يحبه المسلمون بشيء في المرحلة الأولى ، ولكنهم بعد ذلك ببضعة أيام قابلوه أمام جمع غفير من الناس ونددوا بأقواله وقذفه الرسول . وعلى الفور أمسك الناس بتلابيه واقتادوه أمام القاضي . استجوبه القاضي وأصرّ الراهب على أقواله ، فاصدر عليه حكماً بالموت .

(75) نفس المصدر، 111/6 وما يليها.

كان ذلك في شهر رمضان وقد رأى القاضي أن يتم تنفيذ الحكم بعد نهاية شهر الصيام . ولما حان وقت تنفيذ الحكم أخذ الراهب إلى مكان على ضفاف الوادي الكبير وقطعت رأسه أمام جمع غفير من الناس .

أثار هذا الحادث كثيراً من اللغط بين المسيحيين الذين كان عددهم كبيراً حينئذ في اسبانيا ، بل وفي قرطبة نفسها . فقد كان لدى المسيحيين عدد كبير من الكنائس كما ترك لهم المسلمون عدداً من الأديرة لكلا الجنسين ، ولا سيما في الجبال التي تقع في شمال المدينة . بل إن الدين المسيحي قد توغل في القصر الملكي نفسه بوجود عدد كبير من الأسرى والعبيد الذين ينتمون إلى مختلف البلاد والذين يقومون بشغل عدد من الوظائف في البلاط .

وكذلك وقعت حوادث أخرى وأعدم بعض المرتدين الذين رفضوا التخلي عن المسيحية . وعلى عكس ما كان ينتظره الحكام من نتائج هذا القمع ، فقد زاد عدد المتهاوتين على قذف الرسول ﷺ لكي يقتلوا وينالوا الشهادة . وقد قتل بهذه الصورة اناس كثيرون من بينهم شخص فرنسي اسمه صانشو كان مستخدماً في القصر واثان من الخصيان كانا يعملان في القصر أيضاً . وكان اكثر المتهاوتين على القذف لنيل الشهادة النساء المتحمسات للمسيحية .

وقد كان من نتائج هذه الحركة أن ساورت كثيراً من المسلمين مخاوف من جراء إراقة الدماء بهذه الصورة . وأخيراً عقد اساقفة المسيحيين مجمعا قرروا فيه ، على الرغم من معارضة بعض المتحمسين من القساوسة ، إنه مما يخالف روح الانجيل القيام بالاستفزاز لنيل الشهادة . ثم إن الملك شارل الأصغر تدخل في الموضوع بناء على طلب المسيحيين في الولايات الشمالية في اسبانيا الذين أصابهم ما أصاب المسيحيين في قرطبة⁽⁷⁶⁾ .

(76) راجع : Vie des Saints aux 3, 5, 7 et 13 juin, 27 Juillet, 16 septembre, 21 au 22 octobre, 24 novembre etc.

ولما تفاقم الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثاني الذي أدهشه ضخامة عدد المسيحيين المقيمين في مملكته ، وطرد من قصره جميع المستخدمين للمسيحيين .

وفي غضون هذه الأحداث مات عبد الرحمن الثاني في سنة 858 م (38 هـ) . وخلفه في الحكم ابنه محمد⁽⁷⁷⁾ .

كان عبد الرحمن الثاني مولعا بالأدب والفنون وبحياة اللهو والترف ، وفي عهده أصبحت قرطبة مقصداً للأدباء والموسيقيين والمغنيين الذين كان يسبغ عليهم رعايته . وعلى غرار والده وجده ، كان يمنح حظوة خاصة من شعره للشعراء ، وقد كان هو نفسه يقرظ الشعر فيما يلي نموذج من شعره :⁽⁷⁸⁾ .

عداني عنك مَزَارُ العِدَا وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ سَهَاماً مصيباً

(77) محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، ابو عبدالله (202 - 273 هـ). كان أميراً عاقلاً محسناً حسن السلوك في الرعية، وقد وسع علاقات قرطبة الخارجية في اتجاه العدو، فأقام روابط مع بني مدرار أمراء سجلماسة وبني رستم أئمة تيهرت الذين كانوا يلجؤون إليه لطلب المشورة. قام بغزوات كثيرة في بلاد الافرنج، ومن أعظم غزواته، تلك التي قام بها لجليقية وبنبلونه، وقد انتصر في كلتا المعركتين انتصاراً باهراً. وفي عهده خربت ماردة وهدمت من أساسها. وقد قال عنه ابن الأبار أنه « كان يأمن الخلفاء بالاندلس ملكاً، وأسراهم نفساً، وأكرمهم تبناً وأناة ». أنظر أخباره في المغرب 51/1 - 53، جذوة المقتبس، ص 11، البيان 93/2 - 113، العبر 130/4 الوافي بالوفيات، النفح، 350/1 - 353، الكامل لابن الأثير، 70/7 - 74، الحلة السراء، 19/1 - 20.

(78) ترجم المؤلف هذه الأبيات إلى الفرنسية بالشعر الحر، وتبدأ المقطوعة هكذا:
Pendant que je suis loin de toi, je me trouve en face de l'ennemi, et je lui
envoie des flèche qui ne manquent jamais leur but.

ونحن ننقل نصها العربي كما أورده المقرئ في النفح، 249/1. والأبيات قيلت في الجارية طروب التي كان عبد الرحمن كلفاً بها والتي قيل أنه أعطاها حلياً قيمتها مائة ألف دينار لاسترضائها حين تجنبت عليه ذات مرة.

فَكَمْ قَدْ تَخْطِيتُ مِنْ سَبَبٍ وَلَا قِيتُ بَعْدَ دُرُوبِ دُرُوبَا
أَلَا قِي بُوْجْهِي سَمُومَ الْهَجِيرِ إِذْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبَا
تَدَارِكُ بِي اللَّهُ دِينَ الْهَدَى فَأَخْيَيْتُهُ وَأَمْتُ الصَّلِيبَا
وَسَرْتُ إِلَى الشَّرْكِ فِي حَجَفَلٍ مَلَأْتُ الْحَزُونَ بِهِ وَالشُّهُوبَا

كان محمد بن عبد الرحمن في أول الأمر متشددا في معاملة المسيحيين حتى أنه فكر في اخراجهم من مملكته ، ولكنه عدل عن ذلك ، وعمد إلى هدم جميع الكنائس التي شيدها المسيحيون بعد فتح الأندلس ، بل إنه أمر حتى بهدم الأجزاء التي اضيفت إلى الكنائس .

على أن توالي الثورات كان عاملا في كبح جماح غضبه على المسيحيين ، وقد كانت الحرب لا تزال مشتعلة في كتالونية ، وعلى ضفاف وادي ابرّة . وكان موسى (بن موسى) الذي انتصر على المسيحيين في بعض الوقائع قد انهزم في آخر الأمر أمام ملك اشثورية ، فعزله الأمير محمد من إمارته ، فاستشاط غضبا وانحاز إلى المسيحيين ، وزوج ابنته غريسية ، ملك نانبرة . وفي هذه الاثناء ، ثارت مدينة طليطلة من جديد ، في وقت كان فيه أمير قرطبة عاجزاً عن القيام بأي شيء لمواجهة هذه الثورة .

وحيثما التفتنا ، فإننا لا نرى سوى حروب ونهب وكوارث . وفي سنة 859 م ؛ اجتاز النورمانديون جبل طارق واستولوا على مدينة اربونة ، التي كانت منذ قرن قد قاومت ببطولة محاولات الفرنسيين للاستيلاء عليها . وبعد ذلك اتجه النورمانديون إلى نهر الرون ، ثم زحفوا إلى بلنسية (Valence) حيث عاثوا فسادا واعملوا السيف في السكان⁽⁷⁹⁾ ، ولكن « جيرار دو رونسيون » (Gérard de Ronssillon) الذي يتردد اسمه كثيراً في روايات

(79) راجع المصدر المذكور: Recueil des historiens de France, T.VII, p.75.

الفروسية ، دفع بهم إلى عرض البحر . وفي الفترة نفسها ، شن المسلمون غارات جديدة على جزيرتي سردانية وكورسيكا .

وفما يلي لوحة لوضع فرنسا كما وردت في وثيقة معاصرة للأحداث :

« لقد خربت جميع الكنائس والأديرة ونهبت جميع المدن الواقعة على السواحل . وقد كان الغزاة من القسوة بحيث أن المسيحيين الذين يقعون في أيديهم يقتلون أو يفتندون أنفسهم بالمال . وكذلك تخلى كثير من المسيحيين عن املاكهم والتجأوا إلى الأماكن المحصنة أو انتقلوا إلى داخل البلد طلباً للأمن ، على أن العديد منهم فضلوا الموت على التخلي عن أملاكهم . ولكنه كان يوجد بينهم أيضاً قوم لم تكن جذور الايمان في نفوسهم عميقة ، فانضموا إلى الغزاة . وهؤلاء أسوأ أثراً على البلد من الغزاة انفسهم لأنهم يعرفون مداخل البلد واحوال أهلها وليس في الامكان التهرب من تفتيشهم . وفي النهاية ، تحولت أشهر البقاع واكثرها عمراناً إلى صحراء قاحلة واختفت أعظم الآثار المعمارية تحت العليق والعوسج ⁽⁸⁰⁾ .

وبينما كانت فرنسا على هذه الحال ، اجتاحت الأندلس ثورة رجل من أصل مسيحي اسمه عمر بن حفصون ⁽⁸¹⁾ الذي توغل جيشه الذي يتكون من الأفاقيين والمغامرين في جبال البرينيز واتحدت مصالحهم بمصالح سكان تلك

(80) راجع المصدر المذكور: T.I, Dom Vaissette, Histoire générale de lanquedoc, p.108.

(81) عمر بن حفصون (ت 305) الذي يرتقي نسبه إلى اذفونش . كان أول من فتح باب الشقاق واسعا في الأندلس بحيث ينعته بعض المؤرخين باللعين . وكانت ثورته سنة 270 هـ . ، في عهد محمد بن عبدالرحمن ، وقد اعتصم بـجبال بويشتر من اعمال ربه ، على مسافة 30 فرسخاً من قرطبة ، فدانت له الحصون وجمع جيشاً قدره ابن خلدون بـ 30 ألف مقاتل . نشأ عمر مسلماً ثم ارتد فاعتبر قتله جهاداً . انظر أخباره في العبر ، 134/4 ، جذوة المقتبس ، ص 282 ، البيان 105/2 - 171 ، بغية الملتبس ص 393 ، والحلة السراء ، 149 - 152 ، المقتبس لابن حيان ، ص 9 وما يليها .

المناطق المسيحية ، فاستولى على عدد من الحصون التي راح يتحدث منها سلطان أمراء قرطبة⁽⁸²⁾ . ولما اشتد التهديد على الأمير محمد بن عبد الرحمن سعى إلى مصالحة شارل الأصلع الذي لم يكن في وضع يسمح له ، على أية حال بمحاربته ، وذلك ليتفرغ لمقاتلة ابن حفصون . ويقضي الاتفاق بين الطرفين ببقاء كتالونية تحت سيادة فرنسا ، بشرط أن تلتزم بعدم مساعدة الثوار .

كان ذلك في سنة 866 م (252 هـ .) . وبعد انتهاء المفاوضات والوصول إلى اتفاق ، عاد مبعوثو شارل الأصلع مثقلين بهدايا ثمينة ومعهم أبل محملة بأنواع الأقمشة والعطور⁽⁸³⁾ .

كانت الأندلس في حالة فظيعة تعاني من القحط والمجاعة والأوبئة ، وأيضاً من الزلزال ، والحروب والثورات ، وكان كل شيء يدل على أن هذا البلد على وشك الهلاك والخراب . ولما وقع كسوف احيطت بسببه البلاد بظلمات قائمة ، اعتقد المسلمون أن ذلك نذير بنهاية الأندلس ، ولما اعتقد الكثيرون منهم أن ما أصاب البلاد نتيجة لغضب الله ونقمته ، فقد سعوا إلى كسب رضاه ونذروا انفسهم للجهاد ضد المسيحيين ، ولكنه بالنظر إلى أن عدداً من الولايات كانت في حالة غليان وعلى وشك الثورة فإن أمير قرطبة لم يكن في وسعه أن يضيف المسيحيين إلى قائمة أعدائه الكثيرين .

وفي سنة 869 م ؛ قام المسلمون بغارة على بروفانس ونزلوا في منطقة « كامران » (Camargne) ، وهي جزيرة يحيط بها نهر الرون ويحتوي على مرافئ . وقد صادف نزول المسلمين وجود رئيس الاساقفة فيها حيث يملك هناك ضياعاً كثيرة . وبسبب عدم وجود الحجر ، بنى رجل منزلاً له بالطوب . وكان هذا المنزل أول ما صادف العرب لدى نزولهم ، وقد هجموا عليه ، وقبضوا

(82) راجع: Casiri, Bibliothèque de l'Escurial, T.II, p.200.

(83) راجع المصدر المذكور: Recueil de Dom Bouquet, T.VII, p.83, 88 et 92.

على رئيس الاساقفة وقتلوا اكثر من ثلاثمائة من خدمه ، وهكذا اخذوا رئيس الاساقفة في مراكبهم أسيرا ، وحددوا لفديته مبلغ 150 جنيه نقداً ، و 150 معطفا و 150 سيفاً و 150 عبداً . والعبيد ، كما سنرى ، كانوا في ذلك الوقت بضاعة يجري تبادلها في الأسواق .

وفي هذه الأثناء مات رئيس الاساقفة - بالرعب ، من غير شك - ولكن المسلمين كتموا خبر موته حتى لا تفوتهم فديته . ولما تسلموا الفدية وكل ما اشترطوه ، اخرجوا جثته والقوا بها في البرّ ، وهو يلبس نفس الثياب التي كان يرتديها حينما اخذ اسيرا . وهكذا ، فإن المسيحيين الذين جاءوا لتهنئة رئيس الاساقفة بخلاصة من الأسر ، أصبح همهم الآن هو تنظيم تشييع جنازته .

كان شارل الأصلع يعتزم السير لمحاربة المسلمين في ايطاليا ، حينما عاجلته الوفاة في سنة 876 م . وقد كان المسلمون الذين فرضوا سيادتهم على جنوب ايطاليا يشكلون تهديدا خطيرا للبابا في روما . والبابا كان رجلاً تنقصه المقدرة والشجاعة ، ولو أنه كان دائما على استعداد لمديده إلى الدول الأخرى ، وقد كان هذا من الأسباب الرئيسية للانحلال والتفكك الاجتماعي الذي أصاب ايطاليا وفرنسا والبلدان المجاورة .

كانت الشعوب في حالة من القنوط ولا تعزف إلى من تمد يدها لطلب العون والمساعدة . فالنورمانديون والمسلمون قد اخذوا العهد على انفسهم بأن لا يتركوا شيئا ذا قيمة في البلد ، والأمراء يواصلون حروبهم وكأنهم يتنازعون على ولايات ذات ثروات طائلة . وهكذا كان يبدو أن حالة فرنسا وايطاليا واسبانيا الشمالية قد بلغت الدرجة القصوى من الانهيار والانحطاط⁽⁸⁴⁾ ولكن القدر ، مع ذلك ، كان يخفي في طياته ألما وبؤسا لهذه الشعوب لم تعرفه حتى الآن

القسم الثالث

استقرار المسلمين في بروفانس وغاراتهم منها على سافوا
وبييمونت وفي داخل سويسرا وذلك حتى وقت إخراجهم
من فرنسا نهائيا

إن الفترة الأخيرة التي نغنى بدراستها ذات خصائص تشبه إلى حد بعيد الفترة السابقة . فهي تتسم بنفس العنف في الهجوم والنهب ومختلف أنواع القسوة . والفرق هو أن الكوارث في السابق لم تكن تصيب سوى الشواطئ ولايات الثغور ، في الوقت الذي تمتد أثارها في هذه الفترة لتشمل دوفيني وما وراءها حتى المانيا . وبينما كانت الهجمات في الفترة الأولى متقطعة وعابرة ، إذ بها في هذه الفترة تنطلق من نقطة ثابتة ويبدو عليها طابع الدوام والاستمرار .

والمرء يشعر بذل ومهانة حين يرى في هذه الفترة أن بلدانا واسعة خرج منها العديد من الأبطال قد أسلمتها الأقدار إلى حشود من الغزاة لا يرحمون !

بدأت هذه الفترة في حوالي سنة 889 م ؛ وقد كانت بروفانس ودوفيني تابعتين لشخص يدعى « بوزون » (Boson) وحصل على لقب ملك آرل . ولسوء الحظ ، فإن بوزون لا ينحدر من سلالة الامبراطور شرلمان ، وقد اعتبر ارتقاؤه إلى سدة الملك تزويراً واختلاساً .

الأمر الذي كان يتعرض معه لكثير من الهجوم . ومن جهة اخرى ، فإن الرجال الأثرياء وذوي النفوذ لم يكن يهتمهم إلا استغلال ظروف الاضطراب

العام ليحصلوا على اقطاعات أو لتكوين إمارات . ومن هنا فإن المسلمين لم يلقوا عوائق جدية في زحفهم .

وفىما يلي نقدم عرضاً للطريقة التي استقر بها المسلمون في بروفانس ، كما وصفها المؤرخون الفرنسيون المعاصرون . ونحن اتبعنا لنا أن نتثبت من صحة رواياتهم بما استخلصناه من الأقوال في هذه البلاد⁽¹⁾ .

قام عشرون ملاحاً عربياً بركوب مركب خفيف من شواطئ اسبانيا قاصدين سواحل بروفانس ، فاعترضتهم عاصفة هوجاء في خليج « جريماد » (Grimad) الذي يسمى أيضاً خليج « سانتروبيز » (Saint-Tropes) فصعدوا إلى البرّ دون أن يبصرهم أحد ، وكانت توجد حول الخليج غابة بلغ اشتباك اشجارها حدا لا يجزؤ معه الانسان على الدخول فيها ، وفي الشمال تمتد سلسلة من الجبال بعضها أعلى من بعض تشرف قممها على جزء كبير من بروفانس السفلى . قام العربُ بغارة ليلاً على اقرب قرية إلى الشاطئ وذبحوا أهلها ثم شرعوا يرتادون ضواحيها . ولما وصلوا إلى القمم التي تشرف على الخليج من جهة الشمال ، وتطل على جبال الألب من جهة أخرى ، أدركوا

(1) راجع « خصوصاً : Liutprand dans Muratori, rerum italcorum scriptores, T.II, p.425; la chronique de l'abbaye de Novatese, ibid., T.II, part II, p.730; le Recueil de Dom Bouquet, T.IX, p.48.

ومعظم المؤرخين الايطاليين المحدثين حددوا المكان الذي استقر فيه المسلمون في كونية نيس، على مقربة من مدينة « Ville-Franche » في المكان الذي بني فيه فيما بعد حصن « سانت أوسبيس » (St. Hospice). انظر أيضاً Muratori، المصدر المذكور، الجزء العاشر القسم 103 ص 105 وما يليها. وبعد معاينتنا لمسرح هذه الاحداث بدا لنا أن مصالح هذا الموقع لا يتطرق إليه الشك، انظر كذلك الملاحظات التي سجلها Bouche Histoire de Provence T. I, p.170 et 772.

انظر تفاصيل وتحقيقات واستشهادات أخرى حول هذا الموقع في غزوات العرب لشكيب أرسلان، ص 208 - 214 (تعليق 1).

على الفور مدى ملائمة هذا المكان لاستقرارهم بصفة دائمة . فالبحر مفتوح أمامهم لتلقي الامدادات والنجدات بينما يوفر البرّ لهم منفذاً إلى النواحي التي يرومون الغارة عليها . وأما الغابة فتصلح موئلاً وملجأً لهم عند الاضطراب .

لم يكد القرصان يستقرون في تلك الأرض حتى أرسلوا إلى الاندلس وما جاورها ، بل وإلى افريقية أيضاً ، يستحثون رفقاءهم على اللحاق بهم ومدهم بالمساعدة . وفي نفس الوقت شرعوا في أعمال البناء والتشييد ، ولم يكد يمضي وقت حتى كانت تلك المرتفعات مغطاة بالقلاع والحصون . وكان أهم تلك الحصون ، هو الحصن المسمى «فراكينستوم» (Fraxinstum) باسم شجر الدردار الذي لا بدّ وأنه كان منتشراً في المنطقة في تلك الآونة . والمعتقد أن حصن فراكينستوم كان يقوم في موقع القرية الحالية التي تسمى « جارد فرينة » (Garde - Franet) التي تقع عند سفح الجبل الأكثر توغلاً في اتجاه جبال الالب . والمؤكد أن موقع هذه القرية لا بد وأن يكون قد بدا لسكانها مهماً ، لأنه يمثل الطريق الوحيد المباشر للوصول إلى الخليج . ومن جهة أخرى يمكن للرائي حتى الآن أن يشاهد في أعالي الجبل خرائب وبقايا تحصينات عظيمة ، إنما بقايا جدران منحوتة من الصخر ، وحوض هو أيضاً منحوت من الصخر⁽²⁾ .

(2) لم يبق شيء من شجر الدردار في هذا الوقت، ولكن المسيو جريموند (Gremond) مسجل العقود حالياً في سان تروبيز والذي قام ببحث متعمق في الموضوع يعتقد أنه كانت توجد غابة من الدردار في القديم في أقصى الخليج على شاطئ البحر، وأنه كانت توجد هناك قرية رومانية اسمها «فراكينيت» (Fraxinetun). ومن رأي هذا الباحث أن المسلمين بعدما خربوا هذه القرية، وأقاموا قلعة في قمة الجبل المشرف عليها أطلقوا على تلك القلعة اسم «فراكينيت». وهو يرى أن تلك القلعة لم تكن سوى مركز لمراقبة بروفانس السفلى، لأن هذا المكان الذي لا يزيد محيطه عن 300 قدم، لا يتسع لأكثر من مائة رجل. وأما القلعة الحقيقية المحصنة، فهي تقع على نصف فرسخ من هنا بقرب =

ولما أتم المسلمون بناء حصونهم شرعوا في شن غارات على المناطق المجاورة . وفي البداية كانوا يحتجزون من الابتعاد عن حصونهم ، ولكن النبلاء والحكام المحليين لم يلبثوا أن حاولوا الزج بهم في خصوماتهم الداخلية . وكذلك ساعدوا على القضاء على رجال ذوي نفوذ وقوة ، ثم تخلصوا من أولئك الذين استنجدوا بهم وأعلنوا أنفسهم سادة للبلاد . وهكذا ، فلم يكد يمضي سوى وقت قصير حتى أصبحت بروفانس كلها خاضعة لهم ، بعدما استولى الرعب على قلوب الجميع من عاديتهم وأصبح لا يجرؤ على الوقوف في طريقهم أحد . وقد تحققت فيهم الكلمة التي كثيراً ما ترددت على الألسنة : « إن واحداً منهم يهرب أمامه ألف رجل ، واثنان يمحلان على الفرار الفتي رجل »⁽³⁾ .

وهذا الرعب الذي يوحى به المسلمون في النفوس لم يلبث أن أطيح عاماً⁽⁴⁾ . وبعدها اكتسحوا السهل ، تقدم المسلمون إلى قمم جبال الالب ، في

البحر، فوق جبل يقال له اليوم « السيدة ميرمار » (Notre Dame de Mirmar)، حيث توجد آثار مهمة وخنادق عميقة.

وأما المسيو بوش، صاحب تاريخ بروفانس، فيلاحظ أن العرب قد أطلقوا اسم فراكنيت على حصون كثيرة. بحيث أنهم كلما أتموا تشييد حصن من حصونهم في دوفيني، أو في سافواي، أو في بيمونت، أطلقوا عليه اسم الحصن الرئيسي والأول. ونحن نرى أن رأي بوش هو الصواب بعينه. والواقع أنه يوجد في البلدان التي ذكرناه عدد من الأماكن التي تحمل نفس الاسم.

(3) راجع المصدر المذكور : liutprand ، وفي القرآن (سورة الأنفال - 8 - الآية 66) . « فإن يكن منكم مائة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا الفين » . ورد في الأصل غلظاً :
«Si vous êtes vingt, vous vaincrez deux cents etc.»

(4) عثر في سنة 1279 في قبر القديسة « مجدولين » (Magdelein) في « فيزلاي » (Vézelay) على نقش باللغة البوجونية جاء فيه أنه نقل جثمان القديسة إلى هذا المكان من « ايكس » أن بروفانس خوفاً من المسلمين تحت حكم « أودوان » (Odoïn) انظر في هذا الموضوع

أواخر القرن التاسع الميلادي .

كانت مدينة آرل في ذلك الوقت تحت حكم لويس بن بوزون . ولكن لويس كان في ايطاليا حيث كان يحارب اعداء « بيرنجي » (Berger) ملك لومباردية ، وبعبارة اخرى فقد تحلّى على الدفاع عن ولايات مملكته من أجل كسب ولايات اخرى . ولما وقع في الاسر في يد عدوه سمل عينيه ولم يعد في حالة تسمح بالنظر في شئون مملكته .

وفي غضون هذه الفترة نفسها استمر النورمانديون في اجتياح قلب فرنسا . وقبل ذلك ببضع سنوات بلغت بهم الجرأة حد ضرب حصار على باريس ولولا بسالة حفنة من المحاربين الشجعان لسقطت في أيديهم⁽⁵⁾ .

وإلى جانب هؤلاء وأولئك ، كان الهنغاريون الذين طردوا من ضفاف الدانوب ، يحتاجون المانيا وايطاليا وينشرون في طريقهم الخراب والدمار . كان هؤلاء أيضاً ينتظرون الفرصة الملائمة للانقضاض على فرنسا .

ومنذ سنة 906 م . كان المسلمون قد اجتازوا مضائق دوفيني الجبلية واستولوا على دير « نوفاليز » (Novalése) الواقع على حدود بيمونت ، في « الفالي » في سويسرا ، وأما الرهبان فقد هربوا من الدير حاملين معهم الآثار المقدسة والأشياء الثمينة التي من بينها مكتبة غنية جداً بمقياس ذلك العصر .

== تاريخ « هينو » (Hainut) ، تأليف : Jaques de Guyse, T. VIII, p. 203 et suiv. ; et Bouche, Histoire de Provence, T. I, p. 703; Gallia Christiania, T. IV, p. 466.

(5) سجلت حوادث هذا الحصار في قصيدة معاصرة للأحداث باللغة اللاتينية ، نشرها باللاتينية مع ترجمة فرنسية مسبو « تارام » Taramé في باريس ، في سنة 1834 م .

ولما وصل العرب إلى الدير وجدوه خالياً إلا من راهبين متقدمين في السن أو سعوها ضرباً . وبعد ذلك نهبوا الدير والقرية التي كانت تقع بجوارها ، واضرمت النار في كنيسة القرية⁽⁶⁾ . عبثاً حاول السكان الذين كانت حالتهم تسمح لهم بالمقاومة اللجوء إلى الجبال التي تمتد بين « سوز » (Suse) و « بريانسون » (Briancon) حيث كان يوجد دير « أولكس » (Oulx) ، فإن العرب تعقبوهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم وأصبح هذا المكان يسمى « ميدان الشهداء »⁽⁷⁾ .

ومع ذلك ، فإن المسيحيين قد تجمعوا في بعض الأماكن لمقاومة الغزاة ، وقد وقع في الأسر عدد من المسلمين الذين اقتيدوا إلى تورين . ولكنه ذات ليلة استطاع هؤلاء تخطيط سلاسلهم ، وأشعلوا النار في دير سانت - اندري الذي كانوا معتقلين فيه ، وقد أوشكت معظم أحياء المدينة أن تصبح طعمة للنيران⁽⁸⁾ .

وفي هذه الأثناء ، انقطعت المواصلات بين فرنسا وإيطاليا . وفي سنة 911 م . أراد رئيس اساقفة اربونة السفر إلى روما لاسباب عاجلة ، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب سيطرة المسلمين على الطريق⁽⁹⁾ . فإن الغزاة كانوا يحتلون جميع الممرات التي تخترق جبال الالب ، والمسافر الذي يقع في أيديهم يواجه الموت ، أو على الأقل الفدية بمبلغ كبير من المال . بل إنهم لم يلبثوا أن اجتاحتوا

(6) راجع المصدر المذكور : La Chronique de l'abbaye de Novalèse, dans Muratori, T. II, p. 730.

(7) أو بعبارة أدق « ميدان الشعب الشهيد » (Plebs Martyrum) انظر : Recueil des Chartes de l'abbaye d'Oulx, Turin, 1753, p. X et suiv. et p. 151.

(8) راجع : Pingonius, Augusta Taurinrum, p. 25 et suiv.

(9) راجع : Catel, Mémoires de l'histoire de languedoc, p. 775.

منطقة بيمونت⁽¹⁰⁾ ومونتفرات⁽¹¹⁾ .

وقبل هذا التاريخ (في سنة 908 م) . قام بعض القراصنة العرب بشن غارة على سواحل لانجدوك ، في ضواحي « ايجمورت » (Aiguemortes) ونهبوا دير « بسالمودي » (Psalmodie) الذي كان قد خرب مرة من قبل في عهد شارل مارتل ، ثم أعيد بناؤه⁽¹²⁾ .

كانت الاندلس الاسلامية منذ وقت مسرحاً للنزاع الطائفي . وفي سنة 912 م . آل عرش قرطبة إلى عبدالرحمن الثالث⁽¹³⁾ . الذي استحق بأعماله

(10) Piémont منطقة في الشمال الغربي من ايطاليا تتكون من ولايات « الكسندري » (Alexandrie) و « أستى » (Asti) ، و « كوميو » (Cumeo) ، و « نافار » (Navare) ، و « تورين » (Turin) و « فيرسيل » (Vercell) . ويبلغ عدد سكان بيمونت في سنة 1979 ، 426000 نسمة . والمنطقة تحتل معظم أعالي نهر « بو » (Pô) . وبييمونت موازية لجزء من جبال الألب التي تسمى « ألب بيمونت » ، وهي كانت مراعي و غابات منذ أقدم العصور ، ولكن الجزء الأسفل من بيمونت عبارة عن سهول خصبة وهضاب وافرة الانتاج ، خصوصاً للحنطة والذرة والعب . وتورين هي المدينة الكبيرة الوحيدة في بيمونت . وتضم اكثر من ربع سكان المنطقة (بيمونت) .

(11) راجع المصدر المذكور : Liutprand, dans le Recueil de Muratori, T. II, Part. I, p. 440.

(12) راجع المصدر المذكور : Dom Vaissette, Histoire du languedoc, T. II, p. 45.

(13) عبدالرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم الرضي ، الناصر لدين الله (277 - 350 هـ .) كان أول من اتخذ لقب امير المؤمنين في الأندلس . قتل أبوه وعمره 21 يوماً فرباه جده ، ويوبع بالامارة بعد وفاة جده . وكانت ولايته ، كما يقول المقرئ أمراً غريباً « لأنه كان شاباً واعمامه واعمام أبيه حاضرون ، فتصدى إليها وحازها دونهم ، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين مضطربة بئران المتغلبين ، فاطفاً تلك النيران » . وقد كان سياسياً بارعاً وطموحاً ، وقد تلقب « الناصر لدين الله » . وكان محباً للبناء والتشييد ، فبنى فيها بناء قصر الزهراء . نعته ابن الأبار بالعارة التالية : « وظهر لأول ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، =

الجليلة لقب « عبدالرحمن الاكبر » . فقد استطاع هذا الامير الذي امتد عهده خمسين سنة أن يجمع جميع الولايات الاسلامية تحت حكمه ويصل بالبلد إلى درجة عظيمة من الرخاء والمجد . وقد كان أول من تلقب بالخلافة بين أمراء بني أمية في الاندلس .

قاوم هجمات عبدالرحمن بنجاح في بداية الأمر « صانش جراسيا » (Sanche Gracie) ملك نابره و « أوردوجون » (Ordogoné) ملك ليون اللذان تحالفا مع عمر ابن حفصون الثائر على المسلمين . وبمساعدة المحاربين الفرنسيين الذين جاءوا من جنوب فرنسا وقفوا في وجه جيوش عبدالرحمن الثالث . ولكنه في سنة 920 م 308 هـ . قاد عم الخليفة الذي يسمى ، مثله ، عبدالرحمن ويلقب بالمظفر ، جيش الخليفة وهزم جيش الأعداء المتحالفين وتمكن من اجتياز جبال البرينير واجتاحت جزءاً مهماً من أراضي جاسكون ووصل إلى أبواب مدينة طلوزة . ولكنه عند رجوعه فاجأه جراسيا بن صانش وهزم جيشه واستعاد منه كل الغنائم التي أخذها⁽¹⁴⁾ .

كانت صيحات السخط والاستنكار تتعالى في كل مكان في بروفانس ودوفيني وبلاد الالب من أعمال العرب . وعبثاً حاول بعض الرجال الشجعان ، بعد تحاذل الامراء ، الدفاع عن قضية الشعب المغلوب على أمره

= واقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة - وانقياد العصاة لطاعته ، ما تعجز عن تصوّره الأوهام وتكل في تحبيرة الأقلام » . انظر تفاصيل سيرته في الحلة السراء ، 197/1 - 200 ، العبر ، 137/4 ، نفع الطيب ، 353/1 - 371 ، البيان ، 156/2 - 171 ، طبقات السبكي ، 230/2 ، المغرب ، 176/1 - 181 ، وانظر تفاصيل وافية عن عهد الناصر لدين الله في المقتبس لابن حيان ، نشر المعهد العربي الاسباني ، مدريد ، 1979 ، ص 51 وما يليها ، ازهار الرياض ، 257/2 - 284 ، غزوات العرب ، ص 167 - 182 ، الكامل لابن الأثير ، 438/12 - 441 .

(14) قارن : Conde, Historia, T. I, p. 374, et Pagé, Critique des Annales des Baronins, an 920, No. 6.

ويعارضوا سيل الغزاة المخربين . وعبثاً شرعوا في الهجوم انطلاقاً من بعض المواقع المرتفعة على المسلمين ومحاولة طردهم . ونظراً لأن هذه الهجمات لم تكن منسقة ، فقد كان مصيرها الفشل ومثال معظم القائمين بها الموت الشنيع .

كانت نواحي جارد - فريني قد تحولت إلى خراب بلقع ، كما هدمت الكنيسة الرئيسية في مرسيليا من أساسها ، وكذلك قام المسلمون بغزو « إيكس » (Aix) وقد بلغ السخط بالعرب أنهم سلخوا عدة أشخاص أحياء⁽¹⁵⁾ ، وقد فرّ الأسقف المدعو « أودلريكو » (Odolricus) إلى مدينة « ريم » (Reims) في الشمال حيث كلف بإدارة كنيسة المدينة . وكان العرب يسبون نساء البلد ويبنون بهن ، مما أدى إلى انتشار نسلهم في البلاد . وليس من شك في أن عدداً من أبناء البلاد ممن لا يبالون بقوانين الدين والشرف قد انضموا إلى المسلمين .

وبلغ من شدة ذعر الناس أن الأغنياء صاروا يجلون إلى الشمال فراراً من بطش العرب تاركين وراءهم كل ما يملكون طلباً للنجاة بأنفسهم . والمرء لم يكن يشعر بالأمن حينئذ إلا على فمم الجبال أو في اعماق الغابات أو في مكان بعيد عن المنطقة المحتلة . وجاء في سيرة سانت « ميول » (Saint Mayeul) الذي ولد من أبوين ثريين في ولاية « افينيون » (Avignon) والذي كانت له ضياع في « فلانصول » (Valensoles) في مقاطعة « اللب السفلى » (Basse - Alpes) الحالية ، أنه فرّ خوفاً من العرب إلى بورجونيه حيث كان يوجد أحد أبويه⁽¹⁶⁾ . وقد أحرق العرب كنائس « سيسترون »

(15) قارن : Gallia Christiana, T. I, p. 696; Bouche, Histoire de Provence, T. I, p. 736; Jaques de Guyse, Histoire de Hainaut, T. VIII, p. 201.

(16) انظر : Vie de Saint Mayeul, dans le Recueil des Bollandistes, 11 mai, p. 670 et 679.

(Sisteron) و « جاب » (Gáp) ، وقتلوا في « انبرون » (Enbrun)
القديس « بنونا » (Benoit) ، رئيس الأساقفة وقسيساً آخر وعدداً من
السكان .

وتدل وثيقة قديمة على أن العرب بنوا ثلاثة أبراج محصنة قريباً من أميرون
احتلوها ونشروا منها سلطانهم على المناطق المجاورة⁽¹⁷⁾ . وقد اضطرت سانت
« ليبرال » (Libral) الذي خلف سانت بنونا في مهامه إلى مغادرة هذه
المنطقة والرجوع الى بلده .

كان التبادل التجاري بين البلدان المتجاورة في هذا العصر البائس لا
وجود له تقريباً ، ولكنه كان من عادة الناس في فرنسا واسبانيا وانجلترا أن
يقصد الانسان روما ، ولو مرة واحدة في حياته ، لزيارة قبور الحواريين .
وكذلك كانت توجد علاقات تقليدية بين أساقفة المسيحية من جهة ، والكروسي
الباباوي ، من جهة أخرى . ولكنه منذ احتلال العرب للمضايق الجبلية في
الألب ، أصبح المسافرون يتعرضون لخطر جدية ، وذلك حتى لو ساروا
جماعات ومسلحين ، وقلما وجدت سنة في تلك الفترة تخلو من حوادث
دامية⁽¹⁸⁾ .

فأما النورمانديون الذين استولوا على « نورمانديا » (la Normandie)
الحالية فقد بدأوا يتعقلون ويكتسبون طباعاً سلمية . وأما الهنغاريون فقد
اجتازوا جبال الالب بسرعة البرق ودخلوا إلى دوفيني وإلى بروفانس حيث
اسرفوا في النهب والتخريب والقتل . كان الهنغاريون الذين يعود اصلهم إلى

(17) راجع : la Doucette, Histoire, Topographie. etc, des Hautes Alpes, 2e éd., :
Paris 1834, p. 262.

(18) راجع المصدر المذكور : Recueil des historiens de France, T. VIII, p. 177, 180,
182, 189, 192, 194.

« السيث » (Seythes)⁽¹⁹⁾ ، على غرار التتر في عصرنا هذا ، دائماً على ظهور الخيول ولا يقاتلون إلا بالسهام ، وهم لا يعرفون كيف يحاصرون المدن ، ولا القتال بالمبارزة ، ولو أنهم يصدقون في الحملة على عدوهم الذي لا يلبثون أن يبددوا شمله . والكتاب المعاصرون للأحداث يصورهم بانهم يعيشون على اللحم النيء ويروون عطشهم بشرب الدماء ، ويقطعون قلوب أعدائهم المنهزمين إرباً إرباً . وبالنظر إلى أنهم جاءوا من أقصى شمال أوروبا ومن آسيا ، فقد اعتقد العوام أنهم هم قوم ياجوج وماجوج الذين تتحدث عنهم الكتب المقدسة ، وتجعل ظهورهم من علامات القيامة . ومما زاد هذا الخطأ ضخامة ورهبة أن القرن العاشر كان يقترب من نهايته وأن العديد من المسيحيين كانوا يعتقدون أن الشرّ والفساد قد استشرى في العالم وأن القيامة قد اقتربت !

أراد أحد أساقفة فيردون أن يبدد الشكوك التي كانت تساور نفسه في الموضوع ، فاستشار أحد رجال الدين ، فقال له على سبيل التأكيد إن أقواماً آخرين سيساعدون ياجوج وماجوج في مهمتهم الفظيعة ، وإن الهنغاريين أمة من هذه الأمم⁽²⁰⁾ . على أن الشيء الثابت والمؤكد هو أنه لم يكد يمضي وقت حتى حوّل الهنغاريون لانجدوك الى خراب شامل إلى درجة نسي الناس معها أنواع الدمار والخراب الذي لحق بلدهم من قبل .

جاء في وثيقة تتعلق بدير بناه « هوج » (Hugues) الوصي على عرش مملكة آرل ، باسم لويس ، في مدينة فيين ، في سنة 924 ، ميلادية ما يلي :

« لقد جردت ذنوبنا وخطايانا الذين المسيحي مما كان يتمتع به من المجد

(19) السيث شعب من اصل إيراني كان يشكل « سيثيا » التي تقع في شمال أوروبا الشرقي ، وتمتد بين الدنوب ونهر الدون ، في شمال البحر الأسود .

(20) راجع le Spicilege de tebery , éd. in- fol., T. III, p. 396.

والعظمة في القديم . ونظراً لأن الشرور المنتشرة لم تكن نتيجة لاضطهاد الوثنيين فحسب بل وأيضاً بسبب الطمع والشره الذي يبيده كثير من المسيحيين الخ ... (21) .

لم تكن بيمونت ومونفرات بمنجاة من غزو المسلمين فإن أحد مؤرخي ذلك العصر يخبرنا أن عملاً له⁽²²⁾ كان عليه أن يقصد من « موريان » (Mourien) إلى « فيرساي » (Verceil) قد فاجأته عصابة من المسلمين في غابة تقع على مقربة من هذه المدينة ، فاشتبك رجاله مع المسلمين وأصيب عدد من الطرفين بجراح ، ولكن المسلمين تغلبوا عليهم في نهاية الأمر لكثرة عددهم . ولما وقع عدد من المسيحيين في قبضتهم احتجزوا من بينهم أولئك الذين تسمح لهم حالتهم بدفع الفدية وأطلقوا سراح الآخرين . وقد كان من بين المحتجزين عم المؤرخ المذكور وخادمه . وقد أخذ الاثنان بعد تقييدهما الى المدينة . وقد صادف أن مّر والد الاسير في المدينة ، فشاهد خادماً ابنه في شارع من شوارع المدينة وهو في القيد ، فاضطر الى بيع درعه ليفتدي بثمانه الخادم . ولما علم أن ابنه وقع هو أيضاً في الأسر ، اضطر الى التجوال في المدينة للاقتراض وطلب المساعدة حتى جمع المبلغ الذي افتدي به ابنه .

ويضيف المؤرخ قائلاً إن المسلمين قد وصلوا في هذه الفترة حتى حدود « ليجوريا » (Liguria)⁽²³⁾ . ونحن نقرأ في تاريخ « ليوتبراند » (Liutprand)⁽²⁴⁾ . الذي كان معاصراً للأحداث ، ضمن حوادث سنة

(21) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. IXn p. 689.

(22) راجع المصدر المذكور : Muratori, II, Part. II, p. 733

(23) منطقة في شمال إيطاليا على ضفاف خليج جنوة ، ويبلغ عدد سكانها حسب تعداد سنة 1979 قرابة مليوني نسمة ، وقد كانت في العصور الوسطى تشكل ولايات جنوة .

(24) مؤرخ الماني معاصر لهذه الأحداث ، ولد في سنة 922 م في لومباردية ، ونشأ في بلاط الملك « هوج » المتقدم الذكر ، وتوفي في سنة 970 م ؛ وقد خلف كتابين عظيمي القيمة باللغة اللاتينية استفاد منها رينو كثيراً في هذا العرض .

935 م . إن المسلمين الذين سبق أن غزوا مدينة « آكي » (Aquì) ، إحدى مدن مونفرات في سنة 906 م ؛ قد عادوا إلى هذه المدينة المشهورة بحماماتها ، بقيادة زعيم اسمه « ساجيتوس » (Sagitus) ، ولكن السكان ردوهم وهزموهم . ونفس المؤرخ يقول إن قراصنة جاءوا من إفريقية في نفس التاريخ إلى مدينة جنوه فدخلوها فقتلوا ونهبوا وسبوا كثيراً من النساء والأطفال⁽²⁵⁾ .

وفي هذه الأثناء اقتحم الهنغاريون نهر الرين وغزوا الألزاس واللورين وفرنش - كونتي و « شامبان » (Champagne) حيث شددوا الحصار على مدينة « سانس » (Sens) ثم زحفوا على ضفاف اللوار . وقد واجههم في معركة كبيرة « إبون » (Ebbon) و « حاربو » « تورين » (Touraine) و « بيري » (Berry) غير بعيد من « أورليان » (Orléans) واضطروهم إلى الرجوع على أعقابهم ، ثم حولوا زحفهم إلى سويسرا حيث نشروا الخراب والدمار فيها وفي جميع المناطق المجاورة⁽²⁶⁾ .

ظلت بلاد « الفالي » (Le Valais) المنشرفة والتي تجمع بين إنتاج المناطق المعتدلة وإنتاج المناطق الحارة ، بعيداً عن طريق جميع الغزاة . وإلى الفالي التجأ خلف سانت ليبرال ، أسقف أمبرون وعدد من الأساقفة ، للنجاة بأنفسهم . وفي سنة 939 م ؛ استولى المسلمون على الفالي فقتلوا وأحرقوا كثيراً . وكذلك خرب دير « آجون » (Agaune) المشهور ، والذي ساهم شرملان كثيراً ، هو وغيره من الأمراء ، في تشييده وتزيينه⁽²⁷⁾ . و « ترانيز »

(25) راجع المصدر المذكور : Liutprand Muratori, T. II, p. 440 et 452.

(26) راجع فيما يتعلق بغزو الهنغاريين ، المصدر المذكور : Recueil des historiens de France, T. IX, p. 6, 23, 34, 44.

وهذا هو الغزو الذي يعزوه بعض كتاب قصص الفروسية إلى الوندال ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

(27) راجع المصدر المذكور : Gallia Christinia, T. XII, p. 793.

(Tarantaise) تعرضت هي الأخرى لنفس المحن حيث أن المسلمين كانوا يزدادون قوة وجراً كل يوم . وذات مرة اعترضوا سبيل قافلة كبيرة كانت تتجه من فرنسا إلى إيطاليا اضطروها إلى الرجوع على أعقابها بعد معركة بين الطرفين قتل وجرح فيها كثير من المسيحيين⁽²⁸⁾ .

وهكذا كانت سويسرا كلها مسرحاً لغزو المسلمين والهنگاريين في نفس الوقت . فالمسلمون الذين أصبحوا سادة الغالي تقدموا حتى قلب كورة « جريزون » (Grison) وكان يوجد هناك دير شهير اسمه « ديزانتيس » (Disentis) اسمه أحد تلامذة سانت كولومبان ، وقد نهبه العرب وجردوه من كل مقتنياته .⁽²⁹⁾ وكذلك فعلوا بكنيسة « كوار » (Coire)⁽³⁰⁾ . وقد قيل إن المسلمين بعدما اقتربوا من بحيرة جنيف ، زحفوا على « جورا » (Jura) . ومن المعلوم أن سويسرا كانت في ذلك العهد جزءاً من مملكة بورجون التي كانت تمتد عبر جبال جورا . وقد اعتزلت أم الملك الشاب ، « كونراد » (Conrad) في برج يقع في مكان المدينة التي تحمل الآن اسم « نيوشاتيل » (Newchâtel)⁽³¹⁾ .

= وفي رواية بعض المؤرخين أن المسلمين سبق أن هدموا هذا الدير من قبل (سنة 900 م .) . انظر نفس المصدر ، ص 700 .

(28) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. VIII, p. 194.

(29) راجع : Sprecher, Chronicon Kelix, Bale, 1617, p. 68, 197, et suiv.

(30) كان الأسقف « والديو » (Waldo) يشكو في سنة 940 ، من غارات العرب المتوالية . وقد

كانت آثار هذه الغارات لا تزال موجودة في سنة 952 ، وقد عا « أوthon » (Othon)

في طريقه لدى عودته من إيطاليا إلى « ريتيا » ، وكذلك توجد وثيقة مؤرخة في سنة

952 م . وهب أوthon بموجبها إلى اسقف هذه المدينة بعض الأموال للتعويض لها لما لحقها

من الأضرار راجع : Hergott, Généalogiae diplomaticae Augustae gentis :

Halisburgicae, T. II, Parl I, p. 84.

(31) راجع : Muller, Histoire des Suisses, T. II, p. 117, traduction française.

وفي نفس الفترة كانت نيران الحرب مشتتة بين ملوك اشتورية ونابرة من جهة وخليفة قرطبة الأموي ، من جهة أخرى . وقد وقعت بين الطرفين معركة من أجل امتلاك مدينة « سمورة » (Zamoura) سقط فيها أكثر من مائة ألف قتيل من المسلمين⁽³²⁾ الذين خسروا هذه المعركة⁽³³⁾ .

(32) كان اسم ملك نافارة الذي اشترك جيشه في هذه المعركة ، « جارسيا » (Garcia) ولكن المؤرخين العرب لا يذكرون إلا امه التي يبدو أنها كانت وصية على العرش ، وهم يسمونها « طموطة » .

(33) تسمى هذه المعركة في التواريخ العربية باسم « الخندق » . والرقم الذي يذكره المؤلف للقتلى المسلمين غير معقول ولا يمكن حتى اعتباره مؤشراً لحجم خسارة المسلمين . والمؤلف يحيلنا في هامش إلى مخطوطة المقرئ التي كانت تحت تصرفه في المكتبة الأهلية بباريس ، ولكن النص الذي بين أيدينا والذي حققه احسان عباس بمقارنة 8 مخطوطات انما يقتصر على إيراد الرقم الذي ذكره السعدي ، وهو رقم لا يمكن إلا أن يكون تقديرياً : « اربعين ، وقيل خمسين الفا » . والذي يبدو لي هو أن المؤلف اختلط عليه رقم مائة الف الذين اشتركوا في هذه المعركة فجعله يمثل عدد القتلى . ونحن بعد نعرف أن رودمير ، ملك الجلالقة لم يواصل انتصاره حتى النهاية ، لأنه بعد عبوره الخندق خوفه امية بن اسحاق ، أحد العرب المقاتلين في صفه من « كمين » ورغبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدة والخزائن » ، الأمر الذي أتاح وقتاً للخليفة بأن يقوم بكل ثبات وشجاعة بمناورة بارعة إن لم يكن من نتائجها تحويل مصير المعركة ، فهي بدون شك انقذت خلقاً كثيراً من جيشه . وفيما يلي ما ذكره معاصر لهذه الأحداث ، ومؤرخ الناصر لدين الله ، وهو ابن حيان في المقتبس (الجزء الخامس ط . مدريد 1979) .

« فانكشفوا (المسلمون) انكشافاً قبيحاً ، نيل فيه منهم منال محض ، والجأهم العدو في انحيازهم إلى خندق بعيد المهوى ، إليه تنسب الوقعة ، لم يجدوا عنه ميحداً ، فتردى فيه خلق ، وداس بعضهم بعضاً لكثرة الخلق ، فدخل بهم السلطان مضطراً ، ونفذ في اجناده ، وترك سواده بما فيه ، فملكه العدو ، وآل الناصر [لدين الله] إلى كثف من الجمع تحطتهم الركبة ، فضم كشفهم ، واحتل بهم باعلى نهر بشورقة ، وقد اقصر العدو عن اتباعه ثم رحل قافلاً إلى قرطبة . والرواية الأخرى المعاصرة للأحداث والتي تمتاز بالابحاز والدقة معا هي رواية السعدي التي نقبستها ، فيما يلي :

« غزا (الناصر) سنة سبع وعشرين وثلاثمائة في ازيد من مائة الف من الناس ، فنزل في دار مملكة الجلالقة ، وهي مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة اسوار من عجيب =

ولكن عبدالرحمن (الناصر) الذي تمكن الآن من قمع الثورات التي كانت تقوم هنا وهناك ، والذي جمع كل قوات مسلمي الاندلس تحت رايته ، قد أصبح الآن عدواً خطيراً الشأن . وقد ذكر أحد المؤرخين المسلمين أن الناصر لدين الله قد نشر لواء الاسلام في بلاد لم يبلغها أحد من قبله⁽³⁴⁾ .

ولكنه كان من حسن حظ المسيحيين في اوروبا أن ثورات قامت في المغرب الأقصى ، فأراد عبدالرحمن أن يستغلها ليسيّط سلطانه على تلك البلاد . على أنه صادف أن قامت في تونس في هذه الآونة بالذات ، أمبراطورية تسمى دولة الفاطميين (بسبب انتهاء مؤسسيها إلى فاطمة بنت

= البنيان ، قد احكمتها الملوك السالفة بين الأسوار فُصلان وخنادق ومياه واسعة ، وافتتح منها سورين ، ثم إن اهلها ناروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدركه الاحصاء ، اربعين الفا ، وقيل خمسين الفا ، وكانت الجلالة والوشكند (الباسك = Basques) على المسلمين ، واخذوا ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الافرنجة . وهذه الرواية هي التي اعتمدها ونقلها المقرئ دون أن يضيف إليها شيئاً ، وأما ابن الأثير ، فقد اكتفى بتلخيص هذه الأحداث بدون عناية ، على غير عادته في بضع سطور ، ودون أن يذكر عدد الجيش ولا عدد القتلى ، على أن ابن خلدون كان أكثر تفصيلاً منه ، حيث لا يتجاوز ما قاله عن هذه المعركة التي تمثل تحولاً تاريخياً حاسماً عبارة : « ثم كانت بعدها غزوة الخندق ، ولم يغز الناصر بعدها » . ولكنه إذا لم يغز الناصر الجلالة بنفسه بعد ذلك ، فهو لم يترك لهم الوقت لينعموا بانتصارهم ويخلدوا إلى الهدوء . فإن ابن الأثير يخبرنا أنا الناصر لم يكد يعود إلى عاصمته بعد هذه الواقعة « حتى جهز الجيوش إلى بلاد الجلالة ، فالحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين » . انظر تفاصيل وافية عن هذه الواقعة في المقتبس لابن حيان ، 432/5 - 446 ، العبر ، 142/4 ، الكامل لابن الأثير ، 357/8 - 358 ، نفع الطيب 354/1 - 355 ، مروج الذهب ، 362/1 - 363 ، وانظر كذلك غزوات العرب ، ص 222 - 223 - تعليق 1) .

(34) جاء في نفع الطيب (354/1) :

« فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يَطْؤوه قبل في أيام سلفه ، ومدت إليه امم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان » .

محمد). وأصبحت الولايات التي تغلي بالثورات أيضاً موضع نزاع بين الفاطميين والأمويين في الأندلس وكذلك توزعت قوى عبدالرحمن وخلفاؤه . كانت مدينة مريجوس في سنة 940 م . مدينة عامرة مهمة ، وخصوصا ، لأن السفن كانت لا تزال تدخل إلى مينائها ، وقد اغار عليها العرب وأساءوا معاملة سكانها إلى درجة أن أهلها لاذوا بالفرار ، وتركوها يبابا بلقعا . وهذا أيضاً كان مصير مدينة « طولون » (Toulon) التي وقعت في يد الغزاة . ولما لم يكن للسكان الا الخيار بين البحر وجبال الألب ، فقد التجأوا إلى اعلى قمم هذه الجبال وتحصنوا بها ، وهكذا لم تلبث هذه البلاد التي كانت مزدهرة أن أصبحت أرضا قاحلة ، فذهبت عظمة مدنها الكبيرة ودمرت خصوصها وقلاعها ، وتحولت كنائسها واديرتها إلى رماد . وقد جاء في وثيقة قديمة أن مغنى الانسان قد أصبح مقصداً للحيوانات الوحشية . وتذكر التواريخ المعاصرة لهذه الأحداث أن الذئب قد كثرت وزادت جرأتها بحيث لم تعد الاسفار مأمونة . وفي هذه الاثناء ، أصبح هوج كونت بروفانس . ونظرا لأنه لم يستخلص العبرة من تصرف لويس ، فقد سار إلى ايطاليا لكي ينازع مثله في تاج مملكة لومبارديا . ولما نجحت صرخات رعاياه المتعالية في حمله على العودة إلى بلده أعلن عزمه على طرد المسلمين منها .

والمشكلة الأساسية هي الاستيلاء على حصن فراكسيت الذي يستعمله العرب الآن قاعدة لعلاقاتهم مع الأندلس وشمال افريقيا ، ويسرون منه غزواتهم إلى داخل البلاد . وبالنظر إلى أنه يتحتم الهجوم على الحصن من البر والبحر ، فقد بعث هيوغ إلى امبراطور القسطنطينية ، عدليه ، ليطلب إليه مساعدته بارسال اسطوله اليه . وكذلك طلب إليه اسلحة نارية (نفاطات اغريقية) كانت من أخطر الأسلحة في ذلك العصر ليحارب بها الأسطول الاسلامي⁽³⁵⁾ .

Liutprand, dans Muratori, T. II, p. 462.

(35) راجع المصدر المذكور :

وفي سنة 942 م ؛ أرسى الأسطول الاغريقي في خليج « سانتروبيز » (Saint-Troupes) وفي نفس الوقت، زحف هوج على رأس جيش كبير وهجم على المسلمين هجوماً عنيفاً فدمر سفنهم الأسطول الاغريقي كما هدم جميع حصونهم الواقعة على البحر وفي نفس الوقت اقتحم هوج باب الحصن واضطر العرب إلى التحصن بالجبال المجاورة⁽³⁶⁾ . وبهذه الحملة قُضي على سلطان العرب في فرنسا .

ولكن هوج لم يلبث أن علم أن « بيرانجي » (Béranger) الذي كان قد هرب إلى المانيا يستعد للعودة إلى إيطاليا لمنازعته في العرش . وعقب ذلك ، أعاد الأسطول اليوناني وسمح للعرب بالاستمرار في احتلال جميع المواقع التي كانوا يحتلونها بشرط واحد وهو أن يقوموا بمنع مرور غريمه من إيطاليا إلى سويسرا وفرنسا . ول هذه الغاية سمح لهم باحتلال أعالي مضيق سانبرنارد الجبلي (Saint-Bernard) وقمم جبال الألب الرئيسية .

وفي هذا السياق قطع ليوتبراند سرده للأحداث ليعلق على هذا الاجراء بالعبارات التالية :

« يا لها من طريقة غريبة للدفاع عن البلاد ! إن هيرود (Herode) لم يتردد في قتل كثير من الأبرياء حتى لا يحرم من مملكة على الأرض . وأما أنت ،

(36) نفس المصدر ، ص 464 . ويحتوي كتاب « دوليم » (Delbème) المعنون : De regno Burgudiae Transjurahee et arelatis (طبع ليون 1602 - ص 58 وما يليها) على تفاصيل وافية ودقيقة على مختلف الحوادث التي وقعت خلال الفترة التي ضرب فيها المسلمون اخصار من أعالي الجبال على سويسرا . وهذه التفاصيل نقلها عدد من الكتاب المتأخرين ، ولكن دوليم لا يذكر المصدر الذي استقى منه هذه التفاصيل وغيرها من المعلومات التي يحتوي عليها كتابه ، والتي يبدو أن كثيراً منها مما اخترعه خياله . ونحن سنعود إلى موضوع هذا الكتاب فيما بعد .

فعلى العكس من ذلك ، فقد سمحت لعدد كبير من الغزاة بالنجاة ، لكي تصل إلى نفس النتيجة ! » .

وابتداءً من هذه الفترة ، كان العرب يبدون جرأة وشجاعة اكبر من ذي قبل ، بحيث ساد الاعتقاد بانهم استقروا إلى الأبد في قلب أوروبا. فهم لم يكتفوا بالتزوج بنساء البلد ، بل راحوا يحرثون ويزرعون الأرض أيضاً . وأما أمراء المنطقة ، فقد اكتفوا بفرض ضريبة صغيرة عليهم ، بل انهم كانوا يتقربون إليهم في بعض الأحيان⁽³⁷⁾ .

وأما العرب الذين استقروا على قمم الجبال ، فقد كانوا يتحكمون في المضائق الجبلية ويفرضون إتاوة على المارين بها . بل إن ليوتبراند يقول إنهم كانوا يقتلون المسافرين الذين يرفضون دفع الإتاوة⁽³⁸⁾ .

كان مضيق سانبرنارد الجبلي الذي كان يسمى في القديم « جبل جويتر » (Monte- de Jupiter) بحكم وضعه بين بلاد الفالي ووادي « أوست » (Aoste) طريق الاتصال بين سويسرا وإيطاليا . ولما سيطر العرب على هذه الجبال ومضايقتها أصبح من السهل عليهم التوغل في البلاد المجاورة لها . وكذلك اجتاحت المسلمون بلاد نيس التي كانت تابعة لمملكة آرل ، وسواحل جنوة . وتشير بعض الدلائل إلى أن طائفة من المسلمين قد استقرت في مدينة نيس نفسها ، والواقع أن أحد أحياء المدينة لا يزال حتى الآن يحمل اسم « حي المسلمين » (Canton des Sarrazins)⁽³⁹⁾ .

وأخيراً ، فقد احتل المسلمون مدينة « جرونبل » (Grenoble) وواديها

(37) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. IX, p. 6

(38) قارن : Recueil de Dom Bouquet, T. VII, p. 207, et la Chronique de Liutprand, dans Muratori, T. II, p. 464.

(39) انظر المصدر المذكور : Durante, Histoire de Nice, T. I, p. 150.

الخصب ، الأمر الذي اضطر معه أسقف جرونوبل إلى الهجرة ، حاملاً معه كنوز الكنيسة وتحفها المقدسة إلى « سانت دونات » (Saint- Donat) التي تبعد ببضعة فراسخ إلى شمال بلنكسية⁽⁴⁰⁾ .

يوجد ما يبرر الاعتقاد بأن المسلمين قد شيدوا في بلاد بيمونت عدداً من الحصون والقلاع التي كانوا يشنون منها غارات عديدة على المناطق المجاورة ، ويتحصنون بها عند الحاجة . وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليس في تاريخه أحد هذه الحصون الذي كان يطلق عليه اسم « فراسندلوم » (Frascendellum) ، وربما كان هذا الحصن يقع في « فراسينيتو » (Frassineto) ، وهو مكان يقع غير بعيد من نهر « بو » (Pô) وعلى مسافة قصيرة من « كازال » (Casal) والذي كان يسمى « فراكسينيتوم » (Fraxinetum) ، إما لوجود غابة دردارفيه وإما باسم الحصن الاسلامي المشهور والذي يقع في بروفانس . ولكنه يحتمل أن يكون هذا الحصن أيضاً في موقع الحصن الذي يحمل حالياً اسم « فينيسترا » (Fenestrelle) .

وأياً ما كان الأمر ، فإن مؤرخ نوفاليس الذي كان يعيش في المنطقة والذي لا بدّ وأن تكون معلوماته جيدة ، يقول :

« في الفترة التي كان المسلمون يحتلون فيها » « فرسندلوم » ويشنون من هذا الحصن غارات على المناطق المجاورة ، انضم احد رجال البلد ، واسمه « أيمون » إلى صفوفهم وقبلوه بينهم ، وقد اسر المسلمون عدداً من النساء

(40) نحن نجهل السنة التي دخل فيها المسلمون إلى مدينة جرونوبل ، ولكنها ليست بعيدة عن سنة 945 ؛ وذلك لأن أثراً منقوشاً لا يتسرب إليه الشك يخبرنا أنه كانت قد مرت في سنة 954م مدة طويلة على احتلال العرب لهذه المدينة . انظر : Histoire Chronologique de Jovinzieux de nos jours de Jean- Claude Martin, Valence, 1812.

والأطفال كما نهبوا الخيل والبقرات والحلي الخ . وذات يوم كان من بين الأسرى امرأة ذات جمال خلّاب ، أعطوها لآيمون . ولكن أحد الرؤساء أرادها لنفسه وأخذها غصباً . ولكي ينتقم لنفسه قصد آيمون الكونت « روتبالدوس » (Rotbaldus) الذي كانت له السيادة في ذلك الوقت على بروفانس العليا⁽⁴¹⁾ . وفي محادثة سرية (لأنه كان لدى العرب كثير من الأنصار) أعلن إليه أنه سوف يعمل لتخليص البلاد من قبضتهم . وقد قبل الكونت اقتراحه بدون تردد ، فوجه نداء إلى النبلاء والفرسان في البلاد للهجوم . وقد هجموا على العرب في معقلهم ، فحررت البلاد منهم . ويضيف المؤرخ أن عائلة آيمون كانت موجودة في زمنه⁽⁴²⁾ .

وفي هذه الاثناء (في سنة 952 م) . قام الهنغاريون من جديد بغزو الالزاس ، واصبحوا يهددون جميع البلاد المجاورة لجبال « جورا » (Mont du Jura) وقد خطرت « لكونراد » (Conrad) ملك بورجونيا وفرنش كونتي ، وسويسرا ، ودوفيني ، فكرة دفع الهنغاريين في وجه المسلمين ليضرب بعضهم ببعض ، فكتب إلى المسلمين رسالة جاء فيها :

« إن النهايين الهنغاريين قد بلغتهم اخبار الأراضي الخصبة التي تزرعونها ، فاصبحوا يطالبون باحتلالها . انضموا إليّ وستمكن من سحقهم بتنسيق جهودنا » .

وفي نفس الوقت بعث إلى الهنغاريين بمن يبلغهم الرسالة التالية :

« لماذا تخاصمونني أنا ؟ إن العرب يحتلون اخصب السهول . ساعدوني على طردهم منها وسوف أمنحها لكم للاستقرار فيها » .

(41) ربما كان هذا هو روتبالدوس الثاني ، كونت فوركالكي الذي كان يعيش في سنة

945 م ؛ راجع المصدر المذكور : Bouche, Histoire de Provence, T. II, p. 30.

Muratori, T. II, Part. II, p. 736.

(42) راجع المصدر المذكور :

وقد حدد للمسلمين وللهنغارين مكانا وزمنا ليلتقي بهم فيه . قد سار هو على رأس جيشه متأخراً عن الموعد . ولما اشتبك الطرفان في معركة ضارية انتظر حتى وهنت قواهما ، فهجم عليهم جميعاً فكانت مجزرة فظيعة . والذين نجوا من الموت أسرهم وبعث بهم إلى آرل ليباعوا في سوق النخاسين هناك⁽⁴³⁾ . ونحن نجهل مكان وقوع هذا الحادث الذي يبدو غير محتمل . ولكنه بالنظر إلى أن قوات المسلمين المركزية كانت تحتل بروفانس ، والهنغارين دخلوا من الألزاس وفرنش كونتي ، فيجب أن تكون هذه المعركة قد وقعت - إن وقعت فعلا - في بلد وسط ، مثل سافواي . وكون هذا البلد كان يسمى في ذلك العهد « موريان » (Maurienne) (أي أرض « المور » أو المسلمين في رأي بعض الكتاب⁽⁴⁴⁾) وكان المسلمون يحتلونه مدة طويلة ، يجعل ذلك محتملا . ولكنه ، فيما يتعلق بالتسمية ، نلاحظ أن اسم « موريان » كان موجودا منذ القرن السادس الميلادي .

وأما الموقعة فربما كانت - إذا اغضينا النظر عن بعض الفوارق في الأسماء - هي التي ذكرها « رومان دوجارين » (Roman de Garin) في قصته المعنونة « Le Lokerrain » .

وحسبما ورد في القصة ، فإن موريان كانت تخضع لأمر اسمه « ثييري » (Thierry) . ولما كان أربعة من الأمراء العرب يشددون الخناق على هذا

(43) راجع المصدر المذكور : Recueil de Bouquet, T. IX, p. 6.

والمصدر المذكور : Recueil de Pertz, T. II, p. 110.

(44) ذكر الأسقف « بيليه » (Billiet) الذي قام بوضع دراسة متخصصة للبلد أنه توجد عدة أماكن لا تزال إلى الآن تحمل أسماء تذكر باقامة المسلمين في المنطقة ، مثل « وادي المسلمين » (Vallon- Sarrazin) وقرية « فريني » (Frenney) . ونحن سبق أن عرضنا ملاحظة ماثلة سجلها بوش (Bouche) .

الأمير⁽⁴⁵⁾ التجأ هو إلى ملك فرنسا وطلب مساعدته⁽⁴⁶⁾ . وقد استجاب الملك لندائه وسير جيشه إلى ليون ، وكان اللورانيون من أهم عناصر هذا الجيش الذي نزل مع نهر الرون حتى وصل إلى مكان يقرب من « ايزير » (Isère) ، ومن هناك صار في الاتجاه الشمالي الشرقي حيث قابلهم جيش من المسلمين كان يعسكر في مكان يسمى « فالبروفوند » (Valprofond) ، ف وقعت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة المسلمين⁽⁴⁷⁾ .

كان المسلمون في هذه الفترة يغدون ويروحون بحرية في جميع انحاء سويسرا ، وقد وصلوا إلى أبواب مدينة « سانت جال » (Saint- Gale) قريبا من بحيرة كونستانس .

لقد تمرس المسلمون بحرب الجبال حتى كان الواحد منهم ، كما وصفهم أحد الكتاب ، أشبه ما يكون بالبحمور ، في خفة الحركة وسرعة التنقل ، والمعتقد أن المسلمين كانوا قد شيدوا في المنطقة عدداً من الابراج التي لا تزال آثار بعضها قائمة حتى الآن . وقد بلغت الأضرار التي لحقت بالمسيحيين من

(45) راجع المصدر المذكور : Recueil des historiens de France, T. II, p. 11.

(46) يفترض الشاعر غلطاً أن هذه المعركة وقعت في عهد بيبين لوبريف . راجع مقدمة هذا الكتاب .

(47) انظر قصة جارين 73/1 ، وكذلك : l'Histoire de Hainaut, par Jaques de Guise, T. VIII, p. 270.

وفي رأي دوليبم (المصدر المذكور ، ص 124) أن المسلمين قد بقوا في سافواي مدة أطول ، وأنهم ظلوا مسيطرين على حصن « كول » (Cules) على ضفاف نهر الرون ، في مقابل « سيسل » (Seyssel) حتى سنة 970 م ؛ حين أخرجهم محاربون من « الساكسون » (Saxon) ولكن هذه الرواية مشكوك فيها . وقد ذكر صاحب كتاب « تاريخ سافوا » أن حصن كول انما بني بعد هذا التاريخ بوقت طويل .

انظر : Histoire de Savoie, T. II, p. 183.

جراء هذا الاحتلال حدا قال أحد الكتاب المعاصرين للأحداث انها لو سجلت لشكلت سفرا ضخما .

وأخيراً ، قام رئيس الدير (واسمه وس) على رأس جماعة من الرجال المسلحين بالحرايب والفؤوس والهراوات وهجموا على المسلمين مفاجئين لهم في غسق الليل وقتلوهم فيما عدا عدد صغير اسروه ، وعدد اخر تمكن من الفرار . فاما الأسرى الذين اقتيدوا إلى الدير فقد رفضوا الأكل والشراب فماتوا من الجوع والعطش⁽⁴⁸⁾ .

كان لهذا النجاح الذي صادف انتصار الألمان على الهنغارين أثر في الهدوء الذي ساد سويسرا والمناطق المجاورة لها ، ولكن السويسريين كان يساورهم قلق بسبب ما كان يجري في دوفيني وبروفانس وفي جزء من جبال الألب . وقد أدركوا أنه ما دام المسلمون يحتلون فرنسا - وهم في استطاعتهم تلقي الامدادات عن طريق البحر - فهم لا يستطيعون الاطمئنان والخلود إلى الدعة .

كان الأمير الذي يلعب أهم دور في السياسة الأوروبية في ذلك العهد ، هو « أوثنون » (Othon) ، ملك المانيا الذي أصبح امبراطورا فيما بعد والذي أطلق عليه لقب « الكبير » لما كان يتمتع به من حسن الخلال . أقام أوثنون علاقات مع كبار امراء عصره ، وخصوصا ، مع خليفة قرطبة الذي كان يعتبر حامي قلعة فراكسنيت والجماعة الاسلامية في فرنسا . ويتحدث كاتب معاصر للأحداث بكثير من الاعجاب بالهدايا التي كان يتلقاها الملك أوثنون من ملوك مختلف مناطق العالم ، ويذكر من بينها الأسود والجمال والقرود والنعام ، وهي

(48) راجع المصدر المذكور : Chronique de l'Abbay de Saint- Gall, dans Le Recueil de Pertz, T. II, p. 137.

كلها حيوانات غريبة عن فرنسا والمانيا⁽⁴⁹⁾ .

أراد أوثون أن ينصب نفسه محامياً على قضية المسيحية ، فوجه سفارة إلى خليفة قرطبة . وبالنظر إلى أن عبد الرحمن الثالث كان تعرض في رسالة سابقة له إلى أوثون بالنقد للمسيحية ، فقد اختار الأخير هذه السفارة التي كان يعلق عليها أهمية قصوى أحد رجال الدين المتضلعين البارعين في الجدل بنية الدفاع عن المسيحية ، كان القسيس الذي وقع عليه الاختيار لهذه المهمة والذي حاول فيما حاوله اقناع الخليفة الأموي باعتناق النصرانية ، هو راعي كنيسة « جورس » (Gorze) في ضواحي « متز » (Metz) ويدعى جان .

وقعت هذه الأحداث في سنة 956 ؛ وهي فترة يجمع الكتاب العرب والمسيحيون على الاشادة بما بلغته قرطبة من الرقي والحضارة . فإن ازدهار الصناعة والفنون الجميلة وما كان يسود قصورها من الترف والسلوك الرفيع قد جعل هذه المدينة موضع اعجاب المسيحيين في أوروبا كلها . وقد كان عبد الرحمن الثالث يرتبط بعلاقات مباشرة مع امبراطور القسطنطينية ومع البابا ومختلف الملوك المسيحيين في اسبانيا وفرنسا والمانيا وبلاد الصقلية . ويقول الكتاب العرب إن ملوك النصرانية كانت تمد إليه يد الازعان . « وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومه والقسطنطينية في سنبل المهادنة » .

وحينما تصل احدى هذه السفارات ، ولا سيما سفارة امبراطور القسطنطينية ، كان عبد الرحمن الثالث ينشر ضروبا من الترف والبذخ لا مثيل لها . فإن الشوارع التي يمر بها هؤلاء السفراء تفرش بافخر أنواع السجاد ، في الوقت الذي يقف فيه حرس الخليفة الذي يبلغ عدده عدة آلاف في صفين

(49) انظر : Witikind, dans le recueil de Meilon , *Scriptores rerum germanicarum*, Helmstaed, 1688, T. I, p. 658.

متراصين . وعند تقديم السفراء يقف الأمراء وكبار الموظفين والأعيان بجانب العرش (50) .

لم ترافق سفارة قسيس كنيسة جورز تشريفات ماثلة ، ولكنها ، مع ذلك ، استقبلت بكل مظاهر الاحترام والوقار . لقد وصلت إلينا رواية كتبها أحد تلامذة القسيس جان ، وهي تلقي ضوءاً ساطعاً على حالة الازدهار الذي كانت تمر به كل من فرنسا واسبانيا في ذلك العهد . ونحن نقبس منها الفقرات التالية :

سافرجان ولم يكن يرافقه إلا قسيس آخر . وأما الهدايا التي سيقدمها إلى الخليفة ، كما جرت العادة ، فقد كانت كنيسته هي التي قامت بشرائها . وقد سار جان مشياً على الأقدام حتى مدينة « فيين » (الدون) في دوفيني . ومن هناك استقل سفينة في نهر الدون إلى البحر ، تم سفينة أخرى أنزلته في

(50) اورد المؤلف ملخصاً لما ذكره المقرئ (نقلاً عن ابن خلدون) ونحن ننقله بنصه فيما يلي -

والوصف يتعلق باستقبال رسل امبراطور القسطنطينية :
« ركب في ذلك اليوم العساكر بالسلح في اكمل شبكة ، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة واصناف الستور ، وَجَمَلُ السُرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم ودخل الرسل ، فهاهم ما رأوه ، وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الاعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ، ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه ، وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس ، فوجوا ، وشرعوا في القول فارتج عليهم ، وكان فيهم أبو علي القالي ، وافد العراق ، كان في جملة الحكم ، ولي العهد وندبه لذلك استثنائاً بفخره . فلما وجوا كلهم ، قام منذرين سعيد البلوطي ، من غير استعداد ولا روية ، وما تقدم له احد بشيء من ذلك ، فخطب واستنفر ، وجلى في القصد ، وانشد شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض ، ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجال العالم » .
نفع الطيب 364/1 - 365 .

برشلونة . كانت كتالونية في تلك الفترة تابعة لفرنسا ، وأما المدينة التي كان يدخل منها إلى مملكة الخليفة ، فهي « طرطوشة » (Tortose) . ولما أبلغ أمير طرطوشة خبر وصول السفير جان ، وافق على الاذن له بمواصلة سفره ، فمضى القسيس في طريقة . وبعدما قطع معظم شبه جزيرة الاندلس ، وصل الى قرطبة حيث استقبل استقبالاً رائعاً ، وأنزل في منزل يبعد بنحو ميلين عن قصر الخليفة .

وفي هذه الأثناء علم الخليفة بطبيعة التعليمات التي تلقاها القسيس من الملك أوثون . وقد اقترح الخليفة على القسيس أن يمزق رسالة الملك ويعتبرها غير واردة ، لأنه رآها غير مرضية ، وقال له إنه من غير المناسب أن يدخل شخصان على هذا المستوى في نقاش وجدال حول مثل هذه المسائل . وأضاف ، أن قوانين البلد تمنع أي شخص مهما كانت مكانته من اساءة القول في حق الرسول⁽⁵¹⁾

كانت جميع هذه المواعظ والبيانات بدون طائل ، حيث أن القسيس أصر على القيام بمهمته . ولما قصد أسقف قرطبة اليه ليقتعه بالعدول عن رأيه اتهمه بشدة بالميوعة والتنازل عن تعاليم المسيح في قضايا جوهرية ، مثل الامتناع عن أكل لحم الخنزير ورضا المسيحيين الذين يعيشون في بلاد الاسلام بختن ابنائهم .

وحينئذ رفض الخليفة استقبال السفير جان . ولما أصر القسيس في مسعاه أبلغه الخليفة أنه سبق أن بعث بقسيس رسولاً إلى الملك أوثون واحتجزه الملك مدة ثلاث سنوات ، وأنه ينوي أن يحتجزه مدة سبع سنوات ، وذلك لأنه كان

(51) انظر اعلاه، ص 142 — 143 وفي قوانين الدولة العثمانية: «كل من تكلم بسوء في حق الله ورسوله أو في حق القرآن ، يعاقب بالموت بدون تأخير» . راجع Mouradega d'ohson, (المصدر المذكور - 244/6) .

يعتقد أن مرتبته أعلى من ملك المانيا ثلاث مرات !

وفي النهاية تراجع القسيس عن موقفه واعتذر للخليفة عن التعليمات التي تلقاها ، واتفق الطرفان على أن يبعث الخليفة من جانبه سفيراً إلى الملك أوthon ليستفهم عما إذا كان لا يزال مصراً على موقفه . ولكن الخليفة وجد صعوبة في العثور على من يرضى أن يقوم بهذه المهمة ، فلم يوجد من بين المسلمين من يتحدى مخاطر هذه السفارة ومتاعبها . والواقع أن المسلمين الذين يحتم عليهم دينهم القيام بفرائض يومية دقيقة كانوا في جميع الأزمنة يحجمون عن السفر في أرض الكفار⁽⁵²⁾ . وعلى العموم ، فقد كان سفراء المسلمين إلى هذه البلدان من المسيحيين ، وكانوا يختارون ، على الخصوص من بين رجال الدين الذين تسمح لهم معتقداتهم وتقاليدهم بالاتصال بسكانها بدون تخرج ، وأخيراً تقدم مسيحي خارج السلك الديني وكان يعرف اللاتينية بقدر ما كان يحسن العربية ، وقد أصبح اسقفاً فيما بعد⁽⁵³⁾ .

وفي هذه الأثناء ، قام ابن اوthon وزوج ابنته اللذان اقطع لهما الملك اكبر قسط من أراضيهِ ، قام كلاهما باعلان الثورة عليه ، فاحتاج الى جميع قواته ليستعملها لاختضاع الثائرين .

فلما وصل سفير قرطبة اليه ، قدم الملك له جميع الترضيات التي طلبها اليه الخليفة . وهكذا رضي الخليفة بأن يستقبل السفير جان وحدد له اليوم الذي تجري فيه هذه المقابلة .

(52) راجع المصدر المذكور : Mouradgaa d'ohsson, Tableau de l'empire ottoman, T. IV, p. 213 et suiv., T. V, p. 47.

(53) كان هذا المسيحي يدعى « روسموندوس » (Recemundus) . ومن جهة اخرى ، كان المؤرخ الالماني ليوتبراند يرتبط بعلاقات صداقة متينة مع قسيس اسباني يسمى روسموندوس ، وكان قد بعث اليه بنسخة من تاريخه . ومن هنا استنتج البعض ، بحق ، أن الرجلين شخص واحد .

كان القسيس جان يعيش أثناء إقامته في قرطبة في شظف وبساطة . ولما اقترب موعد المقابلة أراد الخليفة أن يقدم اليه في أبهة وفي ثياب تليق بمقام سفير دولة ، فبعث إليه بمن يعرض عليه أن يعتبر ذلك اليوم استثنائياً ، ويلبس ثياباً جميلة ، ولكن القسيس أجاب بأنه لا يعرف ثياباً أجمل من التي يفرضها نظام الرهبنة الذي ينتمي اليه .

ظن الخليفة أن القسيس يعوزه المال لشراء ثياب أخرى ، فبعث إليه بعشرة أرتال من الفضة (أو ما يساوي أكثر من مليون فرنك جديد) . ولكن القسيس عمد إلى توزيع ذلك المال على الفقراء . وحينئذ بعث اليه الخليفة عبدالرحمن بمن يقول له إنه حر من كل التزام فيما يتعلق بالثياب ، وأنه سوف يستقبله حتى ولو جاءه لابساً كيساً من الخيش .

وفي اليوم المحدد للمقابلة كانت قرطبة كلها في هرج ومرج . وقد اصطف حرس الخليفة على جانبي الطريق الذي يمر فيه القسيس الى القصر . فهنا عبيد من الصقالبة وفي أيديهم حراب مغروسة في الأرض ، وهناك رجال آخرون يحملون مزارق ويلوحون بها . وفي جانب كان يقف فرسان على متون جيادهم وهم يحملون اسلحة خفيفة ، وفي جانب آخر رجال آخرون يلعبون بجيادهم .

ولكن الشيء الذي اثار دهشة القسيس / السفير ، بصفة خاصة ، هو منظر جماعة من المسلمين يلبسون ثياباً مزركشة ويأتون بحركات غريبة . ولما كانت الشوارع غير مرصوفة فقد كانت هذه الحركات تثير عاصفة من الغبار مؤذية للعين . إنهم الدراويش المسلمون الذين يرافقون الحرس في مثل هذه المناسبات .

ولما وصل السفير الى البلاط سارع كبار رجال الدولة الى لقائه . كانت عتبة القصر وحجراته مفروشة بالسجاد الفاخر . وتبدلى من حيطانه الستائر .

اقتيد السفير إلى قاعة العرش حيث كان يجلس الخليفة ، وهو أشبه ما يكون « باله في معبده » . كان الخليفة متربعا على العرش ، على الطريقة الشرقية . وبمجرد ما أبصر السفير قدم إليه يده لكي يقبل راحتها ، وهو أكبر تشريف يحظى به الزائر من الخليفة ، ثم أجلسه .

وبعد المجاملات التقليدية دخل الطرفان في حديث حول الشؤون السياسية الأوروبية . وقد تحدث عبدالرحمن الثالث طويلاً عن قوة أوthon وعن الانتصارات التي أحرزها ، كما أعرب للسفير عن شعور التقدير والاحترام الذي يحمله لهذا الملك . ولكنه قال إنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من مخالفة ملك المانيا في اتجاهه السياسي الذي اثبتت ثورة ابنه وزوج ابنته - تلك الثورة التي أحاطه علماء بها وكلاؤه - خطأها . فإن الملك لا ينبغي له أبداً أن يتنازل عن سلطانه لأحد . والواقع أن أحد أبناء الخليفة كان قد حاول قبل ذلك بضع سنوات الوصول الى العرش ولكن أباه قتله بيده⁽⁵⁴⁾ .

« وأخيراً تناول الحديث موضوع المهمة التي قدم السفير من أجلها » .

إن المؤرخين العرب لا يذكرون شيئاً عن احتلال المسلمين لبروفانس وتوغلهم في داخل البلاد ، وهو أمر قد يفسر بأنه دليل على قلة اكثرات الاندلس بهؤلاء المستوطنين . ومع ذلك ، فإن ليوتيزاند ، وهو كاتب معاصر للاحداث ، يؤكد أن الجماعة الإسلامية المستوطنة لفرنسا كانت تتمتع فعلاً ، بحماية خليفة قرطبة ورعايته⁽⁵⁵⁾ .

ويعضي مؤلف هذه الرواية فيقول مؤكداً إن المحادثة التي جرت بين السفير جان والخليفة قد دارت حول هذا الموضوع ، وإن ملك المانيا قد طلب

(54) راجع المصدر المذكور : Code, Historia, T. I, p. 433.

(55) راجع المصدر المذكور : Muratori, Rerum italicarum script, T. II, p. 425 et 462.

الى عبد الرحمن الثالث أن يضع حداً لأعمال الفساد التي يرتكبها العرب في فرنسا وإيطاليا . وإنه لمن المؤسف أن هذه الرواية تنتهي بصورة مفاجئة وفي منتصف جملة وذلك حينما تبلغ قمة أهميتها . والمخطوطة التي وردت فيها مخطوطة فريدة⁽⁵⁶⁾ .

وفي حوالي سنة 960 م . أخرج المسلمون من مضيق سان برنارد الجبلي . والتاريخ لم يسجل لنا تفاصيل هذا الحدث الهام ، ولكنه يبدو أن المسلمين قد أبدوا مقاومة شديدة . وذلك لأن بعض الكتاب الذين جاءوا بعد ذلك والذين يهتمون بالحوادث القصصية أكثر مما كانوا يهتمون بالرواية التاريخية ، يضعون مسرح الحروب التي جرت بين المسلمين وشرلمان ، ومغامرات « رولان » (Roland)⁽⁵⁷⁾ . في جبال الالب . وكذلك يبدو أن « سانت برنارد دو مانتون » (Saint Bernard de Manthon) الذي بنى ديراً في قمة الجبل والذي أطلق اسمه فيما بعد على السلسلة كلها لم يكن غريباً عن هذا الانتصار لأن نفس الكتاب يتحدثون عن المعارك الضارية التي خاض غمارها هذا القديس ضد العفاريت والآلهة المزيفين الذين كانت لهم السيادة على هذه الجبال في ذلك العهد .

وفي سنة 961 م . (350 هـ) . توفي عبدالرحمن الناصر ، وأعقبه على سدة الحكم ابنه الحكم الثاني⁽⁵⁸⁾ . كان الحكم يميل إلى السلم ويحب الآداب

(56) توجد هذه الرواية في :

Acita sanctorum ordinis sancti Berna dicti, Par Mabillon, sec. V, p. 404 et suiv.

(57) راجع المصدر المذكور : Vie de Saint Bernard de Menthone, p. 1076.

(58) المستنصر الأموي (302 - 366 هـ) . بوع بالخلافة بعد أبيه . طمع في ولاياته « أردون بن الفونس » فجهز جيشاً لغزو قرطبة ، ولكن الحكم وجه اليه الضربة الأولى وانتهت الحرب بالصلح ، وبعد ذلك قويت شوكته واستفحل امره ، وامتد سلطانه إلى =

والفنون . وفي عهده ازدهرت العلوم والفنون التي شملت رعايته في الاندلس ازدهاراً عظيماً . وكذلك شجع الحكم الصناعة والزراعة فانتجت العجائب . وفي هذه الأثناء تحلى المسلمون باللين ورقت طباعهم وتجردوا من خشونة العهود الاولى . وكذلك تحسنت وضعية المرأة وارتفع مقامها الاجتماعي ، وسطع نجم عدد منهن في مجالات مثل الشعر والغناء والموسيقى⁽⁵⁹⁾ .

وفي بداية عهده في الحكم قام الحكم بعدة غزوات وقاتل المسيحيين في غليسية وأشتورة وكتالونية . ولكنه حينما جنح المسيحيون إلى السلم سارع إلى استجابة رغباتهم . ولما ألحَّ عليه وزراؤه في وقت ما بالنصيحة بالغاء المعاهدات التي تربطه بالمسيحيين ، بحجة أن المسلمين الاتقياء تواقون إلى الجهاد في سبيل الله ، رفض نصيحتهم قائلاً إنه يجب على المسلم أن لا ينكث عهده ، وإلا حاسبه الله على ذلك حساباً عسيراً⁽⁶⁰⁾ .

ومن ضمن الشروط التي فرضها الحكم بموجب معاهدة الصلح على كونت برشلونة ونبلاء كتالونية أنه يجب عليهم تدمير جميع الحصون والقلاع في بلادهم ، ولا سيما تلك التي تقع عند تخوم مملكته . وكذلك اشترط عليهم أن لا يدخلوا في أي حلف مع المسيحيين الذين يحاربهم .

وفي هذه الأثناء استمر المسلمون على احتلال بروفانس ودوفيني في الوقت الذي كانوا يهددون فيه بقية البلاد المجاورة . وفي النزاعات التي كانت تقع بين

= المغرب الأقصى حيث خضع له ملوك زناتة وخطبوا باسمه . وقد امتدت ولايته خمسة عشر عاما عرفت خلالها الأندلس ازدهاراً ورقياً نادر المثال ، انظر اخباره في نفح الطيب ، 382/1 وما يليها ، العبر ، 144/4 ، جهرة انساب العرب ، ص 92 ، جذوة المقتبس ، ص 13 ، المغرب لابن سعيد ، 181/1 .

(59) راجع المصدر المذكور : Code, Historia, T. I, p. 482

(60) نفس المصدر 464/1 .

المسيحيين ، كانت كلمة المسلمين ذات ثقل يرجح الكفة في صالح أحد الأطراف .

وفي هذه الفترة كان أوthon الذي انتصر على الهنغارين وضمن لنفسه السيادة المطلقة على جميع بلاد الالمان ، كان يسعى لمد سلطانه حتى يشمل ايطاليا . وأما بيرانجي ، ملك لومبارديا ، فقد اضطر الى التخلي عن ولاياته ، في الوقت الذي ارغم فيه ملك المانيا البابا على تقسيم التاج الامبراطوري . ولكن السياسة الايطالية التي تحاول تخليص البلاد من النير الأجنبي ، سوف تنجم عنها حروب وثورات لا تكاد تنتهي .

كان « ادلبر » (Adaber) ابن بيرانجي يعمل بدون فتور لاسترجاع الولايات التي ضاعت من مملكة ابيه . ويقول بعض المؤرخين أنه استعان لهذه الغاية بالمسلمين في حصن فراكسنيث ، الأمر الذي أغاض البابا جان 12 الذي توج من قبل بيده أوthon امبراطوراً .

وفي سنة 965 م . طرد العرب من جرونوبل التي كان رهبانها ، كما سبق أن ذكرنا ، قد التجئوا إلى سانت دونات ، في ضواحي بلنسية . وفي السنة نفسها كان « إيزارن » (Isarn) شديد الحرص على استرجاع ممتلكات كنيسته ، فوجه نداء إلى النبلاء والمحاربين للاشتراك في القتال . وبالنظر إلى أن المسلمين كانوا يمتلكون أخصب الأراضي وأكثرها ثروة ، فقد اتفقوا على أن يمنح كل محارب قطعة من الأرض التي تستخلص من يد المسلمين مكافأة له على خدماته . وبعد طرد المسلمين من جرونوبل ومن وادي « جريزفودان » (Graisivandan) ، تم توزيع تلك الأراضي ، وبعض الاسر في دوفيني ، مثل اسرة « اينار » (Inard) يدعون أن اصل ثروتهم يرجع إلى هذا التقسيم .

سارع ايزارن إلى القضاء على الفوضى وإعادة النظام إلى نصابه في

منطقة اسقفية . وبحكم كونه هو الغازي ، فقد أعلن نفسه سيداً على المدينة ومنطقتها ، وقد احتفظ خلفاؤه من بعده بهذه الامتيازات حتى قيام الثورة الفرنسية⁽⁶¹⁾ .

كان كل هذا النجاح المتواصل دليلاً على أن حالة المسلمين في تدهور ، وهو أمر كان يثير حفيظتهم ويشحذ عزمهم ويدفعهم الى الظهور من جديد على مسرح الاحداث ليواجهوا أولئك الذين يسعون للتخلص منهم .

وفي سنة 968 م ؛ كانت الأحداث قد اضطرت الامبراطور أوثون إلى البقاء في ايطاليا حيث أعلن أنه سوف يكرس جهوده لمهمة وطنية⁽⁶²⁾ . ولكن أوثون مات قبل أن يحقق ما وعد به . وقد تطلب الأمر قيام المسلمين بأعمال جريئة أخرى حتى تقرر الشعوب أن تقوم بنفسها بتلك المهمة .

كان القديس « مايول » (Saint Mayeul) يحظى باحترام وتقدير الجميع ، الشعوب والملوك معاً . وكان سانت مايول قد أصبح رئيساً لدير « كلوني » (Cluny) في بورجونيا ، وبلغ درجة من الشهرة أن النية كانت قد

(61) احيط موضوع احتلال المسلمين لمدينة جرونوبل ولوادي جريسفودان بكثير من التشكك ، ونحن سبق لنا أن أوردنا شهادة لا تقبل الجدل في دلالتها على هذا الاحتلال الذي يؤكد سجل كنيسة سانت هوج في جرونوبل . انظر :

Ghorier, Etat politique de la Provence du Dauphini T. II, p. 69 et II, p. 77.

وهذا الكتاب يحتوي على خريطة وسجل لتوزيع الأراضي التي اقطعها إيزارن « لرودولف » (Rodolphe)، رئيس بيت اينار تقديراً لشجاعته . والشيء الرئيسي الذي احاط احتلال المسلمين لجرونوبل بظلال من الشك ، هو أن جميع الوثائق المكتوبة تقريباً تشير إلى هؤلاء باسم « الوثنيين » . راجع كذلك :

Pilot, Histoire de Grenoble, Grenoble, 1828, Recueil des historiens de France, P. 757 et suiv.

(62) راجع المصدر المذكور . Witikind, dans le recueil de Meilon, T. I, p. 661.

اتجهت في وقت معين إلى انتخابه لمنصب البابا .

قام سانت مايول بزيارة روما لاداء واجبه الديني ، وفي طريق عودته اتجه إلى بيمونت وقرر أن يمرّ بجبل « جُنيف » (Mont - Genève) وبوادي دوفيني⁽⁶³⁾ .

كان المسلمون في تلك الآونة يحتلون المنطقة بين « جاب » (Gap) وأمبرون ، والمرتفعات التي تشرف على وادي « دراك » (Drac)⁽⁶⁴⁾ . في مقابل « جسر أورسيير » (Pont J'orcières) .

ولما وصل سانت مايول إلى قاعدة جبال الالب ، اعتقد جمع غفير من الحجاج عادوا من روما والذين كانوا ينتظرون منذ وقت طويل فرصة لقطع هذه الجبال ، إن هذه هي الفرصة الملائمة . وهكذا تحركت قافلتهم وساروا في الطريق الى بلدهم . ولما وصلوا الى ضفاف نهر دراك ، في مكان ضيق بين النهر والجبل . انهالت عليهم رماح المسلمين الذين كانوا يحتلون تلك المرتفعات والذين كان عددهم الفاً . عبثاً حاول المسيحيون الذين أحيط بهم من كل جانب الفرار ، وقد أخذ معظمهم اسرى ، وكان القديس بين هؤلاء ، وقد أسر بعدما أصيب بجرح في يده ، بينما كان يحمي أحد اتباعه .

سيق الأسرى إلى مكان منعزل ، وكان أكثر الحجاج فقراء لا يطمع من ورائهم في مغنم ، فاقرب العرب من القديس وسألوه عن مدى ما يملكه من الثروة ، فأجابهم بأنه ينتمي إلى أسرة ثرية ، ولكنه تنازل عن جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة الله ، وهو الآن رئيس دير ذي أملاك واسعة وأراضي

(63) Pons Ursarii . انظر المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. IX, p. 126 et 127.

(64) نهر يتلقى موارده من جبال الالب وينصب في نهر « ايسر » (Isère) على مسافة 150 كيلو متر من مدينة جروبويل .

شاسعة ، ثم جرت بينه وبينهم مساومة بشأن فديته ، واتفقوا على مبلغ ألف ليرة من الفضة ، وهو ما يساوي ثمانين ألف فرنك من العملة الفرنسية الحالية . وقد طلب العرب من القديس أن يبعث برفيقه إلى دير كلوني ليحمل إليهم مال الفدية ، وضربوا له موعداً ، وقالوا له إن فات هذا الموعد ولم يصلهم المال ، قتلوا القديس وسائر الأسرى ، كتب القديس إلى رهبان دير كلوني رسالة جاء فيها : « إلى الأخوان رهبان دير كلوني ، من مايول المسكين المقيد بالاغلال الخ . . . والذي مسته لذعات الموت⁽⁶⁵⁾ .

وبعد ما قرأوا هذه الرسالة استغرق جميع الكهان في الدير في البكاء ، وسارعوا إلى جمع الأموال الموجودة في الدير وجردوا الأخير مما يحتوي عليه من الزينة ، ثم التجأوا إلى سكان المنطقة واستدروا عطفهم وجمعوا منهم مبالغ على سبيل الصدقة ، حتى حصلوا في نهاية الأمر على المبلغ المتفق عليه وسلموه إلى المسلمين الذين اطلقوا سراح جميع الأسرى المسيحيين .

وفي الوقت الذي كان فيه القديس في الأسر ، كان يحاول أن يعظ المسلمين ويرشدهم قائلاً إن الذي يؤمنون به لا ينفعهم في شيء ولا يخلصهم من العذاب ، وقد أراد أن يثبت لهم حقيقة المسيحية . ولما سمعوا منه هذا الكلام هاجت حفيظتهم ، فشدوا وثاقه واقتادوه إلى أحد الكهوف وحبسوه فيه . وبعد أن سكن هيجانهم عادوا إلى معاملته بالحسنى ، فكان إذا اشتهى طعاماً أصلحوه له وجاء أحدهم وغسل يديه ووضع الطعام أمامه بكل أدب واحترام . وكان مع القديس نسخة من التوراة ، فجاء أحد المسلمين ومديده إليها بقلعة احترام ، فلامه رفقاؤه على ذلك ، وقالوا له : إن هذا كتاب مقدس ، ونحن معشر المسلمين نقدر جميع الكتب السماوية . وفي هذا السياق لاحظ أحد المؤرخين المعاصرين للأحداث أن المسلمين يحترمون العهد

(65) راجع : le 2e livre des rois, Ch. XXII, Vers 5.

القديم مثلنا ، ويرون المسيح نبيا كبيرا ، ولو أنهم يجعلونه أصغر من محمد بقولهم إن محمدا كان آخر الأنبياء وخاتم الرسل . وهم يقولون إن محمداً ينحدر من سلالة اسماعيل⁽⁶⁶⁾ .

وقع حادث أسر المسلمين للقديس في سنة 972 م ؛ وقد كان له دوي كبير في مختلف الأقطار الأوروبية وضج له المسيحيون الصغار والكبار وهبوا يطالبون بالأخذ بالثأر . وقد كان يوجد في نواحي « سيسترون »⁽⁶⁷⁾ (Sisteron) وفي قرية يقال لها « نوية » (Noyers) رجل نبيل يسمى « بوبون » (Bobon) كان قد استنفر الناس مرارا لتخليص هذه البلاد من قبضة المسلمين ، فانتهاز هذه الفرصة التي بلغ فيها غضب الناس أقصاه بسبب الحادث الذي وقع للقديس ، فالتف حوله كثير من سكان البوادي والخواضر ممن ثارت نعرتهم للدين من العامة والأعيان ، ثم شيد حصنا في سيسترون بجانب حصن كان ينزل به المسلمون ، وكانت نيته مراقبة جميع تحركاتهم حتى ينقض عليهم بجموعه على غرة ويقضي عليهم قضاء مبرما .

حاول المسلمون أن يعرقلوا مساعي بوبون هذا فلم يفلحوا ، وقد كان الحصن الذي يحتله المسلمون يقع على قمة جبل يقال له « بيترة امبيا » (Petra- Empia) . وبينما كان الفريقان يناور أحدهما الآخر ، إذا اغتصب قائد الحصن العربي زوجة الحارس الموكول إليه باب الحصن ، فانتقم الزوج

(66) راجع كتاب المؤلف :

Monumemts arabes, Persans et Turcs, T. I et II.

وفيه تفصيل حول اعتقاد المسلمين بشأن اسماعيل والمسيح ومحمد .

(67) استقيننا التفاصيل التي تتصل بالأماكن من السيد لابلان . (la Plane) الذي ينتمي إلى سيسترون نفسها والذي وضع دراسة عن العصور الوسطى . راجع كذلك ، المصدر

المذكور : Bouche T. I, p. 240.

لنفسه لهذه الفعلة ، فعرض على بوبون أن يفتح له باب الحصن على حين غرة ليدخل إلى الحصن ويفتك بمن فيه .

وهكذا تمَّ ما أراد الاثنان ، فجاء بوبون على رأس رجاله فوجد الباب مفتوحاً ودخلوا الحصن وذبحوا من فيه من المسلمين ، ما عدا الذين عرضوا أن يعتنقوا المسيحية في مقابل الأبقاء على حياتهم ، وكان قائد الحصن من جملة هؤلاء .

وفي هذه الفترة نفسها ، كان سكان جاب⁽⁶⁸⁾ . قد ثاروا على العرب وتخلصوا من حكمهم . وقد جاء في كتاب قديم عن هذه المدينة⁽⁶⁹⁾ أن الذي جمع كلمة الأهليين ونظم هذه الثورة على العرب هو رجل يقال له جيوم ، وقد هاجم العرب على رأس عدد كبير من المحاربين في جميع المواقع التي كانوا يحتلونها واستأصل شافتهم . وقد كانت مكافأة المقاتلين نصف المدينة ونصف الأراضي التابعة لها بينما ترك النصف الآخر للأسقف وللكنائس التابعة لاسقفيته .

وهكذا تحررت بلاد الدوفيني ، وأصبح خلاص مملكة بروفانس بعد ذلك قاب قوسين أو أدنى . إنه لمن المؤسف أن المؤرخين لم يسجلوا شيئاً يذكر عن هذه الأحداث . وكل ما نعرفه هو أن جيوم ، كونه بروفانس هو الذي قاد الناس في تلك الحرب⁽⁷⁰⁾ ، ولربما كان جيوم هذا هو نفسه جيوم الذي قضى

(68) نفس المصدر ، 44/2 .

(69) Gap قصبة مقاطعة الألب العليا حالياً ، وتقع على مسافة 660 كيلومتر في الجنوب الشرقي من باريس على ضفة نهر « لوي » (Luye ، احد روافد نهر دورانس المتقدم ، ويبلغ عدد سكانها في الوقت الحاضر 25417 (1979) نسمة ، وقد ظل المسلمون يحتلونها مدة طويلة .

(70) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. VIII, p. 240

على حكم المسلمين في جاب ، لأن جاب كانت تابعة لمملكة بروفانس⁽⁷¹⁾ .

كان جيوم محبوبا لدى رعيته بسبب ميله إلى العدل وتمسكه باهداب الدين ، وكان برا بالرعية . ولما استنفر أهالي دوفيني السفلى ونيس لقتال العرب ولمهاجمة قلعتهم ، فراكسنت ، لبوا نداءه ، فاجتمع لديه خلق كثير . وعندما علم العرب أن أهالي البلاد ضيقوا عليهم الحصار من كل جانب ، نزلوا من جبالهم مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم في صفوف متراسة ، دفاع الأبطال . ويبدو أن المعركة الأولى بين الطرفين وقعت في نواحي « دراجينان » (Draginon) ، وفي مكان يقال له « تورتور » (Tourtour) حيث يوجد حتى الآن برج بني منذ ذلك الوقت ، تخليداً لذكرى تلك المعركة التي انهزم فيها المسلمون والتجأوا إلى حصن منيع⁽⁷²⁾ ولكن المسيحيين ضيقوا الخناق عليهم حتى اضطروهم إلى مغادرة الحصن ليلاً والالتجاء إلى الغابة المجاورة ، حيث طاردهم الأهالي وتغلبوا عليهم ، فقتلوا أكثرهم وأخذ الباقون اسرى⁽⁷³⁾ . وقد

(71) وأما بروفانس فقد كانت تابعة لمملكة بورجونيا التي كان ملكها في ذلك الوقت « كونراد » (Conrad) الذي نعدم الحديث عنه .

(72) راجع المصدر المذكور : Bouche, Histoire de Provence, T. II, p. 42.

(73) راجع المصدر المذكور : Recueil des historiens de France, T. IX, p. 127.

إن من المرجح أن يكون بعض المسلمين قد التجأوا بعد هذه المعركة عن طريق البحر إلى الأندلس أو إلى صقلية أو إلى الشواطئ الأفريقية . وقد ذكر d'Herbelot في

كتابه : la Bibliotheque orientale,

وكذلك Cardonne في كتابه Histoire des Maures D'afrique, T.II, P. 82

انه في تلك الفترة ، أي في نواحي سنة 970م ، كان المسلمون سادة جزيرة سرديانية(*) وأن المعز (العبيدي) قد أقام مدة سنة في سرديانيا قبل فتح مصر . وهذه الرواية يوافق عليها Minaut في كتابه :

=

(*) انظر بشأن فتح المسلمين لسردانية مختلف الروايات التي جمعها شكيب ارسلان في غزوات العرب ، ص 242 - 244 .

عفوا عن جميع من وقع في الأسر واستسلم من المسلمين ، كما أنهم لم يقتلو المسلمين الذين كانوا يقيمون وادعين في القرى المجاورة . وبعض هؤلاء تنصروا فيما بعد واندمجوا في الأهالي مع مرور الزمن ، والبعض الآخر تمسكوا باسلامهم ولكنهم تحولوا إلى رقيق يستخدمون في أراضي الكنائس أو في أراضي الملاك الأغنياء . وقد بقيت لهذه الفئة من المسلمين بقايا ظلت معروفة مدة طويلة كما سيأتي الكلام على ذلك .

سقط حصن فراكسنيث في سنة 975 م ، بعدما بقي في يد المسلمين أكثر من ثمانين سنة . ولما كان القاعدة والمركز الذي انتشر منه المسلمون وتوغلوا في داخل الأراضي الفرنسية وفي شمال إيطاليا وسويسرا ، فلا بد وأن يكون هذا الحصن مليئاً بالأموال والذخائر . وقد وزع الكونت جيوم ، كونت بروفانس ، ما أخذه منه من الأموال على المحاربين الذين برزوا في قتال المسلمين ، وأشهر هؤلاء هو « جيلين دو جريمالدي » (Gillin de Grimaldi) ، الذي كان من أهل جنوه ، والذي كوفئ على شجاعته واقدامه بالأراضي الواقعة على خليج سانترويز .

ومن الذين يذكرون أيضاً بين المشاهير الذين جالدوا العرب وقاتلوهم في

= 93 p. T. I, Histoire de Sardaigne . ولكن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة حيث أن النويري الذي اعتمد عليه دريلو وكاردون يقتصر على القول بأن الخليفة الفاطمي قد قضى سنة في قصر سردانية قبل رحيله إلى مصر . وهذا المكان يقع في افريقية غير بعيد من القيروان . راجع : Le Recueil des Notices et extrait des manuscrits, T. XII, p. 483 . وكذلك يفترض Dlbem في كتابه ، De Regno Burgundiae, p. 146 أن العرب كانوا يملكون جزيرة سردانية بل وكورسيكا أيضاً في هذه الفترة . وهو يتحدث عن أمير اسمه مجاهد (Muget) وجه كونت بروفانس جيوشه ضده بتعاون مع الجنوئين والبيزين . ولا شك أن دلبين يقصد الأمير مجاهد الذي اغار عن سردانية ، ولكن قصة هذه الغارة جاءت متأخرة عن هذا التاريخ بنحو ثلاثين سنة . ونحن سنعود إلى الموضوع فيما بعد .

صبر وثبات في هذه الحرب ، مسيحي آلت إليه السيادة على مدينة كستلان (Castalane) في مقاطعة الألب السفلى ، وأحد المحاربين الذين اشتركوا في هذه ، وهو جد آل كستلان الذين لا شك في أن أصل ثروتهم يعود إلى هذه المعركة . وكذلك يجب أن نذكر بصفة خاصة تحرير مدينة « ريز » (Riez) في الألب السفلى التي لا يزال أهلها يحتفلون كل سنة بخلاصهم في يوم يصادف يوم عيد العنصرة ، ويشترون فيه في معارك وهمية⁽⁷⁴⁾ .

وكذلك استولت الكنيسة على حصة مهمة من الأراضي التي جلى عنها المسلمون ، وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد تضرروا أكثر من غيرهم من الغارات التي كان يشنها العرب ، كما كانوا دائما في مقدمة الثائرين لتحرير البلد من السيطرة العربية ، وكذلك أصاب اسقف فرينجوس واسقف نيس حصة كبيرة من الأراضي التي كانت في يد المسلمين⁽⁷⁵⁾ .

وفي بعض المقاطعات التي لم يكن يوجد بها سكان ، كطولون ، مثلا ، سارعت الجموع لاحتلال الأراضي التي جلى عنها المسلمون ، ووقع كثير من النزاعات والخصومات ، وذلك لأن حكم المسلمين لهذه المنطقة كان طويلا ، الأمر الذي اندثرت معه حدود الملكيات القديمة وأصبحت معالمها مجهولة . وقد سارع الكونت جيوم من آرل لحسم النزاعات وأجرى تقسيم الأرض بين الأديرة والأهالي والأمراء⁽⁷⁶⁾ . وشيئا فشيئا قامت المدن المهتمة من خرائبها

(74) راجع المصدر المذكور : Gallia Christiana, T. I, p. 425

(75) أنظر : Dom Martenne, Amplissima Collectio, T. I, p. 349.

(76) بعد رحيل العرب عن الشواطئ بقيت عصابات منهم في جبال الألب ، ولا بد من الاعتقاد بأن السكان قد قضوا عليهم أو اخضعوهم واتخذوا منهم عبيدا في هذه الفترة . ولكن دلبيم (Delbème) (المصدر المذكور ، ص 169 و 187) يقول إن المسلمين ظلوا في جبال الألب حتى سنة 980 م ، بل وبعد سنة 1000 م ؛ حين يذكر أن رجلا من ساكسون يسميه « جيرولدوس » (Girolodus) قد أحرز انتصارا كبيرا عليهم . ولكن هذه الرواية مشكوك فيها .

واستعداد السكان الذين ظلوا مدة طويلة بدون اتصال علاقاتهم القديمة .
وجد اخلاص جيوم في الكفاح طيلة حياته جزاءه في حب الشعب له
بحيث اطلق عليه لدى وفاته لقب « أبو الوطن » .

وإذن، فقد سقط حصن فراكسنت في أيدي المسيحيين، كما رأينا، في
سنة 975 م . ومنذ ذلك الوقت لم يعد المسلمون يمتلكون شيئاً في ارض
فرنسا، وبالنظر إلى أن الولايات الشمالية من الأندلس التي استولى عليها
المسيحيون منذ قرنين تشكل حاجزاً منيعاً، فقد أصبح من الواضح أن
المسيحية لم تعد تتعرض لخطر من المسلمين بعد الآن . ومع ذلك ، فقد ظل
خطر الغارات البحرية التي يشنها العرب على الأراضي الفرنسية قائماً .

ولكن الخليفة الحكم الثاني مات في سنة 976 م (366 هـ .) ، وكان
ابنه الذي خلفه معتوها ، فتقلد الأمور بالنيابة عنه الحاجب الملقب بالمنصور
(بن أبي عامر)⁽⁷⁷⁾ . كان المنصور نشيطاً مقداماً حسن التدبير ويتمص روح

(77) لا يوجد في المصادر التي بين ايدينا ما يبرر نعت المؤلف هشام المؤيد بالمعتوه (réduit à l'état d'imbecilité) وكل ما في الأمر أن هشاماً الذي ولد في سنة 355 هـ . كان
صغير السن ولم يكن يتجاوز سنه لدى وفاة ابيه (سنة 366) 11 سنة وهذا الاعتبار ،
بالاضافة إلى ظروف سياسية داخلية وخارجية اخرى هي التي فرضت وصاية الحاجب
المنصور .

والمنصور بن أبي عامر (محمد بن عبد الله المعافري القحطاني ، 226 - 393 هـ) . أصله
من الجزيرة الخضراء ، قدم قرطبة شاباً لطلب العلم ، واستخلف فيها بعد ، على كورة
« رية » ثم عمل وكيلاً لأم هشام ، قبل أن يولى الشرطة ثم قضاء اشبيلية . ولما مات
الحكم خيف على الأمن في البلد بسبب صغر سن هشام فتولى نوعاً من الوصاية على
العرش ، بلقب « حاجب » (وهو ما يساوي رئيس الوزراء اليوم) فضمن استقرار
البلاد وقام بشئون الدولة كما لو كان ملكاً غير متوج . وقد اشتهر المنصور بالخصافة
والشجاعة فعمل على توسيع رقعة المملكة التي ظل على رأسها 26 سنة بالغزو والفتح ،
وقد قام في حياته بست وخمسين غزوة لم ينهزم في واحدة منها علمه . =

الفاتحين الأولين ويبعث الحياة في افكارهم . وقد أضاف إلى تراث الأوائل ما كسبه المسلمون في غضون القرن الماضي من مآثر الرقي والحضارة ، وقد كان يهدد المسيحيين في اسبانيا وفي البلاد المجاورة بالخراب والدمار الشامل . وكذلك بعث الغارات إلى مختلف اطراف بلاد النصرانية ووقع الذعر في نفوس سكانها .

بدأ المنصور عندما تسلم زمام الأمور باعادة النظام إلى الولايات الافريقية (التابعة للخليفة) حيث كانت على وشك الخروج على طاعة قرطبة ، ثم جند الجيوش العديدة من هذه البلاد ، كما استنفر أهل الأندلس منتخبا منهم اشجع الشبان واخذ يشوقهم إلى القتال ويمرنهم عليه ، وكان هؤلاء يشكون من أنهم تركوا واهملوا بدون حركة مدة طويلة كان جميع مسلمي اسبانيا تقريبا من المغاربة أصلا ، أو من البلدان الواقعة في المناطق الاستوائية ، ولذلك فهم لم يكن في استطاعتهم تحمل برد الشتاء القارس في البلدان الشمالية . هذا من جهة ومن جهة اخرى ، فإن الجيش ، فيما عدا حرس الخليفة ، لم يكن نظامياً ، وبعبارة اخرى لم يكن يقوم بالخدمة العسكرية بصفة مستمرة ، وإنما كان الناس ينخرطون في الجيش في نطاق حملة معينة ثم ينفرط عقد الجيش ويعود كل رجل إلى ممارسة حياته العادية . ونتيجة لهذا التقليد ، فإن غزوات المنصور كانت كلها ، فيما عدا غزوة واحدة ، كانت تقع في الصيف . ومع ذلك ، فقد بلغ عدد غزواته 56 غزوة ، لم يهزم فيها علمه في واحدة منها ، حسبما ذكر احد الكتاب العرب ، ولم يدر جيشه ظهره للعدو .

= راجع اخباره في الحلة السيرة ، 268/1 وما يليها ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص 80 ، العبر ، 147/4 ، نفح الطيب ، 407/1 - 429 ، الوافي بالوفيات ، 313/3 ، المغرب لابن سعيد ، 194/1 الكامل لابن الأثير ، 61/9 ، بغية الملتبس ، ص 105 ، وفيات الأعيان (الفهرس) .

كان الجنود المسلمون كلهم تقريبا من الفرسان . فإذا قصدوا إلى بلاد النصرارى وهزموا لهم جيشاً ، قتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وباعوهم في اسواق النخاسين . وهكذا كانت اسواق قرطبة واشبيلية وأشبونة وغرناطة تكتظ بالرقيق من ذكور وإناث ، عقب كل غزوة من غزوات المنصور بن أبي عامر ، وكان النخاسون يأخذون هذه المخلوقات التبعة إلى اسواق افريقية ومصر وغيرها من بلاد الاسلام لتوزيعها هناك .

وقد كان المنصور يرى في جهاد الكفار أفضل عمل يتقرب به إلى الله ، فكان يصطحب معه في غزواته تابوتا ليوضع فيها جثمانه إذا قدر له الاستشهاد . وكذلك كان من عادته أن ينفذ الغبار الذي يعلق بثيابه اثناء غزواته ويجعله في ذلك التابوت ، وقد أوصى أن تصنع منه لبنة توضع وسادة تحت رأسه عند موته . وقد صالت الجيوش الاسلامية وجالت تحت راية المنصور في قشتالة وليون نابرة وأراجون وكतालونية ، وتوغلت حتى وصلت إلى جاشقونية ولانجدوك وجنوبي فرنسا .

وقد طرقت خيل المسلمين تحت رايته أماكن لم يخفق فيها العلم الاسلامي من قبل⁽⁷⁸⁾ وكذلك سقطت في يده مدينة شنت ياقب ، وهي أقدس مدينة مسيحية في اسبانيا ، فاخذت أجراس كنيستها (وهي كنيسة القديس ياقب) بعدما ذهبت طعمة للنيران⁽⁷⁹⁾ . إلى قرطبة حيث صنعت منها قناديل .

(78) في نفع الطيب للمقري (416/1) : « وانهت الجيوش إلى جزيرة شنت مانكش ، منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطنها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيال مجال ، ولا وراءها انتقال ، وانكفا المنصور عن باب شنت ياقب ، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله » .

(79) راجع عن فتح مدينة شنت ياقب نفس المصدر (413/1 - 415) وفيه : « فوجدوا المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها واسوارها =

ولكي يزيد المنصور من قيمة انتصاره ويعمّن في اذلال المسيحيين ، أمر أن يحمل الأسرى منهم هذه الأجراس على اكتافهم طول الطريق التي تمتد مائتي فرسخ .

لقد اقتربت نهاية المسيحية في الاندلس لو لم يسارع المسيحيون إلى وضع حد لنزاعاتهم الداخلية ولو لم تمتد اليهم يد إخوانهم للمساعدة عبر جبال البيرينيز . فقد اتحد ملك ليون وملك نابرة وملك قشتالة وغيرها من ممالك النصارى ، ونبذوا الخلاف وراءهم ظهرياً ، وصاروا كتلة واحدة في وجه المسلمين ، كما تسلح القساوسة وساروا في مقدمة المحاربين⁽⁸⁰⁾ . وفي نفس الوقت وجهوا نداء إلى المحاربين من جاشقونية ولانجدوك وبروفانس وإلى جيوش المقاطعات الفرنسية ، فاجتمعت جيوش جرارة للمسيحيين في حدود قشتالة . ومن جهته ، جمع المنصور بن أبي علّام كل ما تحت يده من القوة العسكرية واستعد لهذه الوقعة التي صمم فيها الطرفان على النصر أو الموت . وكذلك التقى الجمعان في ضواحي « سوريا » (Soria)⁽⁸¹⁾ غير بعيد من نهر « دويرو » (Duero)⁽⁸²⁾ فكانت معركة هائلة استغرقت يوماً كاملاً جرت فيه الدماء أنهار ، ولم يرض أحد الطرفين بالتنازل عن شبر للآخر ، ولكن المسيحيين الذين كان أكثرهم في زرد الحديد كانوا أكثر مناعة وأقل أضراراً . ولما خيم الظلام رجع المنصور الذي كان قد أصيب بعدة جروح إلى خيمته ،

= وكنيستها ، وعفوا آثارها ، ووكّل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشياً كأن لم تغن بالأمس » .

(80) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. X, p. 21 .

(81) مدينة إسبانية تقع في قشتالة القديمة يبلغ عدد سكانها في وقتنا هذا 20000 نسمة . لها كنيسة رومانية قوطية .

(82) Duro بالفرنسية . نهر يجري في إسبانيا والبرتغال ، تقع منابعه في قشتالة القديمة ، ويبلغ طول مجراه 850 كيلو متراً ، وينصب في المحيط الأطلسي عند مدينة بورتو (Porto) البرتغالية .

على نية استئناف القتال في اليوم التالي ، وهناك انتظر بعض الوقت امراء الجيوش والقواد لكي يتشاور معهم وينسقوا خططهم في هجوم جديد يوم الغد ، ولكنه لم يحضر أحد منهم . ولما سأل عن سبب تأخرهم ، قيل له أنهم سقطوا جميعاً صرعاً في المعركة . وعندئذ أدرك المنصور أن الهزيمة ستكون نهاية المعركة ، فاعتل جسمه ورفض العلاج ، فمات بعد ذلك بضعة أيام⁽⁸³⁾ . وقد كفنوه في ثيابه التي كانت عليه ووضعوه في التابوت الذي أعده لدفنه والذي كان ينقل معه . وقبره لا يزال موجوداً حتى الآن في مدينة « سالم » (Medina Caeli)⁽⁸⁴⁾ .

كان ذلك في سنة 1002 م (399 هـ) . حين خلف الحاجب المنصور ابنه عبدالملك⁽⁸⁵⁾ . في تسيير شئون الدولة . وقد مات عبدالملك في سنة

(83) قارن بشأن الظروف التي مات فيها المنصور بن أبي عامر ، نفح الطيب (402/1) الذي يقول صاحبه إن وفاته كانت بشهر صفر ، والحلة السراء (272/1) ، وفيه أنه مات في شهر رمضان سنة 399 هـ . وجاء فيه : « خرج غازيا وقد وقع في مرضه الذي مات فيه فاقتحم جليقية من تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضه يخف وقتاً ويثقل أوقاتاً ، وقويت عليه العلة بارض قشتالية ، فاتخذ له سرير من خشب يحمل على اعناق الرجال ، قطع بذلك اربعة عشر يوما ، حتى وصل إلى مدينة سالم وتوفي ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر رمضان » . انظر اخباره كذلك في الذخيرة (طبعة احسان عباس) ص 227 - 229 و 249 - 251) .

(84) استطاع المنصور اثناء مدة ولايته الجمع بين حب المجد الذي يكسب بحد السيف ، وذوق رفيع للفنون والآداب ، والاهتمام بالصناعة والزراعة . وهكذا ، فإن الأندلس لم يعرف في تاريخه قط عهداً أكثر ازدهاراً ورخاءاً من عهده . وفي عهد المنصور بدأت افكار الفروسية تنمو وينمو معها الشعور بالشرف واحترام المرأة والضعيف والمساكين . وستنتشر هذه الأفكار من الأندلس الاسلامية لتتوغل في الشعر والقصص الأوروبي قبل أن تصبح المؤسسة التي تضبط قواعد السلوك في أوروبا قبل أن تنقض عليها الآلة الصناعية وينال عليها سرفانتس بالسخرية والتهكم في كتاب « الدون كيشوط » .

(85) عبد الملك العامري (المظفر) (ت 399 هـ .) . ثاني امراء الأسرة العامرية . كان في أيام ابيه =

1008 م . (399 هـ) . وموت هذا الأمير انتهت أجمل أيام الأندلس الإسلامية ، وبدأ عهد المحن والقتال . فإن الحرب الأهلية لم تلبث أن اندلعت نيرانها بين المسلمين ، وكانت الحكومات تنقلب بنفس السرعة التي تقام بها . وكذلك ضعفت روح الوطنية وتضعضع الايمان بالاسلام في النفوس مع مرور الأيام .

كان يمكن للمسيحيين في الولايات الشمالية أن يدخلوا الى الاندلس ويسترجعوا هذه الأرض ، لولا أنهم كانوا هم أيضاً في خصام ونزاعات . فإن الوحدة بين مملكتي نابرة وجليقية لم تكن أفضل من الوحدة التي تسود بين صفوف أعدائهم .

والملاحظ أن المسيحيين كانوا كثيراً ما يستنجد بهم ويشاركون في الحروب التي وقعت بين المسلمين في هذه الفترة ، وكانت مساهمتهم تقوم دائماً على أساس الفوائد التي يجنونها في الانحياز لصف أو لآخر ، وهم كثيراً ما يقاتل بعضهم بعضاً . بل إن الاساقفة وكبار رجال الكنيسة أنفسهم قد انخرطوا في هذه الحروب .

وفي سنة 1009 م ؛ كان الفريق الذي ناصره المسيحيون من قشتالة في معركة وقعت في ضواحي قرطبة قد أحرز نصراً باهراً على الفريق الاسلامي الآخر . ولكن الفريق الذي كان حظه الهزيمة استعان بعد ذلك بمسيحيي كتالونية الذين زحفوا حتى قلب الأندلس . وقد فقد هؤلاء في الحرب ، ضمن

= المنصور ينوب عنه في الحجابة لهشام المؤيد في قرطبة . وبعد وفاة المنصور كتب له المؤيد بولاية الحجابة مكان أبيه . وتلقب بسيف الدولة و « الملك المظفر بالله » . وقد واصل عمل ابيه وكسب له حب الناس ، ولا سيما بعدما اسقط سدس الحباية . ومثل ابيه أيضاً خاض المعارك وشن الغزوات وهابه ملوك الافرنج . وقد بلغ عدد غزواته لبلاد الافرنج سبعة . انظر أخباره في البيان المغرب ، 3/3 ، بغية الملتبس ، ص 106 ، المغرب لابن سعيد ، 207/1 ، الذخيرة ، (الفهرس) النفح ، 423/1 .

ما فقدوه ، ثلاثة من أساقفتهم ، وأحد رجالهم الشجعان الذين طبق اسمهم الآفاق ، ويدعى الكونت « أورجل » (Urgel) .

وبالطبع ، فإن معظم المسلمين كانوا يستفظعون القتال جنباً إلى جنب مع المسيحيين ، ومتى وقع مسيحي في أيديهم كانوا لا يرحمونه ، ويذكر أحد المؤرخين الفرنسيين أن المسلمين قطعوا رأس رجل يسمى « إيرمانجو » (Ermangand) في المعركة الأخيرة ، وإن رئيسهم قد أخذ حجمته كما لو كانت من غنائم الحرب⁽⁸⁶⁾ .

ونحن لا نريد أن نواصل هذا السرد للأحداث ، فإن مسلمي الأندلس لم يعد في طاعتهم غزو فرنسا بعد الآن ، وهذا في الوقت الذي دخلت فيه فرنسا في عهد جديد سيفضي بها إلى المجد والرخاء . وفي سنة 987 م ؛ تخلص الفرنسيون من ضعفهم ودخلوا في عهد من القوة تحت أسرة « كابت » (Hugue - Capet) ، ومن جهة أخرى ، فقد تنصر النورمانديون ، الذين أصبحوا عاملاً من عوامل القوة للمسيحية ، واستقروا في الأراضي الخصبة التي تحمل اسمهم⁽⁸⁷⁾ . وتركوا حياة العيث والفساد التي كانوا يمجونها قروناً عديدة . وكذلك تنصر الهنغاريون الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر

(86) راجع المصدر المذكور : Recueil des historiens de France, T. I, p. 148.

(87) نورماندي (Normandie) التي تتكون حالياً من خمس مقاطعات ، وهي مشهورة بتربية المواشي وبمنتجات الحليب ، مثل الجبنه والزبدة . كان شارل الثالث (البسيط) هو الذي تنازل عن هذه المقاطعة في سنة 911 م لزعيم النورماند ، « بولون » (Bollon) . وعندما غزا جيوم النغل بريطانيا (سنة 1066 م .) ضمت مقاطعة نورمانديا إلى انجلترا ، وبقيت تابعة لها حتى سنة 1204 م . وفي غضون حرب المائة سنة كانت نورمانديا موضع نزاع بين فرنسا وبريطانيا . وفي سنة 1420 م ؛ أصبحت دوقية نورمانديا خاضعة لانجلترا ، وهو وضع اعترفت به فرنسا خلال الفترة بين 1436 - 1450 م . وفي سنة 1468 ، أصبحت نورمانديا جزءاً من مملكة فرنسا .

الدنوب . وبعد ذلك أصبحت أوروبا كلها مسيحية . وعلى الرغم من أن النعرات والنزعات البشرية كانت لا تزال تعتمل في أحشائها ، فإن هذه البلاد نمت نظاماً قانونياً يحمي الناس عبر القرون ، تلك القوانين التي تشكل أساساً لحضارتها .

على أن شواطئ فرنسا وإيطاليا ظلت في غضون العصور التالية هدفاً لغارات القراصنة المسلمين . ففي سنة 1003 م . نزل مسلمون أندلسيون في أرض « أنتيب » (Antibes) وأخذوا بعض الرهبان أسرى . وفي سنة 1019 م . غزا مسلمون أندلسيون آخرون في غسق الليل مدينة أربونة ، وكانوا يأملون ، كما يقول أحد المؤرخين ، الاستيلاء عليها بدون مقاومة ، وقد حاولوا اقتحام المدينة ، ولكن الأهالي تجمعوا بقيادة القساوسة ثم هجموا عليهم وقتلوهم وأسرؤا منهم عشرين شخصاً كانوا في غاية الطول والعرض ، فأرسلوهم إلى دير سان مارسيل في « ليموج » (Limoge) ، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين ، ووزع الباقيين بين أصحابه . ويضيف المؤرخ الذي يروي هذه الأحداث أن لغة هؤلاء ليست اللغة العربية ، وإن حديثهم أشبه ما يكون بالنباح .

وفي سنة 1047 م . نزل مسلمون أندلسيون في جزيرة « لارين » (Lerins) التي طالما تعرضت قبل ذلك لغارات المسلمين . وقد أخذوا عدداً من الرهبان أسرى وعادوا بهم إلى الأندلس⁽⁸⁸⁾ .

وقد سافر ايزارن خصيصاً إلى الأندلس لشرايتهم في أسواق النخاسين⁽⁸⁹⁾ .

(88) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. X, p. 155.

(89) راجع المصدر المذكور : Mabillon, Annales Benidictini, T. IV, p. 489 et 493.

كان ازدياد أعمال العنف التي يقوم بها القراصنة المسلمون نتيجة مباشرة للحروب الدموية التي كان يخوض غمارها المسلمون في الاندلس في هذه الفترة . فإن بعض الأمراء الذين كانت حظوظهم تتأرجح بين النصر والهزيمة ، قد قرروا ، في آخر الأمر الاتجاه إلى البحر لتجربة حظهم .

ومن بين هؤلاء الأمراء ، ومن أشهرهم مجاهد العامري⁽⁹⁰⁾ . الذي استولى على دانية وجزر البليار⁽⁹¹⁾ . والافرنج يسمونه بتحريف « موجيت » (Muget) ، أو « موزكتوس » (Musectus) ، وقد كان هذا الأسف يلقي الرعب ، خصوصاً ، بين سكان سواحل بيزه وكورسيكة وسردانية وجنوة . وقد بلغت غنائم جنود مجاهد من هذه البلاد القناطر المقتطرة من الذهب والفضة . وفي إحدى هذه الغارات نجح المحاربون المسيحيون في الانتصار على القراصنة المسلمين فاسترجعوا الغنائم منهم ، وأرسلوا جزءاً منها إلى دير كلوني رجاء أن يبارك نصرهم⁽⁹²⁾ .

(90) مجاهد بن يوسف العامري بالولاء (ت 436 هـ .) . أبو الجيش ، مؤسس الدولة العامرية في دانية وفي جزر البليار . ولد بقرطبة ورباه المنصور بن أبي عامر ونسب إليه . بعد حوادث طويلة استقل بدانية ، على البحر الأبيض ، في سنة 412 هـ ؛ ومنها كان يطلق اسطوله للغارة على الجزر والشواطئ المقابلة . كان رجلاً شجاعاً حازماً عاقلاً متضلعا في علوم القرآن وفي الآداب العربية . وهو أحد ملوك الطوائف الذين ظهروا بعد انقراض الخلافة الأموية . انظر اخباره في بغية الملتبس ، ص 457 ، والبيان ، 155/3 ، والعبر ، 164/4 ، الحلة السيرة (الفهرس) نفح الطيب (الفهرس) ، المعجب ، 724 و 74 و 149 .

(91) هي الجزر الاسبانية الواقعة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وهي : ميورقة ومنورقة ويابسة (ابزه) وهي جزر تعيش على صيد السمك وتربية الحيوانات ، وزراعة الفواكه . استولى عليها جاك الأول ، ملك أرجونة وكون منها مملكة (سنة 1276 م .) هي المعروفة باسم مملكة ميورقة . وفي سنة 1344 م . ضمها إلى تاج أرجونة .

(92) قارن : Conde, Historia, T. I, 590 et 595 et le Recueil de Dom Bouquet, T. :

بقيت غارات المسلمين تتوالى على سواحل فرنسا حتى بنت فرنسا اسطولاً بحرياً واشتد ساعده ، ولكن هذه الغارات لم تتوقف تماماً إلا بعد ما استولت فرنسا على الجزائر⁽⁹³⁾ . وقد كانت سواحل لانجدوك وبروفانس توفر ملجأ أميناً وملائماً للمغيرين يتخذونها قواعد ليوجهوا منها غارات برية في داخل البلد .

كانت مدينة « ماجلون » (Maguelone) منذ عهد شارل مارتل ، مقصداً للغزاة المسلمين حتى اطلق عليها اسم « بور سارازين » (- Port Sarrazin) . ولكن هذه الوضعية انتهت في سنة 1040 م ؛ حين قام الأسقف « أرنو » (Arnould) بإعادة بناء المدينة وأعطى ميناءها وجهة أخرى . ولكن ماجلون سوف تتعرض لنفس الويلات في مرحلة تالية وسوف تسقط من جديد دون أن تنهض من كبوتها . والمرء يستطيع حتى الآن أن يشاهد آثاراً قرب هذه المدينة ساد الاعتقاد بأنها ، هي وأثار أخرى في ضواحي « هير » (Hyères) من بناء المسلمين⁽⁹⁴⁾ .

ومع ذلك ؛ فقد بدأت غارات المسلمين على السواحل الفرنسية وغيرها تقل ابتداءً من منتصف القرن الحادي عشر . ففي سنة 961 م ؛ استرد الروم

X, p. 52 et 155 et Mimaut, Histoire de Sardaigne, T. I, p. 93, et Manno, =
Storia di Sardegna, Turin, 1826, T. II, p. 168 et suiv.

(93) وقعت الحملة الفرنسية على الجزائر في سنة 1830 ، أي خمس سنوات قبل نشر هذا الكتاب .

(94) راجع عن ماجلون المصدر المذكور : Recueil des historiens Renouvier et
des Gaules, T. XI, p. 454. Les Monuments de quelques وكذلك Thomassy,
anciens dioceses de basl angeudoc, Montpellier, 1836.

كانت ماجلون مدينة هامة في العصور الوسطى ، قبل أن يخرها لويس الثالث عشر في سنة 1633، وهي الآن عبارة عن قرية صغيرة لا قيمة لها ، تقع على شاطئ لانجدوك ، جنوب مونييلي .

جزيرة اقريطش . وفي سنة 1050 م ؛ اجلي المسلمون عن جنوبي ايطاليا وفقدوا ملكهم في جزيرة صقلية . بل إن المسيحيين في صقلية بلغ بهم الأمر إلى حد أنهم عبروا البحر ونزلوا في بعض المواقع على شواطئ افريقية ، حيث ظلت اعلامهم تحفّق مدة طويلة . وأخيراً ، فقد قام المسيحيون الاسبان في الشمال بغزو طليطلة وقرطبة وغيرها واسترجعوها . وفي مرحلة تالية زحفت جيوش جرامة على المسلمين واضطرتهم الى التوقف في عقر دارهم في آسيا وافريقية .

وأخيراً ، فقد المسلمون كل أمل في استرجاع ممتلكاتهم في فرنسا وفي جنوب غرب أوروبا . وفي سنة 960 م ؛ كتب الرحالة والجغرافي العربي ، ابن حوقل ، يصف مسلمي الاندلس بالرخوة والطيش⁽⁹⁵⁾ . وكذلك وجه ابن

(95) كان وصف ابن حوقل لاهل الاندلس قاسياً الى حد ما ، فقد جاء في كتابه « صورة الأرض » (طبع بيروت ص 104) قوله :

« ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ، وبعدهم عن الباس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ومزاس الانجاد والابطال » .

وفي مكان آخر يقول :

« وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شُجّعت أنفسهم ومرونا بالقتال فإن أكثر حروبهم تنصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأيت غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فارة أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم السقوط » . . . (نفس المصدر . ص 108) .

والقارئ لهذه العبارات لهذا الرحالة الكبير والقوي الملاحظة يندهش لها خصوصاً ، حين يتذكر أن ابن حوقل زار الأندلس في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وهو ، كما سبق أن لاحظنا في هامش سابق ، العهد الذي ازدهرت فيه الفروسية في الأندلس ، وكذلك يمكنه أن يتساءل كيف احرز المنصور وابنه ، عبد المالك من بعده تلك الانتصارات الباهرة في عشرات المعارك مع الافرنج ، إذا كان خوف الناس من ركوب الخيل وضعة نفوسهم بالدرجة التي يريد أن يقنعنا بها .

ليس من شك في أن لعقيدة الرجل الشيعية دخل كبير في هذا التصوير . وفي هذا السياق ينبغي أن نتذكر أن الحرب التي كان يخوض غمارها خلفاء قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الثالث والتي كانت لا تزال مستعرة في عهد المنصور ، مع العبيديين كانت حرباً حقيقية على الرغم من أن الطرفين كانوا =

سعيد الذي كان يعيش في القرن الثاني عشر⁽⁹⁶⁾ . إلى مواطنيه المسلمين من

يستعملون فيها ، بدلاً من جيوشها ، صنائعهم من زعماء قبائل المغرب ، مثل «ريري» بن مناد ، وزير ابن عطية وابن أبي العافية والادارسة . وابن حوقل قيل عت ، ونحن نعتقد أن ذلك استنتاج في محله ، إنه كان داعية للفاطميين ، ووصفه للاندلس يمكن أن يعتبر نموذجاً لدعاية حصيفة تهدف إلى الاستهانة بالعقبات التي تواجه الفاطميين لو حاولوا غزو الاندلس . والشق الآخر من تلك الدعاية يقوم على وصف متناه في الدقة لما يتمتع به البلد من الثروة الطائلة مع عظم مرافقه وجباياته ، ووفور خزائنه وأمواله . . . إن سكة دار ضربة (المنصور) على الدنانير والدرهم ، ضمائها في كل سنة « مائتا ألف دينار ، ويكون عر صرف وسبعة عشر دينار ثلاثة ألف وأربع مائة ألف درهم ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجه واعتباره وضمائنه ومراصده وجواليه الخ » .

ومن هنا فلا غرابة أن يخرج الداعية عن التلميح إلى التصريح ويضيف بعد الفقرة الأولى التي اقتبسناها قائلاً : « وعلم موالينا عليهم السلام محلها في نفسها ، ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها » . وأغلب الظن أنه لو كانت اطماع العبيدين متجهة إلى الغرب ، وليس إلى مصر وسوريا ، لما استطاعوا مقاومة الاغراء الذي ينطوي عليه وصف ابن حوقل ، وخلاصة القول أن وصف ابن حوقل يتطابق مع الواقع فيما يتعلق بانتشار الترف والنعمة وميل الناس إلى اللذات ، وأما ما يتعلق منه بالشجاعة والفروسية ، فهو لا قيمة له إلا من حيث أنه يكشف أهداف الداعي وأسلوبه في خدمة سيادة الفاطميين .

(96) وقع المؤلف هنا في غلطة نقلها شكيب ارسلان بدون تحقيق في غزوات العرب (ص 258) والصواب أن ابن سعيد (علي بن موسى) عاش في القرن الثالث عشر للميلاد (السابع الهجري) حيث أنه ولد في سنة 610 هـ (1214 م .) ، وتوفي في سنة 673 هـ (1274 م) في رواية الكتبي وابن تغريبردي ، أو في سنة 685 هـ (1286 م .) في رواية ابن الخطيب والمقري وابن فرحون والسيوطي ، وهي الرواية المرجحة ، وعلي بن موسى بن سعيد العنسي مؤرخ وجغرافي وأديب جليل ، قضى معظم حياته في التجوال ، بعدما خرج رفقة أبيه من قلعة يحصب (Alcalaa la Real) وسافر إلى الحج ، ثم تجول وأقام في الحجاز والعراق وسوريا ومصر وتونس ، وكذلك أقام في ارمينيا ورحا من الزمن في ضيافة هولاكو ، امبراطور التتر . انظر سيرته وثبت مؤلفاته في مقدمة تحقيقنا لكتاب الجغرافيا (طبع بيروت 1970 ، ص 1 - 28 والمراجع التي أحلنا إليها كوندية هناك .

سكان الأندلس لوماً مماثلاً فتعجب كيف أن المسيحيين لم يطردوا المسلمين من الأندلس كلياً⁽⁶⁷⁾ .

ومما يدل على الروح المعنوية التي كان فيها المسلمون وعلى رأيهم في المسيحيين الذين كانوا في حروب معهم أجيالاً طويلة دلالة واضحة ،
الشاهدان التاليان :

روى مؤرخو العرب أنه لما قفل موسى بن نصير إلى الشام بعد فتحه الأندلس ، سأله الخليفة عن الشعوب المختلفة التي لقيها في طريقه ، فأجابه

(97) أحال المؤلف في هامش إلى مخطوطة في المكتبة الملكية (المكتبة الأهلية حالياً بباريس) تحت رقم 704 (ورقة 58) وأنا لم أتمكن من التعرف على هذه المخطوطة ، وهي ، على كل حال ليست مخطوطة كتاب الجغرافيا المتقدم الذكر والتي اعتمدت عليها في تحقيق الكتاب ، حيث أن هذه تحمل رقم 2234 في الرصيد القديم .
ومن جهة أخرى ، ربما أساء المؤلف فهم أقوال ابن سعيد وجعله يتفق مع ابن حوقل في نقده الأندلسيين ، ولكن العكس هو الصحيح ، حيث أن ابن سعيد انتقد ابن حوقل بشدة ودحض أقواله . وقد أورد له المقرئ في النسخ نبذة اقتبسها من فصل في أحد كتبه جاء فيه :

«وليت شعري إذا سلب ابن حوقل أهل هذه الجزيرة (الأندلس العقول والاراء والهمم والشجاعة، فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم، مع مراصدة اعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف؟ ومن الذين هموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها؟ وإني لأعجب منه إذ كان في زمن دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة، وعاثوا كل العيث في بلاد الاسلام، حيث الجمهور والقبة العظمى، حتى أنهم دخلوا مدينة حلب، وما أدراك، وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة. ومن أعظم ذلك واشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام فيسبون ويأسرون، فلا تجتمع هم الملوك المجاورة على حسم الداء. وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي تركها (ابن حوقل) وراء ظهره». . نفع الطيب ، 212/1 .

أن الأفرنج لديهم العدد والشجاعة والاقدام والصمود⁽⁹⁸⁾ . وهذا الوصف لا يمكن أن يصدر عن موسى ، فحتى على فرض أنه وصل إلى لانجدوك ، كما يؤكد الكتاب العرب ، فهو لم يكن قد لقي الأفرنج في المعارك ، وإنما هو قابل القوط الذين كانوا سادة هذه البلاد وحكام جنوب فرنسا كلها . ومع ذلك ، فإن هذه الكلمات تمثل تعبيراً صادقاً لنظرة مسلمي الاندلس إلى الأفرنج منذ أن تصارعوا مع محاربي شارل مارتل وشرلمان وعرفوا منهم صلابة العود والحماس الديني الذي دفع بهم ، فيما بعد ، إلى اختراق جبال البيرينيز .

والشاهد الثاني ما يرويهِ المؤرخون العرب عن وجود كتابة منقوشة على تمثال في مدينة اربونة معناها :
« يا ابناء اسماعيل لا تتجاوزوا هذا المكان . فإنكم إن تجاوزتموه ولم ترجعوا على أعقابكم هلكتم » .

وفي رأي بعض المؤرخين المسلمين أن الفرنسيين الذين حرّمهم الله من جنته ، عوضهم عن ذلك بمنحهم أرضاً خصبة كثيرة الخيرات حيث تتزاحم أشجار التين والفسق والبلوط .

* * *

(98) راجع : Condié, traité de guerre à faire aux Infidèles p. 232.

ويضيف كوندبه الذي ينقل هذه الفقرة وهو يروي كلام موسى عن مؤرخ عربي آخر ، قوله إن الأفرنج إذا أصيبوا بهزيمة ضعفوا وانطلقوا لا يلوون على شيء .

القسم الرابع

الخصائص العامة للفتوحات الاسلامية ونتائجها

سندرس في هذا القسم مختلف الغزوات الاسلامية في مجموعها
لنستخلص منها نظاماً للوقائع التي لم تواتينا المناسبة للحديث عنها في السابق .
وفي المكان الأول ، ستحدث عن مختلف الشعوب التي شاركت في هذه
الحروب الدامية .

كان العرب هم الذين وفروا الدفعة الأولى ، وكان قادة جميع الحملات
والغزوات العديدة ، بصفة عامة ، من العرب ، وبذلك اتخذت هذه الغزوات
طابعاً عربياً . والواقع أن الكتاب الاوروبيين المعاصرين لهذه الأحداث إنما
يعنون باسم « سارازين » العرب .

ولكن ما هو أصل اشتقاق كلمة « سارازين » (Sarrazin) ؟ أصل
الكلمة من اللاتينية : « Saracenus » ، وهي مأخوذة من الكلمة الاغريقية :
« Saraknos » ، وقد ظهرت لأول مرة في كتب المؤلفين الذين كانوا يكتبون في
القرون الأولى الميلادية⁽¹⁾ . وهي تطلق على البدو الرحل الذين كانوا يحتلون
الجزيرة العربية ومنطقة الجزيرة بين دجلة والفرات ، وهي مناطق تقع بين

(1) راجع : O-Elsner, Mémoire sur les effets de la religion de Mohammed, Paris 1810.

سوريا والفرس وبين الرومان و « البرث » (Les Parthes)⁽²⁾ ، وكانت تدين بالولاء لطرف أو لآخر من هذه الأطراف تبعاً لتأرجح ميزان القوة والنصر .

لقد ذهب الناس مذاهب شتى واعربوا عن آراء كثيرة حول الأصل الذي اشتقت منه هذه الكلمة ، ولكنه لا يوجد رأي واحد من بينها يقوم على أساس ويمكن اعتماده . والرأي الذي اجتمع عليه اكثر الباحثين هو أن الكلمة مشتقة من الكلمة العربية « شرقي » ، والواقع أن العرب الرحل في الجزيرة وفي الجزيرة العربية كانوا يقعون على التخوم الشرقية للامبراطورية الرومانية . وفي القرن السادس الميلادي قام كاتب اغريقي بجولة في داخل الجزيرة العربية ، وقد ميّز في معرض الحديث عن الشعوب المختلفة التي قابلها بين الحميريين ، سكان اليمن ، و « السارازين ، الحقيقيين »⁽³⁾ .

وأما رأي المسيحيين في العصور الوسطى الذي يستند إلى سانت جيروم⁽⁴⁾ والذي يجعل كلمة سارازين مشتقة من اسم سارة ، زوجة ابراهيم ،

(2) شعب قديم من السيث أصبح إيرانيا وكان يقيم في جنوب شرق بحر قزوين ، وقد شكل مملكة قوية في سنة 250 ق . م . وفي سنة 221 ق : م . أدمجت هذه المملكة في الامبراطورية الساسانية .

(3) قارن : Pocock, Specimen historiae Arabum, p. 33 et suiv. et Casiri, Bilbliothèque de l'Escurial, T. II, p. 18 et 19.

والجدير بالذكر أن بطليموس قد ذكر في كتابه في الجغرافيا شعبا باسم « ماشوريب » (Machurèbe) وقال إنه يقطن مقاطعة الجزائر الحالية . راجع رحلة Show ص 84 ، والمقتبسات التي الحقت بآخر الكتاب : انظر كذلك Pline, le Naturaliste, liv. V No. 2 . وإذا كان العديد من القبائل العربية قد هاجر إلى افريقيا (الشمالية) الغربية ، أفلا تكون هذه الكلمة مساوية لكلمة مغرب العربية ، وتكون كلمة « شرقي » مستعملة بالمعنى المتعارف حاليا ، أي عربي من المشرق ؟ ومع ذلك يبقى الغموض محبطاً بهذا التمييز بين سارازين والحميريين .

(4) انظر : Glossaire de la basse latinité de Ducage, au mot: Saraceni.

فهو رأي لا يستحق الوقوف عنده ، حيث أن العرب لا تربطهم صلة بسارة ،
أم اسحاق .

وكذلك كان الكتاب المسيحيون في العصور الوسطى يطلقون اسم
« الاسماعيليين » ، أي أبناء اسماعيل على العرب . وهذه النسبة إلى اسماعيل
باعترف بها العرب عموماً ، ويتفق عليه جميع المؤرخين العرب ، ومن ثم ،
فهي قضية لا مجال للشك فيها . ولكن الشيء الذي لا يعترف به العرب هو
أن يكون اسماعيل ابن أمة وأن تكون لاسحاق اية مزية يتفوق بها عليه . وفي
المكان الأول ، فإن المسلمين لا يفرقون بين ابن أمة وابن حرة ، ومتى كان
الأب حراً يكفيه أن يعترف بالولد ليكون هو أيضاً حراً . ومن جهة أخرى ،
فإن المسلمين يرون أن جميع الأوصاف التي تطلقها التوراة على اسحاق تنطبق
على اسماعيل .

وفي نفس السياق نشير إلى أن الكتاب المسيحيين في العصور الوسطى
كانوا يطلقون على العرب اسم « هجارنة » (agareni) أي الذين ينحدرون من
سلالة هاجر . وفي اذهانهم أن هذه التسمية تنطوي على الضعة والاحتقار .
ونحن لا نحتاج إلى القول بأن العرب لا يعرفون لأنفسهم اسماً كهذا .

وأعظم شعب بعد العرب اشترك في هذه الفتوحات هو شعب افريقيا
الشمالية الذين يسمون البربر ، وأهم هذه العناصر هي تلك التي تقطن جبال
الأطلس وضواحيها وفي الرقعة الشمالية التي تمتد من مصر حتى المحيط
الأطلسي ، ومن البحر الأبيض حتى النيجر . وهم يتميزون بلونهم النحاسي
وبأنوفهم المستقيمة وشفاهم الرقيقة ووجوههم المستديرة . والمعتقد أن هذه
الشعوب كانت موجودة في هذه الأرض قبل الفينيقيين وقبل هجرة الكنعانيين .
وهم من قديم الزمن درجوا على الاعتصام بجبالهم ورفضوا الخضوع لكل
سلطة اجنبية . وقد اندمج هذا الشعب بالفينيقيين وبقايا الرومان والوندال

وتكون من كل ذلك ما يسمى بالشعب المغربي (Les Maures) . والبربر يطلقون على انفسهم اسم « أمازيغ »⁽⁵⁾ ولكن الرومان كانوا يسمون جميع الشعوب من غير الرومان واليونان « بربر » ، والمرجح أن هذه التسمية العامة لصقت بهم دون سواهم⁽⁶⁾ . وكلتا هاتين التسميتين لم تكن معروفة لدى المسيحيين في العصور الوسطى ، وإنما هم كانوا يعرفونهم باسم « المور » أو الافريقيين (Africains) أو « بوني » (Poni)⁽⁷⁾⁽⁸⁾ .

وقد كان من بين الشعوب التي اشتركت في غزو فرنسا أيضاً شعوب تنتمي إلى سلالة جرمانية صقلية ، ونحن نعرف أن الصقالبة كانوا يسكنون ، عقب الهجرات الكبيرة التي قامت بها شعوب المنطقة خلال القرنين الرابع والخامس الميلادي ، في البلدان الواقعة على ضفاف البحر الأسود ونهر الدنوب ، وقد تقدموا تدريجياً حتى وصلوا إلى قلب جنوب أوروبا واحتلوا منها بلاداً باسماء مختلفة ، مثل صقالبة وكرواتيين وسربيين ومورافيين وبوهيميين . والبلاد التي احتلوها هي التي سميت فيما بعد بوهيميا وسيربيا وبولونيا ودالماتيا ، بل إن احتلالهم شمل أيضاً جزءاً من اليونان . وقد كانوا اثناء زحفهم يقتلون مع الأمم الساكسونية والهانز (Les Huns) الخ .

وزيادة على ذلك ، فقد كان جميعهم في نضال مع شارل مارتل ، وببين وشرلمان وابناء شرلمان واحفاده الذين كانت حشودهم المتوحشة تهدد باستمرار

(5) راجع : Nouveaux.Mémoires de L'académie des Inscription, T. XII, Mémoire de Saint- Martin, p. 190 et suiv.

(6) راجع : Mémoire géographique de la partie orientale de la Barbarie, Par le Conte de Castiglione, Milan, 1826, p. 84.

(7- 8) كان يوجد من بين اليونانيين من اعتنقوا الاسلام ، وهؤلاء يسميهم الكتاب العرب الروم (واحد رومي) وهو تحريف لكلمة الرومان ، الاسم الذي كان يتسمى به الأهالي الذين ورثوا فتوحات سيبون .

ممالكهم ، ولم تنقطع هذه الحروب المستمرة الا بعد ما اعتنقت الشعوب الجرمانية ، أي الألمان والسلاف والهنغاريون النصرانية . وقد كان من المعترف به في تقاليد هؤلاء البرابرة وشرائعهم ، استخدام الانسان الذي يقع في أيديهم كالحايوان بلا فرق . ويذكر المؤرخ « تاسيت » أن السكان الذين كانوا يقطنون هولندا الحالية تعودوا على بيع الأسرى ، وأن هؤلاء الأسرى يوزعون فيصبحون جنوداً أو عبيداً . وهذه العادة البعيدة عن الانسانية انتشرت في فرنسا وفي البلاد المجاورة .

ومن المعلوم أن التجارة في الرقيق اتسعت جداً واصبحت تجارة مشروعة بعدما احتل الجرمانيون مكانتهم بين الأمم المسيحية⁽⁹⁾ .

وهذه التجارة شهدت اتساعاً خاصاً بعد فتح المسلمين للشام ومصر وافريقيا الشمالية واسبانيا . والعرب كانوا يعرفون الرق منذ أقدم الأزمنة وكان ملاك العبيد يشغلونهم في جميع الأعمال اليدوية ، ولا سيما في الزراعة . وأما النظام الذي وضعته الشريعة الاسلامية للرقيق فهو يضمن كرامته ويجعل العبد في وضع لا يختلف عن وضع الأحرار متى ظهرت كفاءته في مجال من مجالات الأعمال ، مثل التجارة . والذين تسعفهم الظروف يصبحون أحراراً . وكذلك انتشرت عادة بيع العبيد إلى المسلمين في وقت مبكر .

كان النخاسون يقصدون شواطئ المانيا حيث يشترون العبيد من الألمان والصقالبة ، كما يتجهون نحو مصب نهر الرين ونهر الب ، وغيرهما من الأنهار

(9) قارن المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. V, p. 609 et 610 وصوره

الأرض لابن حوقل (طبع بيروت ، ص 106) وكذلك .

D'ohsson, Peuples du Caucase, Paris, 1828, p. 86. et Pardessus. Lois maritimes, T. I, Introduction, p. XXXIX et LXXX.

لنفس الغاية . وكذلك كان يوجد الرقيق على ضفاف بحر الادرياتيك⁽¹⁰⁾ .
والبحر الأسود حتى زمن متأخر في العصور الحديثة . وقد تعودت شعوب
القوقاز وجورجيا بيع اطفالهم للتجار في مقابل المنتجات التي يحتاجون إليها .
وقد كانت توجد سوق لرقيق هذه الشعوب في القسطنطينية .

كان يصل إلى فرنسا عدد كبير من هؤلاء العبيد الذين يؤسرون في
الحروب التي تقع بين الفرنسيين والشعوب الشمالية ، أو ممن يشتريهم التجار
لإعادة بيعهم لكسب المال .

ولما كان المسلمون غيورين على الحرم ، فقد ظهرت صناعة خصي
العبيد لاستخدامهم للعناية بالحريم في قصور الملوك والأمراء . وهذه الحاجة لم
تلبث أن تولدت عنها حرفة جديدة في فرنسا ، تخصص فيها أناس وتأسس
لذلك معمل في « فيردون » (Verdun) وآخر في بلاد اللورين ، فكان الصبيان
الذين يعيشون بعد هذه العملية القاسية يرسلون إلى اسبانيا حيث يدفع كبار
الناس أموالا طائلة لشراهم⁽¹¹⁾ .

وقد ازدهرت تجارة الخصيان الصقالبة بحيث أن الناس كانوا يتهادونهم كما
يتهادون الخيل والحلي الثمينة .

ويروي احد الكتاب العرب أنه في سنة 966 م . رأى امراء كتالونية من
الافرنج أن يتقربوا من خليفة قرطبة ، فقدموا إليه هدايا كان من جملتها

(10) فيما يتعلق بغارات المسلمين على شواطئ بحر الادرياتيك ، انظر Constantin Porphrogenète, De Administration imperi dans Banduri, Imperium orientale, T. I, p. 28 et suiv, et p. 113.

(11) قارن المصدر : Liutprand, Recueil de Muratori, T. II, Part. I, p. 470 وابن حوقل (المصدر المذكور ص 106) ، وانظر كذلك Deguignes, Mémoires de l'Académie des Inscriptions, T. XXXVII, p. 485.

عشرون خصياً من الصقالبة⁽¹²⁾ .

والكتاب العرب يرجعون الرقيق الجرمانى والسلافي إلى أصل واحد ويسمونهم صقالبة ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة الأوروبية «Esclave»⁽¹³⁾ . ومعظم حرس الأمراء والخلفاء في قرطبة كان يتكون من الصقالبة . وكذلك اختلط كثير من الصقالبة بالمسلمين في صقلية ، ولا سيما في بلرم ، حيث كان أحد أحياء المدينة يسمّى باسمهم . وكذلك لوحظ أن عدداً من الصقالبة في افريقيا الشمالية وسوريا⁽¹⁴⁾ ، وفي غيرهما من البلدان الاسلامية قد وصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة . وهذا الاعتبار هو الذي يفسر إشارات بعض المؤرخين العرب إلى ادوار الصقالبة في بعض الحوادث ، وبغيره تظل بعض صفحات التاريخ الاسلامي سرا مغلقا لا يمكن فهمه .

كان يوجد في الجيوش الاسلامية ، إلى جانب العرب والبربر والوثنيين الذين ينتمون إلى البلاد الشمالية رجال ولدوا في حجر النصرانية ، من سكان فرنسا وإيطاليا . وقد كان اليهود يستغلون بؤس الأهالي ويشترون منهم أطفالا من الذكور والاناث وينقلونهم إلى الموانئ البحرية التي تتردد عليها سفن اليونانيين والبنديقيين ويحملونهم إلى البلدان الاسلامية . وهذه التجارة الفظيعة التي حرمتها سلطات الكنيسة والسلطات المدنية ، كانت تمارس مع ذلك ، حتى في عاصمة المسيحية نفسها .

ففي سنة 750 م ؛ اضطر البابا زكريا إلى أن يشتري بماله من البنادقة

(12) كان من بين الهدايا الأخرى 20 قنطارا من فراء زبلين و 5 قناطير من القصدير ، وكميات من الأسلحة .

(13) أنظر : Charmoy, Mémoire sur la relation de Massoudi, dans le T. II des Mémoires de l'Académie de Saint- Pétersbourg, 1835, p. 370 et suiv.

(14) انظر ابن حوقل ، المصدر المذكور .

عدداً كبيراً من الأطفال من الذكور والاناث ، وكان النخاسون يريدون الخروج بهم من روما⁽¹⁵⁾ .

ثم إن البابا الذي خلف زكريا اضطر إلى حرق كثير من مراكب اليونان التي جاءت لنقل الرقيق في سنة 778 م .⁽¹⁶⁾ .

ويضاف إلى العبيد المسيحيين الذين يشترون في الأسواق ويضمون إلى جيوش المسلمين ، الأسرى من مختلف الأعمار والأحوال ممن يسقطون في أيديهم .

وبعد كل حملة عسكرية يقوم بها المسلمون تمتلئ اسواق النخاسين في المدن الكبرى في افريقيا والأندلس بالعبيد الذين يعرضون فيها للبيع . فاما الأطفال والأولاد الذين يؤسرون فانهم يربون على الاسلام وفي اللغة العربية ، وهم لا يقدرون على الارتداد عن دين الاسلام . ونسبة كبيرة من هؤلاء الأطفال يصبحون جنوداً . وأما الارقاء الكبار الذين تربوا في احضان المسيحية ، فإنهم لا يرغمون على اعتناق الاسلام ، وذلك لأنه جاء في القرآن قوله (تعالى) : ﴿ لا اكراه في الدين ﴾ ، ومع ذلك ، فإن كثيراً منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين .

أضف إلى هؤلاء المسيحيين قسماً من أهالي البلاد التي افتتحها المسلمون . فإن العرب والبربر عندما افتتحوا الأندلس وجدوا فيها أعواناً لا يحصى عددهم من المسيحيين واليهود في شبه جزيرة ايبيريا . ولما لم يكن جيش المسلمين كافياً لاحتلال القلاع والحصون ولحفظ الأمن في البلاد التي يحتلونها . فكانوا كلما احتلوا بلدة عهدوا بمهام الأمن والحراسة فيها إلى اليهود .

(15) انظر المصدر المذكور : le Recueil de Muratori, T. III, Part. I, p. 164 .

(16) راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. V, p. 557 et Michaud, Histoire des Croisades, 4e éd., T. III, p. 610 et 613.

ولما فتح المسلمون فرنسا والبلدان المجاورة لها وجدوا هناك أيضاً أعواناً وانصاراً ممن لا يعرفون للوطنية ولا للحمية الدينية معنى والذين كانوا دائماً على استعداد للاستفادة من المصائب التي تحمل بالبلاد ، فساروا في صفوفهم لتحقيق المزيد من الغزو والفتح . ونحن سبق أن عرفنا كيف أن « مورونت » دوق مرسيليا وغيره من النبلاء وسادات البلد تواطؤوا مع المسلمين على ابناء جلدهم . فإذا كان هذا شأن الكبار ، فما بالك بصغار الناس ؟ وما لا شك فيه أن فتوحات المسلمين في مقاطعات دوفيني وسافواي وبييمونت وسويسرا إنما تمت بفضل وجود أعوان وانصار للمسلمين في هذه البلاد ، ساهموا معهم في الغنائم والاسلاب . وهذه الحقيقة لا يسجلها مؤرخو ذلك العصر صراحة ، وربما كان ذلك حياء منهم ، بل هم يكتفون بالإشارة إلى خيانة بعض المسيحيين وإلى قلة ايمانهم .

ولولا هذه المساندة والمساعدة لما استطاع المسلمون الاستقرار في تلك المناطق الشاسعة والنائية عن أوطانهم وهم في قلة عدد وفي وقت كانت فيه المواصلات صعبة والمراسلات شاقة . وهكذا ، فإن الغزاة الذين كانوا يتحدثون لغة غير لغة القوم ويدينون بعقيدة غير عقيدتهم ، استطاعوا في نهاية الأمر الامتزاج بالسكان الأصليين .

ونحن سبق أن عرضنا قصة ذلك المؤرخ الذي وقع عمه في أيدي العرب⁽¹⁷⁾ ، وكيف أن المسلمين قاتلوا الاهالي بقرب « فرسي » (Verceil) وانتصروا عليهم وأخذوا عدداً من الأسرى وساقوهم إلى المدينة ثم عرضوهم للبيع في شوارع المدينة ، فكان كل من يمر في الشارع حراً في أن يعاينهم ويعرض ثمناً لهم . وفي هذه الأثناء ، كان أقارب هؤلاء التعساء يترددون على الأسقف والنبلاء والأعيان ، وكأن المعروضات للبيع معروضات من المواد

(17) راجع المصدر المذكور ، Le Recueil de Muratori T.III Part. I P. 170

التجارية العادية التي لا تكاد تسترعى الانتباه .

والآن نقترح أن ندرس السياسة التي انتهجها اليهود في جنوب فرنسا حينما غزا المسلمون هذه المناطق الجميلة . جاء في سيرة القديس « سانت تيودار » (Saint théodard) رئيس اساقفة أربونة⁽¹⁸⁾ . أنه لما دخل المسلمون لأول مرة إلى لانجدوك ، انحاز اليهود إليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طلوze . ويضيف كاتب السيرة أن شلمان عاقبهم على خيانتهم بأن أمر بأن يؤتى كل سنة ، بمناسبة اعياد اليهود ، بيهودي ويصفع أمام الملأ على باب الكاتيدرائية . والالتجاء إلى الصفع بهذه الطريقة أمر ثابت ومؤكد⁽¹⁹⁾ . ولكن خيانة اليهود لم تثبت قط ، حيث أن المسلمين لم يدخلوا مدينة طلوze . ولعل الكاتب كان يريد أن يتحدث عن فتح النورماندين لعاصمة لانجدوك ، في سنة 850 م ؛ وهو احتلال كان من الممكن أن يساهم اليهود فيه ، كما صنعوا قبل ذلك بضعة سنوات حينما احتل هؤلاء البرابرة مدينة « بوردو » (Bordeaux) .

وإذا تركنا قضية انتهاء الغزاة العرقي جانباً فستحول إلى درس لغة الغزاة ودينهم . وفي المكان الأول يجب أن نلاحظ ما في ذلك من التنوع . فإن جزءاً منهم كان يتحدث العربية ، بينما كان الباقي يتحدث اللغة البربرية وغيرها من اللغات⁽²⁰⁾ . ونحن قد سبق أن سجلنا رواية مؤداها أن المسلمين الذين

(18) كان سانت تيودارد يعيش في حوالي سنة 880 ؛ ولكن سيرته كتبت بعد ذلك بوقت طويل . راجع المصدر المذكور :

Recueil des Boullandistes, au 1e mai.

(19) وفي فترة لاحقة خفف هذا العقاب إلى دفع مبلغ من المال يسلمه اليهود إلى مختلف كنائس طلوze .

(20) يتحدث ابن القوطية (المصدر المذكور ، ورقة 13) عن جيش بربري لا يتحدث الجند فيه الا اللغة البربرية .

حاولوا احتلال مدينة إربونة في سنة 1019 م ؛ لم يكونوا يتحدثون اللغة العربية .

وكذلك نجد أنه لم يكن جميع الغزاة يدينون بالاسلام ، بل كان يوجد بينهم يهود ووثنيون ، بل ومسيحيون أيضاً . ونحن سبق أن رأينا كيف أن العصابات التي غزت مقاطعة الفالي في سنة 730 م ؛ كانوا ، على الأرجح من عبدة الأوثان . ونحن لا نملك إلا تفاصيل قليلة عن ديانة البربر قبل أن يعتنقوا الاسلام ويشاركوا في الفتوحات الاسلامية في اسبانيا وفرنسا . وكل ما نعرفه هو أن بعضهم كان يدين بالمسيحية والبعض الآخر بالموسوية ، وفئات أخرى كانت تعبد النار والكواكب ، أو تمارس عبادة الاوثان .

فأما عبادة النار والكواكب فقد كانت شائعة بين سكان جبال الاطلس ويرجع تاريخها إلى أقدم العصور . والميداليات التي ضربت في عصر ملك نوميديا ، « باخوس » (Bachus) تحمل شعارات تشبه تلك التي وجدت على الآثار الفارسية القديمة⁽²¹⁾ . ونحن نذكر بهذه المناسبة مارواه « صالوست » (Salluste) نقلاً عن كتب فنيقية قديمة ، من أن جيوشاً من المغامرين كانت في معظمها تتكون من « الميد » (Méde) والفرس ، قد غزت افريقيا واستقرت فيها في عصور متوغلة في القدم⁽²²⁾ .

والكتاب العرب أيضاً يهتمون القبائل البربرية التي تأخرت في اعتناق الاسلام بأنها تعبد النار والكواكب⁽²³⁾

بل إن هؤلاء الكتاب يطلقون عليهم اسم « الصابئين » ، وهي تطلق عادة على

(21) راجع : Mionnet, Description de médailles antiques, T. VI, p. 597.

(22) راجع : Nouveaux Mémoires de l'Academie des Inscriptions, T. XII, p. 181 et suiv., mémoire de Saint- Martin.

(23) راجع : Journal Asiatique, T. II, p. 131 .

عبدة الكواكب⁽²⁴⁾ ، وأما عبادة الاصنام ، فلم تكن طقوسها مجهولة في جبال الاطلس . فإن كاتباً لاتينياً سجل تفاصيل قيمة في القرن السادس الميلادي حول الممارسات الدينية المتعارفة في شمال افريقيا قبل الفتح الاسلامي⁽²⁵⁾ . وهذا الاعتبار هو الذي جعل بعض الكتاب العرب يطلقون اسم « المجوس » على بعض القبائل البربرية التي لم تكن قد اعتنقت الاسلام في عهدهم ،

(24) الكلمة من صبا يصبؤ ، وصبأت النجوم ، أي خرجت عن مطالعها وهي بصفة عامة ، تعني التحول والخروج من دين إلى دين آخر . وما قاله المؤلف صحيح بقول ضعيف أورده الزبيدي في تاج العروس (86/1 - 87) بصيغة « قيل » . وفي تفسير البيضاوي أيضاً « قيل » إن الصابئة هم عبدة الملائكة ، والصابئون في قوله تعالى : ﴿ والصابئون والنصارى ﴾ نسره الزجاج بأنه يعني الخارجون من دين إلى دين . وفي الصحاح أنهم جنس من أهل الكتاب وقلبتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار .

وفي التهذيب عن الليث أنهم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن « قبلتهم نحو مهب الجنوب ، ويزعمون أنهم على دين نوح ، وهم كاذبون » . . وقد أطلق اسم الصابئة بين المعنيين بالفرق والمذاهب على فرقتين مختلفتين « المنديا » ، وهي فرقة يهودية نصرانية تمارس طقوس التعميد ، وكانت في العراق ، وفرقة صابئة حران ، وهي فرقة وثنية ظلت مدة طويلة تستر بالاسلام ، وقد خرج منها بعض العلماء . وهذا المقام لا يتسع لايراد بعض مبادئها كما لا يتسع للحديث عن الصابئة والمتهمين بالصابئة في العصور الاسلامية الأولى . ولئن يمه الأمر نشير على الخصوص بالرجوع إلى المصادر التالية : كتاب الملل والنحل للشهرستاني (طبع كيورتن ، 1846) 203/2 - 251 ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للدمشقي (طبعة سانت بطرسبورج ، 1866) ص 29 - 48 ، ومروج الذهب للمسعودي (طبعة باريس) ، 61/4 - 71 ، وانظر كذلك : (ليسيج 1889) Brandl (W), Die Mandaische Religion وللمؤلف نفسه : (جوتنجن - 1893) Chwolsohn (D), Die Ssabier وعن صابئة حران : Mandaische Schriften Undder Sabinus (سانت بطرسبورج 1856) .

(25) راجع كتاب : Santo Antonio : Histoire de Africa Historia Dos : Mauritanian, Lisbonne, P. 19 : Saberanos Mohametenas,

وكلمة « المجوس »⁽²⁶⁾ تطلق على وثنيي الشمال ، بصفة عامة ، وعلى النورماندين بصفة خاصة . ومن المعلوم أن البربر لم يعتنقوا الاسلام بصفة عامة إلا بعد فتح المسلمين (الأول) لشمال افريقيا بزمان طويل .

والكتاب المسيحيون في العصور الوسطى كانوا يطلقون على جميع فئات الغزاة المسلمين اسم « الوثنيين » . وهذه عقيدة أبعد عن الوثنية من الاسلام الذي حطم الأصنام . والواقع أن الاسلام ينادي بعبادة إله واحد لا شريك له ، خالق السموات والأرض . ولشدة استفظاع الاسلام للوثنية يمنع (كما تمنع اليهودية ايضاً) تصوير كل ما هو حي .

ولكن بعض العناصر التي انضمت إلى جيوش المسلمين لم تكن على هذه العقيدة . ومن جهة أخرى ، فنحن نعرف أن كلمة « عبدة الاصنام » وكلمة « وثنيين » كانت كلتاهما تطلق عادة ، بدون تمييز ، على غير المسيحيين .

وقد زعم كاتب التاريخ المنسوب الى رئيس أساقفة تورين⁽²⁷⁾ . أنه يوجد في الاندلس على شاطئ البحر فوق عمود شديد الارتفاع صنم من البرونز صنعه محمد بنفسه ، ويعبده المسلمون ، وكذلك ادعى فيلومين في تاريخه القصصي حول غزو شرلمان لمقاطعة لانجدوك⁽²⁸⁾ . أنه كان يوجد تمثال لمحمد مصنوع من فضة مذهبة في مدينة اربونة وضع في معبد أثناء احتلال المسلمين لهذه المدينة ، ومن جهة أخرى جاء في مسرحية بعنوان « العابد سانيكولا » كانت تلقى كثيراً من النجاح في العصور الوسطى⁽²⁹⁾ . أن أميراً

(26) انظر مادة « المجوس » في تاج العروس ، 4 ، 245 .

(27) راجع طبعة Ciampi ، ص 10 .

(28) طبعة Ciampi ، ص 78 .

(29) نشرت هذه المسرحية كاملة بعناية Mommerqué في Recueil des Publications de la

. Societé des bibliophiles francais, 1834

مسلماً من افريقيا كان يعبد صنماً اسمه « تيرفاجنت » (Tervagant) ، وأنه كان يغطي خديه باوراق من الذهب حينما يحصل على حاجته . وأخيراً فقد جاء في القصيدة الفرنسية التي تروي اعمال البطولة التي قام بها رولان ، أن سكران سرقسطة المسلمين وقع اختيارهم على مغارة لتكون معبد آلهتهم ، وإنهم نصبوا في هذه المغارة تمثالاً من الذهب في يده صولجان ، وعلى رأسه تاج . وادعى الكاتب أن المسلمين يجتمعون في هذه المغارة حينما يريدون أن يطلبوا رضا الله⁽³⁰⁾ . واسم تيرفاجنت الذي يحرف احياناً إلى « تيرماجنت » يتردد كثيراً مع اسم « أبولين » في الروايات الخيالية الفرنسية القديمة وفي غيرها من كتب الأدب⁽³¹⁾ . وهذه الأسماء يدعي أنها آلهة إسلامية . وهذه الادعاءات والمزاعم تكثر ، خصوصاً ، في مسرحية سانت نيكولاس التي تحتوي على تمثال نصفي متوج أطلق عليه اسم محمد . فيالسخرية القدر ، والجهل الاعمى بالاسلام ! فإن هؤلاء الكتاب والأدباء يجهلون أنه عندما فتح محمود الغزنوي⁽³²⁾ . الهند في سنة 1025 م ؛ (416 هـ) . حطم جميع أصنام الهند الكثيرة فيما عدا صنم واحد عرض عليه السكان شراءه بوزنه ذهباً ورفض

(30) تحليل Monin لرواية Roncevaux ص 46 و 104 .

(31) راجع . Roman de la violette, Publie par Francisque Michel, P. 73 .

(32) محمود بن سبكتين الغزنوي (361 - 421 هـ) أبو القاسم فاتح الهند وأحد كبار سلاطين الاسلام ، وقد كانت تحوم مملكته تمتد من أقصى الهند إلى نيسابور ، وكانت غزنة عاصمة المملكة . فبعد حروب مع اخويه آل إليه السلطان في سنة 389 هـ ، فانتزع بلاد خراسان من السامانيين ثم افتتح بلادا شاسعة في الهند ودانت له . وقد كان عالماً جليلاً في الفقه كما كان يرعى العلماء والأدباء ويدبهم من مجلسه . ومن مفاخره التي سجلها له التاريخ اصطحابه العلامة الفيلسوف والجغرافي أبا الريحان البيروني الذي كان حلقة وصل بين الثقافة العربية والثقافة الهندية . راجع سيرة محمود الغزنوي ، الكامل لابن الاثير ، 129/9 - 132 و 184 - 192 و 340 - 345 ، وفيات الأعيان . 175/5 - 182 ، العبر ، 363/4 ، البداية والنهاية ، 27/2 .

عرضهم مفضلاً وضعه عند عتبة باب العاصمة الرئيسي لكي يدوس عليه وييضق فيه كل داخل الى العاصمة وكل خارج منها .

ما هو السبب الذي دفع بآبائنا إلى هذا الوهم والخطأ ، يا ترى ؟ ذهب بعض العلماء إلى أن النورمانديين وغيرهم من الشعوب الوثنية كانوا من ضمن الشعوب التي كان يشملها اسم سارازين ، وبالتالي ، فإن موطن اسما ، مثل تيرفاجنت وأبولين وغيرها هي البلاد الشمالية⁽³³⁾ . الذين كانوا يعبدون الاوثان . وهكذا خلط العامة بين المسلمين وهذه الشعوب بصورة مخجلة .

ومن جهة أخرى ، فإن البربر كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض الممارسات الوثنية ، أفلا يمكن أن نبحث عن أصل هذه الكلمات والاسماء في افريقيا ؟

ومن جهة اخرى ، فإن الكتب التي ذكرناها والتي تزعم ان المسلمين ينحتون آلهة من الخشب والحجر أو من المعادن تربط دائماً بين عبادة هذه الأصنام والمنافع التي تجني من ورائها ، ولكنهم متى وجدوا أن تلك التماثيل لا تجلب منفعة ولا ترد ضرراً انهالوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذاً .

على أن الاسم العربي والدين الاسلامي كانا هما المتغلبان في هذه الفتوحات ، والتاريخ لم يترك لنا شيئاً عن أعمال البطولة التي قام بها البربر أو الصقالية ، وكل ما وصل إلينا عن هذه الغزوات انما نقله إلينا الكتاب المسلمون .

وأما دوافع هذه الفتوحات وأسبابها فهي متنوعة . فمنها ما يعود الى

(33) راجع : De Boyardo, Roland l'Amoureux et Roland le furieux, par طبعة Antonio Panizzi مع مجلد يشكل مقدمة بعنوان : Ezzay on the romantic narrative poetry of the Italians, Londre, 1830, p. 126

الرغبة في الحصول على الغنائم وكسب المال ، ومنها ما يعود الى حب المغامرة واشباع الشهوات ، ومنها ما يقوم على الاخلاص في العمل لنشر الاسلام رجاء الحصول على رضا الله وثوابه . فقد جاء في القرآن : ﴿ انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (34) .

وجميع المسلمين القادرين على حمل السلاح مكلفون بالجهاد بأموالهم وأنفسهم . وقد جاء في القرآن :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب اليم ﴾ (35) . وكل مسلم يموت وهو يقاتل في سبيل الله ، يموت شهيداً . وفي القرآن :

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (36) .

فكل من أراق دمه من أجل إعلاء كلمة الاسلام فهو يعتبر شهيداً ، كما يسمى المسيحيون شهيداً كل من مات من أجل النصرانية . والمسلم الذي يموت وهو يقاتل في سبيل الله لا يحتاج إلى غسله أو كفنه كغيره من المسلمين ، فإن الدم الذي يغطيه قد طهره من جميع ذنوبه ، والملابس التي عليه هي أجل ما يتحلّى به من الثياب . فإن محمداً أمر بدفن الشهداء في الحالة التي ماتوا فيها وفي الثياب التي كانت عليهم وبدون غسلهم لأن جراحهم ستزول بالمسك يوم القيامة (أو كما قال):

(34) السورة 9 والآية 41 .

(35) سورة 9 والآية 34 .

(36) سورة 11 الآية 149 .

والشريعة الاسلامية تقضي بدعوة غير اهل الكتاب إلى اعتناق الاسلام ، أو دفع الجزية ، وذلك قبل إعلان الحرب عليهم⁽³⁷⁾ . وهذه الدعوة الى الاسلام تصاغ في عبارات معتدلة ، وذلك طبقاً لما جاء في القرآن : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ . والمرجح أن يكون المسلمون قد وجهوا هذا النداء إلى الفرنسيين لدى دخولهم لأول مرة إلى فرنسا ، ولكنه نظراً لأن الأهالي لم يسارعوا إلى اعتناق الاسلام ، فقد سارع الغزاة إلى تجريد سيوفهم⁽³⁸⁾ صورت ملابس المسلمين الفاتحين وأسلحتهم كما يلي :

كانوا يتقلدون السيوق ويعلقون هراوة على سرج الفرس ويحملون الحراب في اليد ، وقد يربط في رأس الحربة علم ، ويتكبون القسي ، وكانوا كلهم متعممين . ولكن أزياء الملابس سوف تتغير وسيحاول المسلمون تقليد ملابس النصارى فيما بعد . وكذلك تخلوا عن استعمال الهراوة والقوس ، فأصبحوا يلبسون الدروع ويغوصون في الزرود ، ويقتنون سيوف بورديو (برزال) المشهورة في ذلك العهد . وقد تخلّى الجنود المسلمون عن العمائم واعتمدوا لباساً للرأس الكمة الهندية⁽³⁹⁾ .

(37) إذا اعتبرنا روح القرآن ، فإن هذا الخيار لا يتاح الا لأهل الكتاب ، أي اليهود والنصارى . وأما الوثنيون فهم إنما يجيرون بين الاسلام والحرب فقط . ولكن هذه النظرية لم تطبق بدقة وشدة إلا في الجزيرة العربية . ونحن سبق أن عرفنا أن جزءاً من البربر ظلوا على الوثنية مدة بعد دخول الاسلام إلى افريقيا ، ومع ذلك عوملوا كما لو كانوا من أهل الكتاب . ونفس السياسة انتهجها المسلمون في الهند أيضاً تجاه الشعوب التي تدين بالوثنية مثل « الجنتي » Les Gentils .

(38) يتحدث تاريخ تورين وقصص الفروسية كثيراً عن تحدي فارس مسلم لفارس نصراني ، وعن دعوته قبل بدء المبارزة إلى اعتناق الاسلام . والمرجح أن هذه التحديات الفردية إنما ظهرت بعد استقرار نظام الفروسية في اوروبا .

(39) تعقياً على هذه الملاحظات وتأكيداً لها وخصوصاً ، على ما قاله المؤلف عن سيوف بورديو (التي يسميها العرب « البرذاليات ») نورد هنا نصين لاثنين من اعلام التاريخ =

كان بين الهدايا التي قدمها أمراء كتالونية النصارى الى خليفة قرطبة والتي سبقت الاشارة اليها ، عشرة دروع سلافية ومائة سيف فرنسي الصنع . وفي اليوم الذي وُلِّي فيه الخليفة الحاجب ، أو رئيس الوزراء (الذي كان من الصقالبة) أنعم عليه بمائة فارس فرنسي راكبين خيولهم متقلدين السيوف ، حاملين الحراب ، غائصين في الدروع ، وعلى رؤوسهم الكمم الهندية .

وباختصار ، كان المسلمون صغاراً وكباراً يقلدون في أسلحتهم وملابسهم وسروج خيولهم وأعلامهم مثيلاتها مما شاهدوه عند المسيحيين الاوروبيين . ومع ذلك ، فإن المعتقد أن أجهزة المحاربين المسلمين واسلحتهم ، بصفة عامة ، كانت أخف من أجهزة اعدائهم واسلحتهم ، وأنها كانت تختلف عن أنواع الأسلحة التي فتحوا بها الاندلس .

قلنا إنه كان بين الغزاة من كانت تغريهم الغنائم والاسلاب . والغنائم ظلت وقتاً طويلاً هي الوسيلة الوحيدة للتعويض عن النفقات والاعتاب

= الاسلامي ، ونعني بهما ابن الخطيب وتلميذه ، المقرئ الذي ينقل عن ابن سعيد المغربي . جاء في الاحاطة (طبع القاهرة ، 142/1) .
« وزيم في القديم شَبَّه زي أقتاهم (أي الذين يقاتلونهم) وأضدادهم من جيرانهم . الفرنج ، اسباغ الدروع وتعليق التُّرْسَة ، وحفا البيضات ، واتخاذ عُراض الأسنة ، وبشاعة قرابيس السروج ، واستركاب حملة الرايات خلفه . . . ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرناه ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المزهفات ، والسروج العربية ، والبَيْب اللمطية والاسل العطفية » . « والعماثم تقل في زي اهل هذه الحضرة (غرناطة) الا ما شَذَّ في شيوخهم وعلمائهم ، والجند العربي منهم » .
وفي نفح الطيب (202/1) .

« وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والاجم والدروع والمغافر ، فاكثرهم - أهل الأندلس - فيما حكى ابن سعيد - كانت مصروفة إلى هذا الشأن ، ويصنع منها في بلاد الكفر ما يهر العقول . قال : والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة . وبرذيل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق . والفولاذ الذي باشبيلية إليه النهاية » .

والحرمان . فأما المحارب الذي يعمل على انفراد ، فهو يستولي لنفسه على كل ما يقع في يده . وأما المحارب الذي يعمل في نطاق جيش ، فهو يحمل ما يقع في يده من الغنائم إلى موضع يحدده قائد الجيش . وهكذا تكون الغنائم نصيباً مشتركاً بين جميع افراد قوة الجيش ، وفي نهاية الغزوة يتم توزيعها .

أما الغنائم فتتكون عادة من الأحجار الكريمة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات من مختلف الأنواع ، ومن الأسرى من الذكور والاناث ومن مختلف الأعمار . ويعتبر السبي افضل انواع الغنائم ، لأن الأسرى يمكن بيعهم كما يمكن الاحتفاظ بهم للاستعمال الشخصي . ويجري تقدير قيمة الأسير على اساس السن ، وما إذا كان ذكر أو انثى ، وعلى اساس قوة العضلات وجمال الصورة .

ويبدأ أمير الجيش تقسيم الغنائم بأخذ الخمس الذي يعود للملك ، أي لبيت المال ، طبقاً لما تنص عليه الشريعة الاسلامية . والملك أو الخليفة ينقل هذا الخمس في الأغراض التي يراها ، مثل الأعمال الخيرية الخ⁽⁴⁰⁾ . وأما الباقي فيوزع على المقاتلين ، ويكون للفارس ضعف ما للراجل⁽⁴¹⁾ .

وبمجرد ما ينتهي توزيع الغنائم تظهر نوع من السوق ، حيث يبيع الفارس والجندي ما يرى بيعه . وقد كان التجار دائماً في ساقية الجيش يشترون ما يقع في أيديهم ويقومون بتوزيعه في مختلف ولايات المملكة .

والأسرى في ذلك الوقت يختلف وضعهم عن وضع الأسرى في الوقت

(40) يلخص المؤلف هنا الآية الكريمة (سورة 8 الآية 41) : ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول وذو القربى واليتيم والمساكين وابن السبيل الخ . ﴾ .
(41) راجع : Mouradgaa , Dissertations miscellanae, T. II, p. 49; Conde, Historia, T. d'Ohsson, Tableau de l'empire Ottoman, T. V, p. 80; Conde, Historia, T. I, p. 461.

الحاضر . فمتى وقع المسيحي في الأسر كبلوه بالاغلال ، ومتى انتهت قسمة الغنائم عرف الأسير المسلم الذي هو من نصيبه وأصبح مملوكاً له ليتصرف فيه كيف يشاء . فهو يستطيع أن يبيعه أو يستخدمه في أي غرض من الأغراض ، ويتوارثه عنه ابنائه ، ومتى ولد له اولاد يصبحون هم أيضاً أرقاء مثل أبيهم . وإذا كان سيده غيوراً على الاسلام ، عرض على العبد اعتناق هذا الدين ، فإذا أسلم اعتقه ، وإن لم يعتقه قام بعض فاعلي الخير بفك رقبة ، لأن تحرير الرقاب كان دائماً من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله في الدين الاسلامي . ومتى تحرر العبد المسيحي أصبح عضواً في المجتمع الاسلامي له ما لجميع المسلمين وعليه ما عليهم من الواجبات . ولكن الصلة تبقى وثيقة بينه وبين معتقه الذي يحمل اسمه ويقال فلان « مولى »⁽⁴²⁾ . فلان ، وهذه الكلمة تتضمن معنى عميقاً من العطف والحماية والانتساب⁽⁴³⁾ .

ومتى رفض الأسير العبد اعتناق الاسلام ، فيستعمل عادة في حرث الأرض وفي حمل الأثقال ، وفي كل عمل يدرّ فائدة على سيده .

ونحن سبق أن ذكرنا أن الأسير المسيحي سواء اعتنق الاسلام ، أم بقي محتفظاً بدينه ، فهو دائماً مرغوب فيه لاغراض الحرب لما اشتهر من الشجاعة والاقدام ، فكان يوجد ضمن كل غزوة يقوم بها المسلمون بعض الاسرى المسيحيين .

والأسرى المسيحيون الذين يتمسكون بدينهم لا يلبثون عبيداً بدون أمل

(42) وضعت الكلمة في الأصل بالحرف العربي في هامش .

(43) يسمح في بعض الأحيان للعبد بالامتلاك، وحينئذ يحترف المهنة التي يختارها ويكون ما يكسبه من عمله ملكاً له ، ولكنه يدفع مبلغاً سنوياً معيناً من المال لسيده الذي ساعده لكي يصل إلى هذه الحالة على أساس اتفاق بينهما بأن يعتقه متى سدد أقساط فديته . وهذا العمل يسمى اصطلاحاً « مكاتبه » ، ويسمى العبد مكاتباً .

في الحرية ، فإن الأمراء والأثرياء المسلمين الذين تصير اليهم ملكية هؤلاء الأسرى ، لا يعرفون طريقة لحمد الله وشكره ، متى وقع لهم حادث سعيد، من عتق رقبة وإعادة الحرية إلى العبد . فعندما عرف المنصور بن أبي عامر بانتصار جيوشه في أرض افريقيا ، مثلاً ، قام على الفور بتحرير ألف وثمانمائة من العبيد المسيحيين من ذكور وإناث⁽⁴⁴⁾.

ولكن العبيد المسيحيين يثيرون اهتماماً أقوى في بلدانهم حيث يسعى ذوهم واصدقاؤهم والمتعاطفون معهم لجمع المال لفديتهم . ففي كل سنة يذهب الناس من فرنسا إلى اسبانيا وافريقيا ، مزودين بالمال لشراء أب ، أو أخ ، أو صديق واقتكاه من محنة الأسر . وكثيراً ما يتدخل الأمير للوساطة في عتق الأسير ويدفع من ماله الخاص جزءاً من الفدية المطلوبة .

وفي فترة لاحقة نمت روح التعاون للأعمال الخيرية في المجتمع المسيحي ، فتأسست جمعيات خيرية لفدية الأسرى ، ظلت تمارس مهمتها حتى قيام الثورة الفرنسية. ، وقد كان ترك الرجل داره وتخليه عن وسائل الراحة ليغامر في اصقاع افريقيا لمساعدة أسير بائس ، يعتبر - وبحق - عملاً من أعمال البطولة . ومن الأمثلة التي خلدها التاريخ ، عمل إيزارن⁽⁴⁵⁾ ، رئيس دير سانت فيكتور ، في مرسيليا الذي سافر إلى اسبانيا في سنة 1047 م ؛ لشراء بعض المسيحيين الذين اختطفهم القراصنة في بروفانس . وقد كان إيزارن منهوك الجسم في ذلك الوقت بسبب مرض عضال أصابه منذ زمن طويل . وكذلك كان عليه أن يتغلب على معارضة رهبان ديريه على مشروع سفره .

(44) راجع المصدر المذكور : Conde, Historia, T. I, p. 539 .

(45) راجع المصدر المذكور : Mabillon, Annal Benedictini, T. IV, p. 489 et 493 .

وقبر إيزارن لا يزال موجوداً حتى الآن في مرسيليا . انظر المصدر المذكور :
Millin, Voyage dans les departement du Midi, T. III, p. 181 et suiv.

وبعد متاعب السفر ، وجد ايزارن صعوبة كبيرة في معرفة المكان الذي أودع فيه أولئك الأسرى .

وأخيراً ، وبعد ما خلصهم من قيد العبودية وعاد بهم سالمين إلى بلدهم عن طريق البحر ، اعترض طريقهم قراصنة آخرون واختطفوهم . ومرة أخرى بدأ ايزارن مساعيه الحثيثة حتى توصل إلى عتقهم ، ولكن العوائق التي كان عليه أن يتغلب عليها كانت من الصعوبة بحيث أنه مات من فرط التعب بعد عودته بالأسرى إلى مرسليليا مباشرة .

وكانت حالة النساء الاسيرات ادعى إلى الرثاء والشفقة في عمليات الاسترقاق ، فإن طبيعة جنسهن التي تفرض عليهن نوعاً من العزلة تجعل من الصعب استلفات انتباه اقاربهن واصدقائهن باستمرار ، مثل الرجل . وهن يشتغلن في قصور الأمراء والأغنياء ويساعدن زوجات مالكيهن . ومتى كانت الواحدة منهن تمتاز بالجمال فإن مالكيها يُعنى بتعليمها وتدريبها لتباع بثمان مرتفع أو يتزوج بها ، وكثيراً ما تُهدى الجارية التي تعلمت الرقص والغناء وفنون الأدب إلى الخليفة أو إلى الأمير لتكون تحفة من تحف قصره . وأولئك الجوارى والأسيرات اللاتي يتتمين إلى أرومة رفيعة ، كثيراً ما يشاركن اسيادهن مضاجعهم وتصبح الواحدة منهم أم ولد . ومن يدري ؟ فلربما كان هذا هو مصير لامبيجي ابنة أود ، دوق اكينانيا .

وبصفة عامة ، فإن الجوارى الصغيرات السن يقعن تحت رحمة مالكيهن الذي كثيراً ما يربط مصيرهن بمصيره . ونحن نعرف أن الشريعة التي تسمح للرجل في تلك الأقاليم الحارة بالتزوج بأربع نساء كما تسمح له أيضاً بالتسري . إنه لمن النادر أن يتزوج رجل مسلم أربع نساء في وقت واحد . فإن هذا العدد يشكل عبئاً ثقيلاً ، ولكن كثيراً من الرجال كانوا يملكون إماءً . والفقير يحتفظ بأمة واحدة تكون له خادماً وزوجة في نفس الوقت .

ومتى ارتقت الأمة إلى مرتبة الزوجة أصبحت هي وابناؤها أحراراً وتتمتع بجميع الامتيازات التي يتمتع بها ارقى الناس . ولكنه إذا لم يعقد المالك على الأمة فإن أطفالها الذين يعترف بهم يكونون أحراراً . وزيادة على ذلك ، فإن أم الولد تصبح هي ايضاً حرة ، ولكنها تظل خاضعة لسلطة زوجها . وعند وفاة الزوج تتحرر مثل هذه الجارية تماماً ويطلق عليها اسم « أم الولد » . وقد كانت قصور دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بامهات الأولاد . وجميع ابناء هارون الرشيد باستثناء ابن واحد ، ينحدرون من هذا الأصل . أما إذا رفض المالك الاعتراف باولاد الجارية ، فيظلون ، هم وأمههم ، عبيداً .

ولاعطاء فكرة عن المصير الذي كان ينتظر الأسير المسيحي ، ذكرنا أو اننى من الفرنسيين ، نضرب مثلاً بالحادثة التالية :

في أواخر القرن العاشر سافر رجل من ضواحي طلوزة يدعى رايمون عن طريق البحر لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية ، وفي الطريق غرقت السفينة التي كانت تقله عند الشواطئ الافريقية ، فوقع اسيراً في يد العرب . ولما أصبح عبداً راح مالكة يستخدمه في الزراعة . ولكن ريمون الذي لم يكن متعوداً على هذه الأشغال ، اعترف له بأنه لا يحسن سوى القتال ، فجعله جندياً وشهد وقائع كثيرة ، وتقلب في البلد واشترك في مختلف المعارك التي وقعت بين الأفارقة ، وكان أحياناً يقع أسيراً في يد الأعداء الذين كان يحاربهم ، ولكنه كان دائماً يقاتل بحماس من أجل اسياده الجدد ، وقد انتهى به الأمر إلى أن اشترك في الحرب الأهلية التي وقعت في ضواحي قرطبة في سنة 1009 م .

وبعد خمسة عشر عاماً من القرصنة والمغامرات ، أسره صاننش ، كونت قشتالة وحرره (46) .

(46) راجع المصدر المذكور : Recueil des Bollandistes, 6 Octobre, p. 327.

وقبل ذلك ببضع سنوات ، اسرت فتاة صغيرة السن ، فتولى سيدها تعليمها وتدريبها على الرقص والموسيقى والغناء ثم أخذت إلى الشرق ونزلت في المدينة حيث خلبت عقول هواة الطرب . ولما عادت إلى الأندلس قدمها أمير قرطبة واتخذ منها محضيته .

وأما مصير الأسرى المسلمين الذين يقعون في أيدي الافرنج فإنه لم يكن يختلف كثيراً عن مصير الأسرى المسيحيين الذين تضعهم الحظوظ في أيدي المسلمين . فإن الرق كان معروفاً في فرنسا ، وكان يرد عليها الرقيق من الجرمانيين والسلافيين ومن غيرهم من سلالات أوروبا الشمالية . وكذلك كان يصل إلى فرنسا أسرى من المسلمين . والفرق الأساسي بين الأسرى الفرنسيين الذين يقعون في أيدي المسلمين ، والأسرى المسلمين الذين يقعون في أيدي الفرنسيين ، هو أنه كان يوجد في فرنسا حدّ فاصل بين العبيد الذين يولدون عبيداً أو يعتبرون كذلك ، والأحرار الذين يقسمهم القانون إلى درجتين : بورجوازيين ونبلاء .

وكثير من الأسرى المسلمين الذين يقعون في أيدي المسيحيين كان يقوم بشرائهم إخوانهم المسلمون وأقاربهم ، إما بأموال السلطان أو بأموال المحسنين الذين يوقفون تركاتهم لهذه الغاية .

والواقع أنه في الوقت الذي تأسست فيه جمعيات في أوروبا لفدية الأسرى كانت توجد مؤسسات تقوم بنفس الغرض في البلدان الاسلامية ، وقد ظهرت أول ما ظهرت في الأندلس . وذلك لأن فك الأسرى كان دائماً من أفضل الأعمال الخيرية التي يتقرب بها المسلم إلى الله . وقد سئل الرسول ﷺ عن أفضل ما يتقرب المؤمن إلى الخالق ، فقال إنه فك رقبة . وقد قال النبي ﷺ ما معناه : حرروا إخوانكم من قيود العبودية .

وقد ذكر أحد الكتاب العرب أن الأسلحة العربية عرفت حظاً نادراً في

عهد هشام ، أمير قرطبة وشرلمان بحيث تراكمت الأموال الموقفة لتحرير الأسرى فلم يعرف طريق لانفاقها⁽⁴⁷⁾ .

والأسرى المسلمون الذين يباعون يؤق بهم إلى اسواق أربونة ومرسيليا وآرل ويباعون هنالك . وهناك يلحق بهم ابناء ملتهم فيفدوهم . وفي بعض الأحيان يغتنم المسلمون فرصة غزوهم للشواطئ الفرنسية ، فيطالبون بمبادلة الأسرى الذين أخذوهم بأسرى مسلمين⁽⁴⁸⁾ .

وفي بعض الأحيان ، حين يريد الملوك المسيحيون كسب رضا الملوك المسلمين يعيدون إليهم من وقع بأيديهم من الأسرى .

وأما الأسرى المسلمون الذين لا تدفع فديتهم ، فإن مصيرهم العبودية ، مثل اليهود الوثنيين ، ليعخدم كل واحد منهم ماله . واكثر ما يستعملون في الحقل الزراعي . والعبيد الذين يعملون في الزراعة ويخدمون في المدن كانوا يشكلون أغلبية السكان في أوروبا في العصور الوسطى . والقانون يحرم عليهم التملك أو تكوين جزء من ثروة شخصية . ويمكن لمالك العبد أن يبيعه أو يضربه أو يعذبه دون أن يحاسب على ذلك ، بل إنهم كثيراً ما كانوا يكبلون بالاغلال حتى لا يفروا . ولكن عدم وجود شعور انساني تحل محله - لحسن الحظ - المصلحة التي تحفف من ويلات الانسانية المعذبة . فبالنظر إلى أن العبد الذي يعامل معاملة سيئة يتحين الفرصة دائماً للهروب ، ولأن النبلاء كثيراً ما يسعى الواحد منهم إلى خطف عبيد خصمه ، فإن المالك مضطر إلى أن يحسن معاملة عبده نوعاً ما .

والعبيد المسلمون ، مثل العبيد اليهود والعبيد الوثنيين ، لا يسمح لهم

(47) قارن المصدر المذكور : Rodric, Ximenes, p. 18, والنوبري ، مخطوطة المكتبة الأهلية

بباريس ، رقم 645 ، ورقة 95 و 96

(48) - نفس المصدر

القانون بالتزوج بالنساء المسيحيات ، حتى ولو كنَّ من الاماء . والمرأة المسيحية التي تسلم نفسها لعبد في نزوة جنسية ، تحرمها الكنيسة من قبر في مقابر المسيحيين . واشنع من ذلك أنه لا يؤذن لعبد بالتزوج بامة حتى ولو كانت من ملته ، ولو أنه في هذه الحالة يمكنها المعاشرة ، إذا أذن المالك بذلك . والأطفال الذين ينتجون من هذا الاختلاط يعتبرون ، مثل العبيد ، ملكا للسيد .

لقد تلاشى الرق في اوروبا في غضون القرن الثاني عشر الميلادي ، ولكنه استمر العمل به في بعض البلدان بالنسبة لغير المسيحيين ، ولا سيما بالنسبة إلى المسلمين⁽⁴⁹⁾ . ولكن الاسترقاق خف في غضون القرون التالية نتيجة لتحسن السلوك ورقة طباع الناس . وفي بعض الأحيان يقوم رجل تقي بتحرير عبد له حينما يقع له حادث سعيد .

كان العبيد المسلمون يشتغلون في مزارع يمتلكها الأفراد أو الكنائس والأديرة . وبعضهم يبقى في خدمة سيده ويرافقه في تنقله أُنَّى سار . ونحن سبق أن رأينا أن المسلمين الذين وقعوا في الأسر أمام أربونة في سنة 1019 م ، قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الرؤساء والأعيان . ولا شك أن هذا أيضاً كان مصير المسلمين الذين وقعوا في الأسر ، في بروفانس ، عقب معركة سنة 975 ؛ وجميع الجنود المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيوشهم التي خسرت تلك المعركة .

وكان عدد العبيد من المسلمين يزداد نتيجة للحروب الصليبية من جهة ، وللحروب التي كانت تقع بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس ، وعلى ضفاف البحر الأبيض من جهة أخرى . وايضاً نتيجة للتجارة في الرقيق⁽⁵⁰⁾ .

(49) توجد في هذا السياق شهادات لا تدحض في كتاب Pardessus, Recueil des Ancienne lois maritime, T. IV, Ch. XXVII.

(50) نفس المصدر

والمؤكد أن وجود العبيد المسلمين في فرنسا قد استمر مدة طويلة .

فإن « أرنو » (Arnaud) رئيس أساقفة أربونة قد أوصى بعبيده المسلمين ضمن تركته لاسقف « بيزير » (Bézières)⁽⁵¹⁾ ، وفي سنة 1250 م ؛ أوصى « روميدوفيلنوف » (Roméodevilleneuve) الذي كان وزير الكونت بروفانس ، قبل موته ببيع عبده المسلمين من الذكور والاناث⁽⁵²⁾ . وبعد هذا التاريخ بقرنين تذكر السجلات أن ثلاثة من العبيد المسلمين بيعوا للملك « روني » (René)⁽⁵³⁾ .

وفيما يلي نورد مقتبسات تلقي ضوءاً على مصير المسلمين الذين وقعوا في أيدي الفرنسيين والذين لم يفتدهم إخوانهم .

ينص قانون أصدره مجمع الاساقفة في طرقونه في سنة 1239 م . وقرار أصدره اسقف بيزير في سنة 1368 م ؛ على أنه يحتم على المسلمين ذكوراً وإناثاً أن يلبسوا ازياء خاصة بهم تتميز عن ملابس المسيحيين من حيث اللون والشكل معاً⁽⁵⁴⁾ ومثلهم في ذلك مثل اليهود .

والاتصالات التي تقع بين الذكور والاناث من المسلمين في بعض المناطق كانت تصدم شعور المؤمنين الاتقياء من المسيحيين ، بحيث اضطر دير « سيطو » (Citeaux) إلى إصدار تشريع يحرم على المسلمين والمسلمات من السكن في منزل واحد . وأكثر من ذلك ، فإن بعض المؤسسات الدينية تمنع

(51) راجع المصدر المذكور : Gallia Christia, T. VI, instrum. Col. 39.

(52) راجع المصدر المذكور : Bouche, Histoire de Provence, T. II, P. 257.

(53) انظر : Fauris de Saint Vincens, Mémoire sur la Provence, Aix, Ponties, 1817, p. 63.

(54) Martenne, Amplissima Collectis. T. VII, p. 132, et Thesaurus anecdorum, (54) T. IV, p. 657.

استقبال العبيد المسلمين بتاتا للخدمة فيها⁽⁵⁵⁾.

ونحن سبق أن ذكرنا أن العبد المسلم الذي يعتنق المسيحية يصير بذلك حراً . ولما كانت طلبات التعميد من المسلمين في بعض الأحيان تنطوي على خدعة ، لأنه بمجرد ما يصبح حراً يعود إلى دينه ، فقد اتجه السادة إلى اختبار عقيدتهم بعض الوقت⁽⁵⁶⁾ .

وفي وقت لاحق تطور الأمر بحيث أصبح المسيحي يعرقل جهود عبده المسلم بعد التعميد لكي يختلط بالمجتمع المسيحي . بل وأكثر من ذلك ، فقد كان المسيحيون يرفضون تحرير عبيدهم المسلمين حتى بعد ما يعتنقون المسيحية ، مخالفين بذلك القوانين ، وكانوا يسومونهم أنواع العذاب والقسوة .

وفي سنة 1266 م ؛ ارسل البابا كليمنت السادس رسالة إلى ثيودور ، ملك «نابرة» (Navarra) ضمنها صواعق غضبه على رئيس دير « سانت بونواست دوميران » (St - Benoist de Mirend) الذي امر بتعذيب رجل مسلم غني كان قد تنصر ، زاعماً أنه لم يكن مخلصاً في نصرانيته ، واستولى على أمواله وحرّم منها أولاده⁽⁵⁷⁾ .

وهكذا نجد أنه كان يقيم في فرنسا ، إلى جانب العبيد المسلمين أشخاص من ذوي الأملاك . وكان معظم هؤلاء ، مثل اليهود ، يعملون في الشئون المالية ويقرضون الأموال بالربى . ومتى غضب الشعب على اليهود لهذه الممارسات ، شمل غضبه المسلمين أيضاً⁽⁵⁸⁾ . ونحن سبق أن ذكرنا أن العبيد المسلمين لا يحق لهم الزواج بالمسيحيات ، كما كان من المحظور عليهم أن تقوم

Thesarus anecdorum, T. IV, 1246.

(55)

(56) نفس المصدر ، 290/4 .

(57) نفس المصدر ، 360/2 .

(58) نفس المصدر ، 904/4 .

المسيحيات بارضاع ابنائهم . وكل مسيحية تسلم نفسها لمسلم تحرم من حقها في الحصول على قبر في مقبرة مسيحية .

كان المسلمون يدفعون الضرائب والعشور للكنيسة ، مثل المسيحيين ، وكذلك كان من المحتم عليهم أن يحتفلوا بالاعياد المسيحية ويعطلوا أشغالهم⁽⁵⁹⁾ . أما في وقتنا هذا فإنه لم يبق من هؤلاء المسلمين التعساء احد في فرنسا . ليس من شك في أن عدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسا كبيراً ، وكانت هذه نتيجة طبيعية للحالة السائدة يومئذ . ولكن الفرنسيين الذين اعتنقوا الاسلام كان عددهم أكبر . فإن الغزوات الاسلامية الأولى لفرنسا وما تلاها من سبي المسلمين للذراري من أهل هذا البلد ، ومن التجارة الواسعة في الرقيق ، كل ذلك أدى إلى اعتناق عدد كبير من المسيحيين للاسلام . ومن جهة أخرى ، نلاحظ أن المسلمين كانوا في جميع الأوقات يرحبون بالمسيحيين الذين يعتنقون الاسلام ويشجعونهم على ذلك بعدد من الفوائد والامتيازات .

والآن لنتحول إلى الحديث عن الطريقة التي كان المسلمون يحكمون بها فرنسا أيام كانت لهم السيادة على ذلك البلد المنهزم ، وعن سياستهم في معاملة السكان وتسيير الادارة المدنية ولا سيما فيما يتعلق بالضرائب .

ونحن هنا لا نتحدث عن الغزوات العابرة التي كانت تقوم بها جماعات مسلحة بين الحين والحين وترتكب خلالها اعمال العنف ثم تعود أدراجها . فنحن في هذه الدراسة سوف نهمل الغزوات الأولى التي قام بها العرب لجنوب فرنسا ، بل سوف لا نعتبر حتى احتلالهم فيها بعد لبروفانس ودوفيني وببيمونت وسافواي وسويسرا . فإن إقامة العرب في هذه البلاد كانت - إذا استثنينا الحصون والقلاع - غير مستقرة . والمسلمون لم يحتلوا أيّاً من هذه البلاد برمتها .

(59) راجع المصدر المذكور : 657 p. IV et 132 p. VII, T. Amplissima Collection, 736 et.

وبينما كانت بعض جماعاتهم تسيطر على الممرات الجبلية ومعابر الأنهار ، وتفرض إتاوات على المرور بها ، كانت جماعات مسالمة أخرى تقوم بالأعمال الزراعية وباستغلال الاودية الخصبة وكثيراً ما ترضى بدفع الضرائب لأمير البلاد . وأما احتلال بروفانس الذي كان حصن فراكسنيث قاعدته ، فإن العرب لم يرسموا أية سياسة يقوم عليها ، وقد كانت البلاد المجاورة دائماً عرضة لعبثهم وعيشهم .

وهكذا ، فإن الملاحظات التي سنقدمها ، إنما تنطبق على حكم المسلمين للانجدوك التي استقروا فيها ، وذلك خلال الفترة بين 724 - 758 م ؛ في عهد شارل مارثل وبيين - لو - بريف . ونحن تعوزنا المعلومات عن هذه العصور المتوغلة في القدم ، ولكننا رأينا كيف استعاد المسيحيون القوط في لانجدوك جزءاً من النفوذ والسلطان الذي كان لهم من قبل ، في أعقاب الحروب الاهلية التي برزوا فيها مع المنتصرين ، أي في حدود سنة 737 م فصاعداً ، فكان لهم حكامهم الذين يحملون لقب الكونت ، كما كانت لهم قوانينهم القومية⁽⁶⁰⁾ .

ومن جهة أخرى ، نجبرنا ايزدور ، اسقف بجة الذي هو كاتب معاصر للأحداث ، في حولية سنة 734 م ؛ أن عقبه ، عامل الاندلس ، كان من عادته أن يترك الحرية لكل شعب من الشعوب الواقعة تحت سلطته ، لأن يطبق قوانينه وشرائعه القومية الخاصة به .

وأخيراً ، وقع في يدنا مرسوم أصدره العامل العربي على « قلمرية »

(60) كان الكونت مجرداً من جميع السلطات العسكرية . والواقع أن ما استحدثه المسلمون في لانجدوك وغيرها من البلدان التي أخضعوها لسلطانهم ، كان مشابهاً لما سار عليه الفرنج والقوط والوندال عندما غزوا الولايات الرومانية ، حين يتركون للشعب المغلوب على أمره كونتا يتولى شؤنه . انظر ، خصوصاً :

Sismondi, Histoire de la Chute de l'empire romain, Paris, 1835, T. I.

(Coimbre) نستدل منه على أن حكم المسلمين للبرتغال كان يقوم على أسس مماثلة . وفيما يلي نص ذلك المرسوم :

« سيولى على المسيحيين في قلمرية كونت خاص ليدر أمورهم ويحكم فيهم بالعدل والسداد ، وعلى الطريقة التي تعود المسيحيون أن يحكموا بها في الماضي . وسيكون من صلاحيات الكونت فض النزاعات بينهم ، ولكنه لا يستطيع أن يصدر حكماً على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضي المسلمين . وإذا أصدر مثل هذا الحكم يقدم الجاني أمام القاضي ويقرؤا عليه نص القانون المسيحي الذي يعالج القضية . وإذا وافق القاضي ينفذ الحكم . وقد كان لكل مدينة صغيرة قاضٍ خاص بها يحكم فيها بالعدل ويعمل لمنع وقوع الخصومات . ومتى اعتدى مسيحي على مسلم يحاكم طبقاً لاحكام الشريعة الاسلامية . ومتى اعتدى مسيحي على شرف مسلمة اضطر الى اعتناق الاسلام والتزوج بها ، وإن رفض قتل . وإذا كانت المرأة متزوجة حكم على المسيحي بالموت بدون مراجعة⁽⁶¹⁾ .

وهذه الشهادات المتنوعة تبين لنا نوع النظام الاداري الذي اعتمده المسلمون اثناء حكمهم للانجدوك ، وهو نفس النظام الذي ساروا عليه في الولايات الأخرى التي خضعت لسلطانهم .

ومثلما هي الحالة في مجال الادارة السياسية ، تنقصنا المعلومات أيضاً فيما

(61) كان من الممكن أن يلاحظ المؤلف أن الحكم الذي يطبق على الزاني واحد في الشريعة الاسلامية ، سواء أكان الجاني مسلماً أو مسيحياً . وفيما يتعلق بمرسوم عامل مدينة قُلْمَرِيَّة ، فقد ظل محفوظاً في دير « لوربان » (Lorban) وقد نشر لأول مرة في الكتاب المعنون Monarchia Lusytana, Lisbonne, 1609, Part II, p. 283- 287 . وبالنظر إلى اهمية هذا النص من الناحية الأدبية واللغوية ، فقد أعاد نشره Raynouard في مختاراته الشعرية المعنونة :

Poésie Orientale des Troubadours, Paris, 1816, T. I, p. II.

يتعلق بالادارة الدينية ، ولكنه يمكننا أن نستنتج مما سار عليه المسلمون في حكمهم لمناطق أخرى لتكوين فكرة في الموضوع .

لقد ظل جمهور السكان في أربونة وفي المدن المجاورة لها متمسكين بالمسيحية . وبعبارة أخرى ، فإن المسلمين احترموا ديانة البلد وتركوا للسكان كنائسهم لممارسة طقوس دينهم بحرية كما تركوا لهم رجال الدين الذين يقومون على حرمتها .

على أنه من الخطأ الاعتقاد بأن سكان هذه المدن كانوا يتمتعون بنفس الحقوق التي كان يتمتع بها المسيحيون في قرطبة وفي بقية أطراف الامبراطورية الاسلامية .

ففي قرطبة اقتصر المسلمون على الاستيلاء على الكنائس الكبرى وعلى أملاكها وتركوا للمسيحيين سائر الكنائس والأديرة بما فيها من الرهبان والراهبات في نطاق نظامهم الديني . وبعبارة أخرى ، فقد سمح المسلمون للمسيحيين باستخدام الأجراس في الدعوة الى الصلاة وهي مزية لم يسمحوا بها للمسيحيين في افريقيا ولا في آسيا⁽⁶²⁾ .

أما في أربونة والمدن المجاورة لها ، فلم يكن للمسيحيين اساقفة ، مثلما في قرطبة ، ولا كانت لهم أديرة . ولكن المسلمين لم يكونوا ، في الحقيقة ، سبب ذلك كله . والفوضى التي عمت معظم الكنائس الواقعة في جنوب فرنسا في ذلك العهد لم تكن كلها نتيجة لاعمال المسلمين ، بل كانت تسود فيها منذ نحو نصف قرن قبل ذلك ، كما تعترف بذلك رسالة من سانت بونيفاس ، رئيس أساقفة « ماينتس » (Mayence) ، وجهها في سنة 742 م .

(62) انظر كتاب : l'indculus luminosus وهو كتب في سنة 850 م . (Espana Sagrada ، 229/11 . والمعروف أن المسيحيين الذين يقيمون في جبل لبنان هم وحدهم الذين يتمتعون بهذه المزية .

إلى البابا زكريا⁽⁶³⁾ ، وكانت نتيجة للحروب التي وقعت بين أبناء كلوفيس . ولكن هذه الفوضى لم تمسّ الولايات الشمالية في اسبانيا ، وإنما كانت هذه الفوضى نتيجة لوصول المسلمين إلى تلك البلاد ، وسوف تستمر حتى جلائهم عنها⁽⁶⁴⁾ .

جاء في سيرة لويس - لو - ديونير لكاتب مجهول⁽⁶⁵⁾ . إنه عندما استولى الفرنسيون على برشلونة وأخذوها من يد المسلمين في سنة 802 م ؛ كان أول ما صنعه لويس أنه قصد كنيسة الصليب المقدس لكي يصلي ويشكر الله على انتصاره هذا . وبالنظر إلى أن كنيسة الصليب المقدس كانت في هذا العهد كتيدرائية ، فقد استنتج أحد العلماء من هذه الفقرة أن المسيحيين في برشلونة كانوا يحتفظون في عهد الحكم الاسلامي بكنائسهم الكبيرة ، وبالتالي ، بأسقفها وقساوستها .

ولكن إيرمولدوس نيجلوس قد ذكر في بعض أبيات قصيدته التي سبقت الإشارة إليها أن الملك لويس ، قد أمر بتطهير الكنيسة قبل أن يقصدها للصلاة فيها ، مما يدل على أن كنيسة الصليب المقدس قد تحوّلت في عهد المسلمين إلى مسجد⁽⁶⁶⁾ .

(63) راجع المصدر المذكور : Recueil des historiens de France, T. IV, p. 94.
(64) ففي أراجونة ، مثلاً ، قرّ الأسقف لدى وصول المسلمين إلى ذلك البلد في حوالي سنة 712 م . والتجأ إلى قمم جبال البيرينيز . وبعد ذلك لم يتول أسقف في البلد إلا بعد مرور ثلاثة قرون ، أي في سنة 1096 م . عقب إجلاء المسلمين عنه . راجع : Le Teatro historico de las Iglesias del reyno de Aragon, Pampelune, 1792, T. V, p. 102, 130, 233, et 376.

(65) راجع المصدر المذكور : Recueil des historiens de France par Dom Bouquet, T. VI, p. 92.

(66) البيت 533 من القصيدة . راجع المصدر المذكور : Recueil de Dom Bouquet, T. VI, p. 23.

يبدو لنا أن سياسة المسلمين كانت تهدف إلى إبعاد الأساقفة وكبار رجال الكهنوت من المدن الواقعة على التخوم ، كلما أمكن ذلك ، حتى تبقى العلاقات بين سكان الولايات الواقعة تحت سلطانهم وبين سكان البلدان الأجنبية محصورة بقدر الامكان . ودليلنا على ذلك أن شرلمان كان يسعى كلما اتسعت مملكته إلى توثيق هذه العلاقات بحيث أنه كان يشرف عليها بنفسه .

ونحن نستطيع أن نحكم ، في حدود معينة ، على العلاقات الدينية بين المسلمين والفرنسيين في فرنسا ، على ضوء العلاقات التي كانت قائمة بين الطائفتين في الاندلس .

كان عدد الكنائس التي تركت للمسيحيين في الاندلس قد تجدد عند فتح ذلك البلد ، وكان من المحظور عليهم بناء كنائس جديدة ولكنه كان مسموحاً لهم بإصلاح الكنائس القديمة وترميمها⁽⁶⁷⁾ .

لم يكن للمسيحيين حق الطواف في الشوارع في احتفالات دينية بالاعلام والصلبان ، ويتحتم غلق أبواب الكنائس عندما يؤدون الصلاة . ومتى قرر مسيحي اعتناق الاسلام ، يحرم على الآخرين وضع العراقل في طريقه⁽⁶⁸⁾ .

قلنا أن المسيحيين الذين يقيمون في قرطبة وفي غيرها من مدن الاندلس كانوا يعاملون معاملة حسنة ، وإن المسيحيين ، من جهتهم ، كانوا يحترمون المسلمين . ومن الممارسات والتقاليد التي يتجسم فيها هذا الاحترام ، مثلاً ، أن النصراني كانوا يخبئون أطفالهم ويمتنعون عن أكل لحم الخنزير⁽⁶⁹⁾ . ومع

(67) يشترط بعض الفقهاء المسلمين على المسيحيين الذين يريدون إعادة بناء كنائسهم أن يستعملوا لهذه الغاية نفس الأرض التي تقوم عليها الكنيسة القديمة ونفس الأحجار التي بنيت بها . انظر تفاصيل أخرى في :

Mouradgaa d'Ohsson, Tableau de l'empire Ottoman, T. V, p. 109.

(68) أنظر اعلاه .

(69) راجع المصدر المذكور : Alvare, Indiculus luminum .

ذلك ، فإذا صدقنا ما يقوله مسيحي من قرطبة - وهو على كل حال كان يكتب في الوقت الذي غضب فيه الخليفة على النصارى ، أي في سنة 850 م ؛ فإن مراحيل الحقد والبغضاء كانت تغلي بين المسلمين والمسيحيين ، وأنه كان من المحظور على المسيحيين إقامة شعائر دينهم علناً وبالاحتفالات الضرورية . وهو يقول في هذا الصدد :

« لا يجزئ أحد منا على إظهار عقيدته علناً . ومتى اضطر القساوسة للظهور أمام الجمهور للقيام بواجب مقدس ، فسرعان ما ينال عليهم المسلمون بعبارات الشتم . بل إنهم لا يكتفون أحياناً بعبارات الشتم والسخرية ويتجاوزون ذلك إلى مطاردتهم بالأحجار . ومتى سمع قرع النواقيس نفروا وراحوا يلعنون الدين المسيحي⁽⁷⁰⁾ .

والمسيحيون من جهتهم ، كما يعترف بذلك « سانت أولوج » (Saint Euloge) الذي كان هو نفسه ضحية لاحداث سنة 850 م ؛ فإن المسيحيين عندما يسمعون صوت المؤذن يدعو الى الصلاة ، كانوا يتعذون ويرسمون إشارة الصليب على صدورهم ويقولون إنه صوت الدجال .

وفيما يتعلق بالخراج الذي وضعه المسلمون في الاندلس . فقد سبق أن عرفنا أن السمعح (بن مالك الخولاني) أمير الاندلس ، كان أول من نظم الجبايات ورتب الشئون المالية في سنة 720 م ؛ وقد شمل النظام الذي فرضه على الأندلس ولا نجدوك على السواء . وقبل هذا التاريخ كانت أمور الجباية فوضى ، تماماً مثل أرزاق الجيش .

بدأ السمعح عملية التنظيم بتوزيع بعض الأراضي التي اخذت من

(70) راجع : André Schott, Apologie pour les martyrs, dans Recueil intitulé : Hispania Illustrata, Francfort, 1608, T. IV, p. 313.

المسيحيين على العائلات الاسلامية الفقيرة ، بعد أن كان بعض ذوي السلطة قد استأثروا بريعتها لأنفسهم وأما الباقي فقد جعله السمع ملكاً لبيت المال .

كان الخراج المفروض على أراضي المسلمين هو عشر المحصول ، بينما كان المسيحيون يدفعون الخمس ، أي ضعف خراج المسلمين⁽⁷¹⁾ . وفي البداية تقرر أن يعامل المسيحيون الذين يستسلمون بدون قتال معاملة المسلمين في أمر الجباية ، ولكن هذا القرار الغي فيما بعد .

وإلى جانب هذا الخراج الذي يمثل عشرين بالمائة والذي لا بد وأن يكون ثقيلاً ، كان المسيحيون يدفعون الجزية أيضاً ، وقيمتها تختلف باختلاف ثروة الأفراد . والجزية لا يدفعها إلا الذكر البالغ الذي يعيش من دخله أو من عمله ، والجزية تدفع في مقابل حماية المسلمين لأرواح المسيحيين وأموالهم والسماح لهم بممارسة طقوس دينهم . ومتى اعتنق مسيحي الديانة الاسلامية سقطت عنه الجزية⁽⁷²⁾ .

وأخيراً ، كان امراء الأندلس يفرضون رسوماً على البضائع والسلع ، فكان المسلم يدفع اثنين ونصف في المائة ، والمسيحي خمسة في المائة من قيمتها . وكانت هذه الرسوم تسمى « زكاة » وتتفق لاعانة الفقراء ولتحرير الأسرى⁽⁷³⁾ .

كان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية

(71) ينص مرسوم عامل قلمرية المتقدم الذكر على أن المسيحيين في البرتغال أيضاً يدفعون ضعفي ما يدفعه المسلمون .

(72) فيما يتعلق بتفاصيل ما ذكره المؤلف ، راجع ابن القوطية مخطوطة المكتبة الاهلية ، ورقة 59 .

انظر أيضاً : وفيه يستعرض الفتح الأول لاسبانيا . Code, Historia, T. I.

(73) قارن المصدرين المذكورين : Mouradgaa d'Ohsson, Tableau de l'empire Ottoman, T. II, p. 403 et T. V, p. 15 et Code, Historia, T. I, p. 270.

« معاهدين »⁽⁷⁴⁾ ، أو « أهل الذمة » ، أي الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية . والواقع أنه بمجرد ما يحصل المسيحي على الحفاظ على دمه وعلى السماح له بممارسة طقوس دينه ، ويدفع الجزية المطلوبة ، يقع ارتباط متبادل بين الطرفين بأن يتولى المنتصر حماية المغلوب .

وكذلك يطلق العرب على المسيحيين ، ولا سيما الذين لا يعترفون بسلطان اسم « علعج »⁽⁷⁵⁾ ، وعلى الشخص الذي يدين بدين غير الاسلام « اعجمي »⁽⁷⁶⁾ وأما الذين لا ينتمون إلى أي دين من الأديان السماوية ، فيسمون « مشركين »⁽⁷⁷⁾ . والواقع أن المسلمين مقتنعون بأن المسيحيين إذ يعترفون بإله ذي ثلاثة أقانيم ، إنما يعبدون في الحقيقة ثلاثة آلهة⁽⁷⁸⁾ .

(74) في الأصل مكتوب بالحرف العربي في هامش .

(75) في الأصل مكتوب بالحرف العربي في هامش . والعلعج في الأصل الرجل الشديد الغليظ (الجمع أعلاج وعلوج) . والعلعج في لسان العرب (طبعة بيروت / الخياط ، 858/2) : « الرجل من كفار العجم » . وفي رواية نقلا عن الجوهرى أن العلعج : الكافر . وفي ملحق المعاجم العربية لدوزي ، أن اسم العلعج قد اتخذ في أواخر العصور الوسطى معنى جديداً بحيث يطلق على كل شخص غير دينه ، أي على المسلمين الذين تنصروا ، وعلى المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام ، على حد سواء . انظر :

DOZY (R), Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2/159

(76) في الأصل مكتوب بالحرف العربي في هامش . وفي لسان العرب : « العُجْمُ خلاف العرب » و« العجمين من جنس العجم ، أفصح أم لم يفصح » . والعجمية عند الأندلسيين هي اللغة الاسبانية . قارن لسان العرب ، 696/2 وما يليها ، ودوزي ، المصدر المذكور ، 98/2 .

(77) في الأصل مكتوب بالحرف العربي في هامش .

(78) راجع : Blacas (Duc de), Monument arabe, T. II, p. 8 .

ونحن لم تصادفنا قط في الكتب العربية كلمة Mosarabe التي تطلق على المسيحيين الذين يعيشون تحت سلطان المسلمين ، وذلك على الرغم من أن بعض الكتاب المسيحيين يرجع أصل هذه الكلمة من حيث الاشتقاق إلى أصل في اللغة العربية . وأما كلمة Mudejare التي يطلقها المسيحيون على مسلمين عاشوا تحت سلطان النصارى فإن =

ما دام المنتصرون والمغلوبون على أمرهم يتحدث كل فريق منهم لغة تختلف عن لغة الآخر ، فبأية لغة يتفاهمون ؟ من المعروف أن العرب عموماً ، لا يهتمون باللغات الاجنبية في القديم . والمسيحيون من جهتهم ، لم يكونوا ليفكروا في تلك العصور التي ساد فيها الجهل والبربرية في بلدهم في تعلم اللغة العربية . والتاريخ لا يتحدثنا في هذا السياق إلا عن كاهن واحد ، وهو رثب دير سانت جال ، وإسمه « هارموت » (Hartmote) الذي درس في حوالي سنة 880 م ؛ اللغة العربية ، إلى جانب العبرية واليونانية⁽⁷⁹⁾ .

بدأ الاهتمام باللغة العربية في فرنسا في وقت متأخر . وكانت دراسة أولئك الذين احتلوا بلادنا أجيالاً طويلة تجري في الاندلس حيث كانت دراسات هذه اللغة واللغة اللاتينية مزدهرة . وفي سنة 1142 م . أكمل بطرس ، رئيس دير « كلوني » (Cluny) أول ترجمة لاتينية للقرآن ، وشرع في كتابة ردوده على الاسلام ، وكان ذلك في مدينة طليطلة . كانت اعمال بيتر بداية حركة اشتملت على عدد كبير من الكتب التي ظهرت فيما بعد عن الاسلام⁽⁸⁰⁾ .

على أنه لا مجال للشك في أنه كان يوجد في فرنسا لدى دخول العرب إليها عدد كبير من الأشخاص الذين يتحدثون اللغة العربية . وذلك لأن العرب كانوا يأخذون الرهائن من أبناء الأسر الكبيرة النبيلة لضمان طاعتها وولائها كلما انتهوا من فتح بلد ، ثم يرسلون هذه الرهائن إلى المراكز الكبرى في الامبراطورية الاسلامية حيث يتعلمون العربية حتياً . وبعض هؤلاء

= الكتاب العثمانيين يستعملون مقابلاً لها ، وهو : « الذين » . انظر Marmol ، طبعة 1573 م ؛ 154/1 .

(79) راجع المصدر المذكور : Histoire Litteraire de la France, T. V, p. 611 .

(80) انظر كتاب : Reinaud et Francisque Michel, le Roman de Mohamet et le livre de la loi sarrazine, Paris 1831, Préface.

لرهائن يعودون إلى بلدهم . وهذه أيضاً هي حالة الأسرى الذين يطلق سراحهم . أضف إلى ذلك وجود عدد كبير من العبيد المسلمين الذين يعملون في الزراعة في مختلف أنحاء البلد .

ويجب الا يفوتنا أن نذكر في هذا السياق أيضاً وجود عدد كبير من الحجاج الذين يقصدون بيت المقدس والتجار المسيحيين الذين يترددون على بلدان الشرق ، ولا سيما على مصر وسوريا . ومن جملة هؤلاء الانجليزي « سانت جييود » (Saint - Guilleboix) الذي ذهب إلى الشرق في سنة 730 م ؛ ووصل الى الشام بعدما قطع فرنسا وإيطاليا في سنة 734 م . وهؤلاء الحجاج والتجار كان من الممكن أن يقدموا لنا معلومات قيمة عن سياسات الملوك المسلمين ومواردهم وأحوال شعوبهم في ذلك العصر . وكم يهمننا أن نعرف ، مثلاً ، ما كان يقال في دمشق عن زحف الجيوش الاسلامية في الاندلس على فرنسا والبلدان المجاورة لها ، وما كان ينتظره الناس منها من النتائج .

ولكنه لسوء الحظ ، فإن التجار المسيحيين الذين كانوا يتعاملون مع العرب في المشرق لم يسجلوا أية ملاحظات عن هذه الاتصالات .

وأما سانت جييود ، فقد اعتقل عقب وصوله إلى سورية واتهم بالتجسس ، ولكنهم لما علموا أنه يقصد بيت المقدس اطلقوا سراحه . وبعد ذلك تجول في سورية وفلسطين ولبنان بحرية . وفي دمشق اجتمع بالخليفة وتحدث اليه . ولكن السائح لا يذكر شيئاً عما جرى في هذه المقابلة في رحلته التي كتبها ابنة اخيه .

كان المسيحيون في ذلك العصر مستسلمين للاقدار ولم يكن في وسعهم أن يفهموا فهماً صحيحاً تلك الاحداث المحزنة التي يتعرض لها بلدهم . وقد كان الجميع مقتنعين أن غزوات المسلمين هي من نتائج غضب الله على العباد

بسبب ما يرتكبونه من الخطايا ، فكانوا راضين بما قدر لهم ولا يحاولون دفع ما حل بهم أو حتى فهمه ، فأهملوا الوسائل الكفيلة بدفع الأذى عنهم . وأي فرق بين هذه الروح والتي دفعت بهم فيما بعد في الحروب الصليبية رأينا كيف أن المسلمين أثناء غزواتهم يسبون النساء والأطفال الذين يربونهم الى سن الرشد ثم يجعلون من الشبان جنوداً . وأما البنات فيربونهن إلى سن الرشد ثم يتخذون منهن إماء أو زوجات . وبغض النظر عن الامدادات التي يتلقونها من الاندلس أو من افريقيا ، فقد كان تخليد جنسهم بالزواج أو بالتسري من الأمور التي يضعونها نصب أعينهم في كل مرة يشنون فيها غارة . ونحن نستطيع أن نتأكد من ذلك حينما نتأمل حلولهم بجزيرة كريت .

سبق أن ذكرنا أنه عقب ثورة الربض بقرطبة ، اضطر خمسة عشر ألفاً من السكان إلى سلوك طريق المنفى ، وأنه بعدما اقاموا مدة في الاسكندرية ، اتجهوا مع مغامرين آخرين إلى كريت . ولما اعجب رئيس هذه الجماعة ما تتمتع به الجزيرة من خصوبة الأرض والهواء الطيب قرّر الاستقرار فيها بصفة نهائية ، وأشعل النار في السفن التي اقلتهم . ولما شاهد رفاقاً وه النيران تلتهم السفن تساءلوا كيف يمكنهم الاتصال بعد الآن بنسائهم وأطفالهم ؟ فأجابهم قائلاً : « إنني وهبتكم وطناً جديداً سوف يوفر لكم نساءً لتزوجوا بهن ، وما عليكم إلا إنجاب اطفال » .

والمسلمون عندما جاءوا الى فرنسا كانوا مصمّمين على إخضاع هذا البلد لسلطانهم ونشر الاسلام فيه وفي غيره من البلدان الأوروبية . ولكنه في مرحلة تالية دخلت في هذه الغزوات اغراض ومقاصد أخرى كالنهب ، والأخذ بالثأر ، وحب المغامرة ، واستقرار العرب في بروفانس في أواخر القرن التاسع الميلادي ثم توغلهم في جبال الالب ، لم تكن إلا حوادث غرضية .

وقد ذكر المؤرخ ليوتبراند فتح المسلمين لجزيرة صقلية فقال إن أمير

صقلية من قبل امبراطور القسطنطينية كان قد خرج على طاعته ، فاستنجد
بأمير العرب في القيروان ، فشاور هذا أصحابه فيما يصنع ، فكانوا جميعاً على
رأي واحد ، وهو إنجاد أمير الجزيرة ، ولكنهم نصحوه بعدم الاستقرار فيها .
وذلك لأن الجميع كانوا يعرفون مدى قرب الجزيرة من الأرض الكبيرة ، وكانوا
مقتنعين بأن اليونان وفرنسا ستذهب لنجدتها ، وأن شعباً يتحدث لغة غير لغة
القوم الذي يريد الاستقرار بينهم ويدين بعقيدة غير عقيدتهم لن تستقيم له
الاقامة بينهم بصورة ثابتة .

سأل أحد المتشاورين : « ما هي المسافة الفاصلة بين الجزيرة والأرض
الكبيرة » ؟

فقال له : « إن شخصاً يستطيع أن يقصد الأرض الكبيرة ويعود إلى
الجزيرة مرتين أو ثلاثاً في اليوم » .

فسأل : « وما هي المسافة التي تفصل بين افريقيا وجزيرة قبرص » ؟
فقال له : « مسافة يوم وليلة » .

فأجاب قائلاً : « لو كنت طائراً لما رضيت بالمقام في الجزيرة في هذه
الحالة » . أورد هذه القصة النويري في نهاية الارب .

والحقيقة أن المسلمين لم يكونوا ينوون الاستقرار في جزيرة صقلية عندما
قرروا غزوها ، ولكنهم بعدما شاهدوا خيرات البلاد التي يستمتع بها
امراؤها ، وبعدها عاينوه من حالة الفوضى المنتشرة فيها ، قرروا الاحتفاظ بها
والبقاء فيها ، وهذا على عكس ما استقر عليه رأيهم بشأن ايطاليا الجنوبية
حيث كان أمراء تلك البلاد المنقسمين على أنفسهم هم الذين وجهوا الدعوة
اليهم للاستقرار في البلد .

تلك هي مجمل الاعتبارات التي بدا لنا أنها تلقي ضوءاً على الطابع العام

الذي يميز الغزو العربي لفرنسا ، وعلى الظروف التي أحاطت به . وهذه الاعترافات ملائمة كذلك لكي نسترشد بها في معالجتنا للمسائل الباقية من هذا البحث .

والسؤال الأول الذي يتبادر الى الذهن في هذا المجال ، هو : ما هي الآثار التي بقيت في فرنسا وفي البلاد المجاورة لها لاحتلال المسلمين ؟

نعتقد أن غزوات المسلمين الأولى التي تركت أضراراً كبيرة في البلد لم تخلف سوى آثار خفيفة . وهذا لا يعود ، في رأينا إلى تعصب السكان في الجنوب الى درجة تحملهم على تخريبها ، فإن آثار الرومان لا تزال قائمة ولم تمتد إليها يد العابثين . فإن قلة آثار العرب في هذه ترجع إلى اسباب أخرى ، أهمها أن العرب كانوا في تلك الفترة لا يزالون حديثي العهد بالبداءة وكانت الحضارة غريبة عنهم ، وبالتالي ، لم يكن في وسعهم تشييد الآثار والمباني العظيمة . ففي أربونة ، مثلاً ، حيث أقام العرب نحواً من اربعين سنة ، والتي كانت حصنهم المنيع لا يوجد في المدينة أي أثر لهم ، ويبدو أنهم قد اقتصروا على زيادة أحكام تحصينات القلاع حتى جعلوها منيعة لا تقتحم . وفي هذه المدينة التي تصادفنا عند كل خطوة حطامات آثار الرومان ، لا توجد قطعة حائط واحدة أو نقش يمكن أن يعزي إلى العهد العربي بصورة لا شك فيها . ونحن كذلك لا نجد لها أثراً فيما خلفه الكتاب والمؤرخون لذلك العهد .

لقد تحدث البعض عن بناء يستعمل كنيسة في الوقت الحاضر في قرية « بلانيز » (Planés) في سردانية الفرنسية ، بجوار جبل لويس ، وقالوا إنه مما شيدته العرب في العصر السابق لشرلمان ، حين كان المسلمون يسيطرون على هذه المنطقة من جبال البرينيز . ويضيف هؤلاء قائلين أن البناء كان يستخدم مسجداً . ولكن الحقيقة هي أن هذا المبنى الذي لا يزال سليماً لا يوجد فيه ما

يذكر بمسجد من قريب أو بعيد . فهو مثلث متساوي الاضلاع . وهو لا يمكن أن يكون ، كما قيل أيضاً ، ضريح « مونوزه » (Munuza) الزعيم العربي⁽⁸¹⁾ . الذي كان مدة من الزمن ، كما ذكرنا ، أميراً على منطقة جبال البرينيز . فإن المبنى لا يحمل طابع ضريح . ومن جهة أخرى ، من يمكن أن يكون قد أقام هذا الضريح ؟ لا يمكن أن يكون ذلك على يد المسيحيين الذين كان مونوزه قد أحرق أحد أساقفتهم حياً . وكذلك يستبعد أن يكون المسلمون الذين يعتبرونه خائناً هم الذين أقاموا له ضريحاً لتخليد ذكراه ، وهذا يبدو واضحاً إذا تذكرنا أن المسلمين هم الذين دبروا مقتله ، وهذا البناء شيد بعد احتلال العرب للمنطقة بوقت . وعدم وجود أي نوع من الزخارف المعمارية على جدرانه يجعل من الصعب تحديد تاريخه بدقة ، ولكن كل شيء يدل على أنه شيد على يد المسيحيين بعد القرن العاشر الميلادي⁽⁸²⁾ .

والآثار الوحيدة الباقية من عهد الفتح الاسلامي هي المسكوكات التي استعملت نقوداً ، وهي موجودة بكثرة في لانجدوك وفي بروفانس . ولكن هذه القطع لا تحمل ، مع الأسف ، أية نقوش ، كما أنها لا تحمل اسم الأمير أو عامل بروفانس ، وبالتالي ، فهي ليس لها أية قيمة تاريخية .

وعندما استقر المسلمون في القرن التاسع الميلادي في بروفانس وفي دوفيني وسافواي وفي سويسرا ، كانوا قد قطعوا أشواطاً في العلوم والفنون ، ويتقدمون بطريقة عجيبة . وما لا جدال فيه أن مسلمي الاندلس وصقلية ومسلمي افريقيا الشمالية كانوا أكثر تقدماً من سكان فرنسا والبلدان المجاورة ، حيث كانت هذه البلدان كلها تعاني من الفوضى ومن كل أنواع

(81) راجع : Mémoire de la Société antique, T. X, p. 213 .

(82) ذلك هو رأي المسيو بارون تايلر الذي عاين هذا المبنى ، ورأيه حجة في مثل هذه الأمور .

البؤس التي تلازمها . وهذا المقام لا يتسع لعرض صورة للمعجزات التي حققتها الحضارة الاسلامية في الاندلس . فمن ذا الذي لم يسمع بعظمة مسجد قرطبة ، ومن ذا الذي يجهل ما شيده المسلمون من الجسور وما شقوه من الأنهار والقنوات لري الأرض ، وما شيده من الآثار العظيمة في الاندلس ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثامن الميلادي ؟

وعظمة المسلمين وتفوقهم لا يتجلى في الفنون وحدها ، حيث أن عبقريتهم قد برزت في العلوم أيضاً- العلوم التي لا يمكن أن تقوم دعائم حضارة بدونها . فقد كان العرب يملكون ذخائر علوم الاولين وكنوزهم ، وكانوا ترجوا إلى العربية كتب اريسطو وأبقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطليموس وغيرهم ، وأضافوا مساهمات ثمينة إلى ما اكتشفه الاولون .

وهكذا فقد كان تفوق العرب حقيقة لا مراءٍ فيها ويعترف بها المسيحيون انفسهم . وقد حفظ لنا التاريخ قصة شانجة (Sanche) ملك ليون الذي طلب إذناً من عبد الرحمن الثالث عندما أصيب بمرض عضال في سنة 960 م . ليقصد قرطبة ملتمساً الاستشفاء على يد الأطباء المسلمين . ويضيف المؤرخون أن شانجة قد وجد عند هؤلاء العناية وفي علمهم المساعدة التي كان ينشدها . وقد ظل طوال حياته يذكر الحفاوة التي قوبل بها والاهتمام الذي احيط به .

وفي غضون تلك الفترة نفسها ، كان فسيس اسمه « جيربر » (Gerbert) قدر له أن يصبح البابا « سيلفاستر » (Sylvester) الثاني قد قصد إلى الأندلس ليطلب العلوم الطبيعية والرياضية ، وقد حصل من تلك العلوم وغيرها حظاً عظيماً ، بحيث اعتبرته عامة الناس في فرنسا ساحراً .

على أن عدداً صغيراً من الفرنسيين استطاع الإغتراف من معين الثقافة والعلوم العربية في الأندلس ، في الوقت الذي ظلت فيه الجماهير غارقة في ظلمات الجهالة في فرنسا .

وأما العرب الذين جاءت عصاباتهم ونزلت في فرنسا ثم توغلت منها حتى جبال الألب ، فهم على خلاف النمط الأول ، الذين يبنون حضارة تقوم على الفنون والعلوم ، بل كان هدفهم في معظم الحالات النهب والسلب . وأما نشر النفوذ الحضاري العربي الحقيقي في فرنسا والبلاد المجاورة لها ، فقد بدأ بعد ذلك ، أي ابتداءً من القرن الثاني عشر الميلادي ، ولا سيما في أعقاب الحروب الصليبية ، وبعد الاحتكاك الذي وقع بين الاسلام والمسيحية والشعوب الشرقية والشعوب الغربية التي من بينها الشعوب الفرنسية والانجليزية والالمانية - تلك الشعوب التي بدأت تخرج من سباتها العميق ، وشرعت في ابداء رغبتها في الاستفادة مما حققته الحضارة العربية من التقدم .

كانت العلوم اليونانية في ذلك الوقت قد انمحت من أوروبا ولكنها كانت مترجمة ومحفوظة عند العرب . وكذلك اتجه المسيحيون من فرنسا والبلدان المجاورة لها إلى اسبانيا ليتعلموا تلك العلوم بالعربية لينقلوها إلى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة العلم في أوروبا . وهذه الكتب المترجمة هي التي ستدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الخامس عشر .

والآن لنخصص فقرة أو فقتين للحديث عن الآثار التي خلفتها الموجة الثانية لاحتلال المسلمين لفرنسا . وهذه الآثار التي لا بد وأن تكون قد خلّبت العقول في ذلك العهد ، قد لا تبدو لنا كذلك اليوم ، حيث أنها تعرضت لعوداي الزمان نتيجة لتوغلها في القدم .

إنه لما يدعو إلى الأسف أن يكون الحصن الذي بناه العرب في أقصى خليج سانتروبيز قد هدم . فإن الجدران المنحوتة من الصخر الصلد والتي لا تزال منها بقية باقية تدل على مدى ما كان يتحلى به المسلمون من الصبر على العمل الشاق والطويل ، ولكننا لا نجد أية نقوش على هذه الجدران أو أي أثر للكتابة . وعادة النقش والكتابة على المباني سار عليها الاغريق والرومان

والتزمها العرب في الأندلس وفي غيرها من البلدان التي كانت تحت سلطانهم .

لقد ذكرت حصون كثيرة على قلال الجبال كانت من بناء العرب ، وذلك بالإضافة إلى أبراج عديدة اقيمت في فرنسا وإيطاليا ، ولا سيما على الشواطئ ، وهي تتوج الجبال والهضاب العليا . وقيل إن المحتلين العرب كانوا يتبادلون الأخبار الهامة وينسقون خططهم بواسطة إشارات بالنار أو غيرها من هذه الأبراج⁽⁸³⁾ .

والواقع أن الكتاب العرب يتحدثون عن الرباطات التي أقامها عقبة بن الحجاج السلولي في لانجدوك في حوالي سنة 734 م⁽⁸⁴⁾ ؛ وكذلك نرى أن الآراء التي أدلي بها في شأن هذه الأبراج كانت لا تقوم على أساس .

سوف لا نتوقف لدرس مختلف الأشياء المحفوظة بعناية في فرنسا والتي يرجع تاريخها إلى العهد العربي . وهذه الآثار تتكون ، خصوصاً ، من أقمشة الحرير ، وصناديق العاج أو الفضة ، وكؤوس البلور ، واسلحة الخ ؛ وجزء كبير من هذه التحف لا يزال محفوظاً في الكنائس ولدى الهواة لجمع التحف الأثرية . والسعر الذي يقدر قيمة لها يعطي فكرة عما يوليه المتخصصون من الأهمية لبراعة الفنان العربي ، وذلك على الرغم من أن الأدلة المتوفرة حالياً لا تشير إلى أن الفنانين الفرنسيين سعوا إلى تقليدها⁽⁸⁵⁾ . وعلى أي حال ، فإن

(83) راجع : Alphonse Denys, Promenade Pittoresque dans le departement du Awar.

(84) يذكر ايزودور ، اسقف بجة أن السمع بن مالك ، سلف عقبة في إمارة الأندلس قد تولى بناء بعض هذه الأبراج . ولكننا لا نعلم لماذا ينسبون بناء هذه الأبراج كلها إلى العرب . حيث أن من الجائز أن يكون أهل البلد انفسهم قد قاموا ببناء بعضها كاجراء احتياطي لمراقبة تحركات الأعداء .

(85) كان أجدادنا في ذلك العصر يستعملون نوعاً من القماش يسمى « سارازين » باسم البلد الذي يرد منه . انظر :

Ducange, Glossaire de la basse latinite Saracenicum et Saracenum. كلمة

معظم هذه التحف ترجع إلى فترة ما بعد القرن الثامن الميلادي⁽⁸⁶⁾.

والاستقرار الثاني للمسلمين في فرنسا لا بد وأن يكون قد أثر على الزراعة ، وذلك على الرغم من أننا لا نجد في بروفانس أو في دوفيني أي أثر لمثل قنوات الري العظيمة والتي لا تزال مصدر ثروة طائلة لمرسيلية ولبنسية وغرناطة . ولكن مما لا شك فيه أن العرب قاموا بمثل هذه الأعمال التي ربما عفا عليها الزمن في وطنهم الجديد ليستفيد منها كما استفاد منها وطنهم القديم (الأندلس) .

وقد قيل إن القمح الأسود الذي يسمى « قمح السارازين » والذي يمثل في القرن التاسع أهم المنتجات الزراعية في فرنسا ، هو من أصل فارسي ، وقد انتقل من هناك إلى مصر ، وسار مع الفاتحين على طول شواطئ إفريقيا الشمالية ، قبل أن يعبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس ويصل من هناك إلى فرنسا . والكل يعرف أن هذه النبتة الثمينة تستعمل للعلف وللسماد معا ، وأن حبوبها تطحن وينتج عنها دقيق تصنع منها العصيدة .

ويُعزى إلى العرب الذين استقروا في بروفانس استغلال شجر البلوط في الغابة الكثيفة التي احتفظت بعدهم باسم « غابة المغاربة » (La forêt des Maures) . وشجر البلوط كان يربى في كتالونية منذ وقت طويل ، ويمثل الوقت الحاضر الثروة الأساسية للبلد⁽⁸⁷⁾ وكذلك كان العرب يستخرجون القطران من اشجار الصنوبر والأرز ، ويحول إلى زفت ويحفظون به المراكب .

(86) كان يعتبر من بين هذه التحف أيضاً الطبول التي حافظ عليها سكان أربونة وكانوا يضربون عليها يوم عيد القربان . وقد ذكر المؤرخون أنها ترجع إلى عهد تملك المسلمين لهذه المدينة . ولكن الكتابة على هذه الطبول تقول إنها صنعت في مصر في عهد المماليك : وبالتالي ، فهي ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي .

(87) ومركز هذه الصناعة هي قرية « جارد فريني » (Garde-Freinet) انظر المصدر المذكور ، احصائيات « بوش دورون » 18/4 .

ولهذا السبب ، فإن سكان بروفانس لا يسمون الزفت « جودرون » (Goudron) بل يسمونه « قطران » (quitra)، وهي كلمة عربية⁽⁸⁹⁾ .

والمعتقد أنه كان للعرب أسطول كان يرسو في أقصى خليج سانتروبيز ويضمن مواصلاتهم البحرية .

وكذلك يعزي إلى العرب تحسين سلالة الخيول في جنوب فرنسا ، ولا سيما في مقاطعة « كمارج » (Camargue) وذلك بتهجين الخيول المحلية بخيول الأندلس . وكان الأسطول العربي ينقل الخيول من الأندلس ، تلك الخيول التي يستخدمها العرب في الغارة على المناطق الداخلية من البلد . وقد ذكر البابا ليون الثالث في رسالة له إلى شرلمان أن العرب قاموا بغارة على شواطئ نابلي وكانوا يركبون خيولا مغربية (Maurisque)⁽⁹⁰⁾ .

وتضيف رسالة البابا أن العرب قد اضطروا إلى الأبحار بصفة مستعجلة ولم يتسكنوا من حمل تلك الخيول التي قتلها الأهالي⁽⁹¹⁾ والواقع أن من بين القواعد الأساسية في القانون العسكري عند المسلمين ، ما يلي :

« إذا انسحبتم من بلد العدو ، يجب ألا تتركوا وراءكم خيولاً ولا

(89) ضبطها الزبيدي في تاج العروس (498/3) بالفتح وبالكسر (كطربان) وقال إنه عصارة الأهل والأرز ، وهو ثمر الصنوبر . وقد فسر قوله تعالى : ﴿ سربيلهم من قطران ﴾ بأنه مبالغة في اشتعال النار في الجلود . انظر كذلك ، قاموس دوزي ، المصدر المذكور ، 374/2 .

(90) نص التعبير في الرسالة : Caballi maurisci .

(91) راجع : la Critique des annales de Baronius, Par le P. Pagi, l'an 813, No. 20 et suiv.

حيوانات ولا علفا ولا موءناً أو كل ما قد يستفيد منه العدو في الدفاع»⁽⁹²⁾ .

ونحن نعتقد أن تحسين سلالة الخيول في بروفانس انما وقع في فترة لاحقة ، أي في الوقت الذي كان فيه هذا البلد مع كتالونية تحت حكم أمير واحد ، وحين كان من السهل استفادة احدى الولايتين من المزايا التي تتمتع بها الأخرى . ودليلنا على ذلك هو أن سكان بروفانس يسمون جنس الخيول الحالية « إيجوس » (Egos) وهي نفس الكلمة « يجوا » (Yegwa) التي تسمى بها انثى الخيل في اللغة الاسبانية .

ومن جهة اخرى ، فقد ورد ذكر فحلين من الثيران من كتالونية . في وثيقة من القرن الحادي عشر الميلادي - وهي الفترة التي تعيننا - فقليل انهما موجودان في مزرعة في كامرج (Camergue)⁽⁹³⁾ .

وكذلك يمكننا أن نرجع تحسين سلالة الخيل في مقاطعة « لاند » (Landes) إلى العهد الذي كان فيه المحاربون من مدينة قرقشونة إلى البلاد الواقعة إلى الجانب الآخر من جبال البرينيز لمساعدة إخوانهم المسيحيين ضد العرب حين كان في إمكانهم الحصول على كثير من الأشياء التي يعودن بها لاثراء وطنهم .

ومما يعتقد أنه من بقايا عادات العرب في بروفانس وفي جنوب فرنسا ، نوع من الرقص . إنها رقصات تمارس في المساء وفي الليل ، وهي تختلف بين مكان ومكان ، ولكنها تتفق من حيث أنه يشترك فيها راقص بين راقصتين تقدم إحدهما للأخرى برتقالة بالتناوب . وأحيانا يقف الرجال والنساء في

(92) راجع المصدر المذكور : Mouradgea d'Ohsson, Tableau de l'empire Ottoman, T. V, p. 60.

(93) انظر المصدر المذكور : Statistique du departement des Bouches du Rhône, T. IV, p. 24.

صفين احدهما أمام الآخر ويرقصون باشتباك الصفين احدهما بالآخر ، والشخص الذي يقود الصف يعطي إشارة بالتوالي مع قائد الصف الآخر ، ويقلدها الراقصون في صفه . وكذلك توجد رقصة عربية يرقصها رجلان يتقلد كل منهما سيفاً يلوح به وكأنه يحاول أن يصيب الآخر . و أحيانا يتظاهر احدهما بمحاولة خطف راعية بينما يتظاهر المحارب الآخر بالدفاع عنها⁽⁹⁴⁾ .

وهذه الرقصات فقدت طابعها الأصلي في الوقت الحاضر ، ومن هنا ، فقد يبدو أنها ليست عربية أصلاً . والواقع أن شعور الغيرة في البلدان الشرقية ، كما هي الحالة في جنوب فرنسا من القوة بحيث لا يسمح معها باختلاط النساء والفتيات بالرجال بهذه الصورة . فالنساء يرقصن بطبيعة الحال في المناسبات ولكنهن يرقصن وحدهن في هذه المناطق . وأما الراقصة المحترفة ، فهي امرأة نبذها المجتمع . وأما الرقصة الحربية فهي رقصة كان القدماء مولعون بها وكانوا يمارسونها كثيراً⁽⁹⁵⁾ .

وهنا يطرح نفسه سؤال حول ما إذا كان الغزو الاسلامي قد خلف جماعات من الناس في فرنسا . إنه لمن المرجح أن تكون جماعات من المسلمين قد انفصلت عن الجيوش الرئيسية في غضون هذه الغزوات وتركت حياة الحرب واستقرت هنا وهناك . ولكن التاريخ لم يسجل شيئاً في هذا الموضوع . ومع ذلك ، فسنحاول اختراق حجب هذا الصمت والالتجاء إلى الاستنتاج .

(94) انظر المصدر المذكور : Statistiques du departement des Bouche du Rhône, T. :

Voyage dans les (المصدر المذكور) Millin, II, p. 208 et suiv. وكذلك :

departement du Midi de la France, T. III, p. 360 et T. IV, p. 197.

(95) -انظر : Burckhardt, Voyage en Arabie, trad. franc., T. III, p. 60 et 182.

وهذا السائح يقدم إلينا تفاصيل في غاية الطرافة عن الرقصات الشائعة في مجتمعات البدو .

لم يكن العرب الشعب الوحيد الذي غزا بلادنا . فبالإضافة إلى حشود البرابرة الأوائل ، نجد أن النورماندين والهنغارين أبدوا جرأة خاصة في غزواتهم لفرنسا . وإلى جانب هؤلاء يمكننا أن نذكر أيضاً شعب الساكسون الذي يقول التاريخ إن شلمان قد هباً لكثير من عائلاتهم ظروف الاستقرار في مختلف المقاطعات الفرنسية . وهذه الأجناس والسلالات لا يمكن تمييزها عن السكان من الأهالي إلا في حالة ما إذا احتفظ نسلهم بلغتهم وتقاليدهم وعاداتهم . ولكن هذا غير ممكن في فرنسا التي اتخذت مختلف ولاياتها عبر العصور شكلاً متجانساً . أضف إلى هذه الاعتبارات كلها أن الغزاة المسلمين كانوا ينتمون إلى مختلف الجنسيات واللغات .

ونحن لا نعتقد أنه توجد في فرنسا في وقتنا هذا (في القرن التاسع عشر) طوائف من السكان يمكن الصعود بأصلها إلى العرب . نعم ، فقد ذكر قوم يسكنون على ضفاف نهر « الصاون » (Le Saône) ، بين بلدة « ماكون » (Mâcon) ومدينة ليون ، وخصوصاً ، على الضفة الشمالية ، وقيل إنهم ينحدرون من سلالة شرذمة من العسكر العربي انقطعت الصلة بينها وبين مجموع الجيش الاسلامي في عهد شارل مارتل . وقيل إن لهم عادات خاصة ويستعملون الفاظاً قد يكون أصلها من اللغة العربية⁽⁹⁶⁾ ولكن الألفاظ التي قيل إنها عربية هي ، في الحقيقة ، من أصل لاتيني ، أو من اللغة الفرنسية القديمة ، أو هي من أصل غير معروف بتاتا . وأما العادات والتقاليد التي قيل إنها خاصة بها ، فهي لا تختلف عن كثير من عادات وتقاليد الغجر وغيرهم من العناصر الأجنبية⁽⁹⁷⁾ .

(96) انظر تحليل Riboud في : Mémoires de la Société des antiquaires, T. V, p. 1 et suiv.

(97) انظر عن الغجر ، أو البوهيميين T. Walcknaer, Nouvelles Annales de voyage , IX, p. 64 et suiv.

وزيادة على ذلك ، فإن التاريخ يذكر أن الهنغاريين والنورماندين الذين كانوا يعيشون فساداً في فرنسا في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي - وهو أيضاً عهد الغزوات العربية - ويتروكون وراءهم الخراب والدمار في كل مكان ما عدا ضواحي ماكون التي نجت من ويلاتهم والتي التجأ إليها الأساقفة والقساوسة الذين يهربون من مختلف المقاطعات الفرنسية حاملين معهم التحف المقدسة وكنوز الكنيسة⁽⁹⁸⁾ . فلو كانت جماعات السكان التي استقرت في المنطقة من العرب ، فهل يعقل أن يلجأ إليها رجال الكنيسة ويستجبروا بها كمن يستجير من الرمضاء بالنار ؟

ونحن نرفض كذلك رأي أولئك الذين يربطون بالأصل العربي القوم الذين استقروا في مقاطعة « بيغور » (Bigore) المتصلة بـجبال البرينيز ، والذين يسمّون « كاجوت » (Cagots) . فإن هؤلاء القوم الذين تواصل نسلهم حتى وقت متأخر ، قبل أن يقعوا فريسة لأمراض معدية ، كانوا يشكلون جماعة متميزة عن سكان المنطقة . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنهم ينحدرون من أصل عربي ، كما ذهب آخرون من المعاصرين إلى أنهم ينحدرون من المسيحيين البدائيين الذين لم يخرجوا قط من جبالهم ، وقد رفضوا التطورات التي طرأت على العادات والتقاليد في الأزمنة التالية فبقوا جامدين في عزلتهم⁽⁹⁹⁾ .

والرأي الأول لا يمكن الدفاع عنه لأنه لا يقوم على أساس . ثم إن

(98) راجع المصدر المذكور : Recueil des historiens de France, Par Dom Bouquet, T. IX, p. 7, 565 et 669.

(99) انظر رسالة لولكنير (Walcknaer) نشرت في : Nouvelles Annales de voyage, T. LVIII, p. 326 et suiv.

هؤلاء القوم يمكن ربط أصلهم ببروطانيا (Bretagne) أو « أوفيرن » (Auvergne)⁽¹⁰⁰⁾.

ونحن هنا لا نتحدث عن عرب الأندلس الذين هاجروا إلى فرنسا وخصوصاً إلى الولايات الجنوبية في عهد هنري الرابع ، وكان عددهم نحو مائة وخمسين ألف نسمة ، فراراً من اضطهاد الملك فيليب الثالث ، ملك اسبانيا الذي رفض وجود اشخاص في مملكته يدينون بغير المسيحية وحملهم على التنصر بالنار والحديد ، وعلى الرغم من أن المسلمين كانوا يشكلون القوة الحية ويمثلون عصب الحياة الاقتصادية في البلد ، فقد بدا له أنهم قد يشكلون خطراً عليه بعلاقاتهم مع الامبراطورية العثمانية التي كانت دولة عظمى في ذلك الحين . وهكذا اضطر أولئك المهاجرون الذين أرادوا المحافظة على دينهم إلى التخلي عن وطنهم فاجتازوا جبال البرينيز إلى فرنسا . ولكن الحكومة الفرنسية لم تسمح لهم الا بالمرور في أراضيها ، ولهذا ، فقد التحقوا كلهم ، تقريباً ، ببلدان الشمال الافريقي التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية⁽¹⁰¹⁾ . وأما الذين بقوا منهم في فرنسا ، فقد تنصروا واندجوا في مجموع السكان الفرنسيين⁽¹⁰²⁾ .

(100) قارن Michelet, Histoire de France, T. I, p. 495 et Mémoires de la Société des Antiquaires, T. X, p. 217.

وما قلناه عن الجماعة العربية المزعومة على ضفاف نهر الصاون وقوم الكاجوط ، يصدق أيضاً على قوم ينزلون ضفاف نهر اللوار ، في شبه جزيرة تسمى « فيرون » (Veron) تقع بين اللواروفين . انظر :

Fodéré (Imn.), Voyage aux Alpes maritimes, T. I, p. 45 et suiv.

(101) قارن : Chemier, Recherches historique sur le Maures, T. II, p. 385, et :

Capefigue, Mazarin, la Fronde et le ègne de louis XIV, T. I, p. 88 et suiv.

(102) انظر تفاصيل الاتصالات التي جرت بين السلطان احمد خان الأول والملك هنري الرابع بشأن هؤلاء المهاجرين البؤساء في غزوات العرب ، ص 300 - 302 ، هامش 1 .

وفيمما يتعلق بتأثير الأدب العربي في شعوب جنوب أوروبا فيمكن تلخيصه فيما يلي : لقد عزي إلى البدو الرحل في الجزيرة العربية اختراع الوزن والقافية في الشعر . وقد شمل هذا الشعر خصوصاً ، الغزل والأناشيد الحربية . ومن المعلوم أن لغة « أوك » (Oc) قد بدأت تتكون في وقت أصبحت فيه اللاتينية لغة الكتب فقط ، بينما اهل الناس استعمال اللغة الجرمانية ، وكان ذلك في أواخر الاحتلال العربي . وكذلك كان تأثير اللغة العربية قوياً بصفة خاصة على لغة أوك التي هي اللغة المشتركة بين شعوب جنوب فرنسا وكتالونية ، وذلك لأن هذه الشعوب هي التي خضعت لسلطان المسلمين أكثر من غيرها . وزيادة على ذلك ، فإن أدب الطروبادور قد سبق ظهوره الآداب الأوروبية الحديثة⁽¹⁰³⁾ . ولكن هذا التأثير لم يصبح قوياً حقاً إلا بعد جلاء المسلمين كلية عن فرنسا .

وفيمما يتعلق بالألفاظ ذات الأصل العربي المحقق في اللغة الفرنسية (مثل السلام عليك الذي يجاب عنه بعبارة : وعليك السلام) فإن المرجح أن تكون قد دخلت إليها ، بعد رحيل المسلمين على فرنسا وفي عهد الحروب الصليبية . ونحن يجب أن لا ننسى أن العلاقات بين العرب وفرنسا لم تتوقف بانتهاء الغزو العربي ، بل على العكس ، فإن هذه العلاقات زادت متانة بعد ذلك ، خصوصاً ، لأنها كانت تقوم على المبادلات التجارية وعلى شعور الصداقة المتبادل .

لقد كان الفتح الاسلامي لحظة عابرة في تاريخ فرنسا ، ولو أنها لحظة لا يستهان بها . وأبرز ما اسفر عنه ظهور عدد كبير من الاقطاعات وثروات بعض الأسر مما لا تزال آثاره باقية إلى اليوم . فقد بسط العرب سلطانهم على الأودية والمناطق الخصبة الغنية في البلد ، فكان من الطبيعي أن توزع هذه

(103) أنظر : Sismodi, Histoire de la litterature des peuples du midi de l'Eroupe.

الأراضي على الأشخاص ، مكافأةً على جهودهم ، لقيامهم بدورٍ كبيرٍ في الحروب التي انتهت بخروج المسلمين من فرنسا . وهذا ما حدث ، خصوصاً ، في مقاطعة جرونوبل وجاب وفي بروفانس السفلى⁽¹⁰⁴⁾ ، وهو إجراء سبق إن جرى العمل به في المقاطعات الشمالية الاسبانية .

وهذه الطريقة في جمع الثروة كانت تبدو شيئاً طبيعياً لبعض الأمراء والأعيان الذين كانوا يتخذون من مقاومة المسلمين مصدراً للثروة ، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر فرصة حملة على العرب للقيام بمغامرات ومضاربات مربحة .

ففي سنة 1034 م ؛ تعهد الكونت اوجل ، إيرمانجو الثاني ، بتخصيص عشر ريع الأراضي التي أخذها من المسلمين لدير يقع في إمارته⁽¹⁰⁵⁾ .

وفي سنة 1074 م ؛ كتب البابا جريجوار السابع إلى نبلاء اسبانيا رسالة يعلن لهم فيها أنه يولي « إبل » (Eble) الثاني ، كونت « روسي » (Roucy) ويقطعه مسبقاً جميع الأراضي التي يقدر على أخذها من المسلمين ، وذلك بشرط أن يصرح بأنه تلقى تلك الأراضي من البابا ويدفع عليها ضريبة سنوية⁽¹⁰⁶⁾ .

وعلى الجملة ، يبدو أن تأثير المسلمين ونفوذهم في فرنسا كان أقل مما

(104) يجدر بنا في هذا السياق التنبيه إلى غلط البعض ممن أرادوا تملق بعض الأسر الكبيرة فاعادوا أصل ثرواتهم إلى شلمان .

(105) انظر : Grand Recueil de Chartes de Saint- Michel de Cux, folio 111 V.o. مخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس .

(106) انظر : المصدر المذكور ، T. III, 2e partie, p. 273.

يتوهمه البعض ، وأن ما أحدثوه فيها من الخراب والتدمير يتضاءل أمام ما قام به النورمانديون والهنغاريون . وإنه لمن الممكن القول بأن الذي بقي في نفوس الناس ليس هو أثر ذلك التخريب الذي أحدثوه . فقد ظل الناس في فرنسا والبلدان المجاورة لها أجيالا طويلة وهم لا يفكرون إلا في عظمة الفكر الاسلامي وفي قوة المسلمين واتساع آفاق فتوحاتهم . وقد بلغ من تقدير الناس للمسلمين أنهم كانوا يجعلونهم في مستوى عظمة الرومان إلى درجة تختلط معها الامتان في اذهان البعض⁽¹⁰⁷⁾ .

وكذلك كان الرأي العام يعزو إلى العرب كل ما هو عظيم وضخم من المنجزات العمرانية . فنحن نعرف جيداً أن مدينة « أورانج » (Orange) التي لا تزال خرائب الأبنية الرومانية الضخمة قائمة فيها هي من بناء الرومان ، ولكن قصيدة مخطوطة تشيد بهذه الآثار وتعزوها إلى العرب . والأمر كذلك بالنسبة إلى أسوار مدينة فيين في مقاطعة دوفيني .

وحتى يومنا هذا (منتصف القرن التاسع عشر) كلما عثر على قطعة من « القرمود » الذي كان الرومان يستعملونه لتغطية المنازل ، قيل إنه اكتشف قرمود عربي ، وذلك حتى في المقاطعات التي لم يدخلها العرب قط .

إن ذكريات الغزو النورماندي وغزو الهنغاريين لفرنسا لم يعد لها ذكر إلا بين دفات الكتب ، ولكن ذكرى فتوحات المسلمين لا تزال حية في اذهان الناس ، فما هو سبب ذلك ، يا ترى ؟

لقد جاء المسلمون إلى فرنسا قبل النورمانديين والهنغاريين وقد استمر

(107) انظر رواية : Garin, le loherain, Public par Paulin, Paris, T. I, p. 88 et II, p. 57 et 199.

وجودهم فيها بعد غارات هؤلاء واولئك . والفتوحات الاسلامية كانت تكتسي طابعاً من الجلال والعظمة بحيث لا يمكن أن يقرأ إنسان اخبارها أو يسمع رواياتها دون أن تهتز نفسه لها . وعلى عكس النورمانديين والهنغاريين ، كان المسلمون أجيالا طويلة في طبيعة قافلة الحضارة في العالم . وزيادة على ذلك ، فبعد ما جلوا عن بلدنا استمرت اساطيلهم تغزو شواطئنا وتبعث الرعب في نفوس الناس قرونا متوالية . أضف إلى كل ذلك ، تلك الحروب الطويلة التي خاض المسلمون غمارها في الأندلس والحروب الصليبية في افريقيا وآسيا ، وهي حروب أبدوا فيها بسالة واستماتة تزيد من عظمة ذكراهم في نفوس الناس . ولكن هذه الاعترافات كلها غير كافية لتفسير المكانة العظيمة التي يحتلها المسلمون في نفوس الناس في أوروبا قاطبة ، إذا لم نصف السبب الأكبر ، وهو تأثير روايات الفروسية التي استقت عناصرها الأولى في الأندلس ، والتي لا يزال أثرها على النفوس ، ولو بصفة أخف ، حتى اليوم (منتصف القرن التاسع عشر) .

والآن وقد تناسى الناس روايات الفروسية ، نجد صعوبة في تصور الأثر الذي كانت تحدثه في النفوس . وأما في العصور الوسطى فإن هذه الروايات تمثل الكتب الوحيدة التي يقرأها النبلاء ، بل وعامة الناس أيضاً . ففي هذه الروايات يبحث المحاربون والرجال الذين يحملون بين جوانحهم شعورا ساميا عن المثل الأعلى للشجاعة والنبل والكرم . وفيها أيضاً كان الناس ، ذكوراً وإنائاً يتعلمون دروساً في اللطف والأدب واللياقة ، وهي خلال كانت في ذلك العهد تحتل مكانا بارزا بين قواعد السلوك الاجتماعي . وقد كان الناس منهمكين في هذه الروايات التي يجدون فيها امثلة للسلوك الحميد إلى درجة أنهم كانوا لا يلتفتون إلى الآثار القديمة ، بل ويحتقرون التاريخ الوطني الذي يمكنه أن يضعهم في طريق البحث عن الحقيقة .

وروايات الفروسية التي لم يصل إلينا الا القليل منها كانت من انتاج

القرون الحادي عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر ، ومعظمها صيغت في قالب شعري . وهي لم تكن تقرأ فحسب ، بل أيضاً تسمع . فإن المغني المتجول والحاوي اللذين يتنقلان من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية يقرؤنها على الجموع الغفيرة ويمثلون باصواتهم مختلف شخصها . بل إنه لا يكاد يقام احتفال في قصر نبيل أو تجري احتفالات شعبية بمناسبة الأعياد دون أن تتحف بقطع من هذا الأدب الذي يثير الحماس والاعجاب بين الجميع . وهذه القصص والروايات هي التي تناولتها أقلام الشعراء في إيطاليا ، في مرحلة تالية ، فاتخذت شكلاً جديداً وأصبحت على كل لسان .

من المعلوم أن الحروب التي خاض غمارها شارل مارتل وبيبين وشرلمان ، والتي تدور حولها روايات الفروسية ، كانت تجري بينهم وبين « فريزون » (Frison) و« البافاريين » (Bavarois) والساكسون وغير هؤلاء من الشعوب الجرمانية والسلافية التي كانت تهدد باستمرار حدود الامبراطورية . ولكنه في الوقت الذي كتبت فيه روايات الفروسية ، كانت الامبراطورية الفرنسية قد اختفت من الوجود ، وكانت حدود فرنسا قد تقلصت لتتخذ الشكل الذي هي عليه الآن (منتصف القرن التاسع عشر) . وأما الرجال الذين يريدون اظهار شجاعتهم وبطولتهم ، فقد كانوا يحاربون المسلمين في اصقاع اخرى : على ضفاف نهر أبرة ونهر تاج والوادي الكبير ، أو على ضفاف نهر الأردن ونهر العام ونهر النيل .

ولما كان كتاب القصص وروايات الفروسية ، يكتبون ، خصوصاً ، للمحاربين وللأشخاص الذين يحلو لهم أن يتصوروا أنفسهم في مباريات الفروسية ، وفي التدريبات العسكرية ، فقد اخذوا مادة قصصهم وافكار اشخاصهم وأنماط سلوكهم من عصر حروب أولئك الملوك . وكذلك كانت اسماء « رولان » وغيره من ابطال تلك الحروب الذين يلهبون خيال الجماهير محاور لرواية الحوادث التي يتخللها قرع السيوف ورشق النبال وتنتهي بتجميد

البطل المنتصر في حرب من حروب تلك العصور . وهكذا نجد أن الشاعر والقصاص كثيراً ما يدخل تحت تسمية « العرب » الساكسون وغيرهم من الشعوب الشمالية الذين كانوا في نضال مستمر مع ملوك فرنسا⁽¹⁰⁸⁾ .

وكذلك انتهى الجميع بالافتناع بأن جميع أعمال الشجاعة والجرأة التي أبداها الفرنسيون في عصور البطولة إنما كانت في حروب مع المسلمين . وهكذا أفلم يبق أمام الشاعر والقصاص إلا أن يختار الظروف الملائمة ويضاعف عدد المعارك التي يبرز فيها المحارب بطولته . وعلى هذا الأساس ، كان في كل مدينة في جنوب فرنسا وإيطاليا ، تقريباً ، أمير عربي يقارع سيفه الأبطال ، على الأقل ، لكي يجردوه من أراضيهم بعدما هزمونه⁽¹⁰⁹⁾ . بل إن كتاب القصص يجعلون العرب يتدخلون حتى في المبارزات التي تقع بين المسيحيين . وبعبارة أخرى ، فإن الفارس العربي يوجد في كل مكان في الأرض يمكن للمسيحي فيه أن يبارزه ويكسب أكاليل الغار .

وزيادة على ذلك ، فلنكتفي يعطي القصاص أهمية لانصرار البطل المسيحي - الذي ينتصر دائماً ، بطبيعة الحال - فهو يضطر إلى خلع صفات فائقة من النبل والشجاعة على خصمه العربي الذي سينتصر عليه⁽¹¹⁰⁾ .

وأخيراً ، فإن كتاب القصص لا يعترفون لأحد بالتفوق في النبل

(108) اقتبسنا بعض هذه الأفكار من مقالات نشرها المسيو rauriel في مجلة «Revue des Deux-Mondes» (سنة 1832) عن ملاحم بروفانس .

(109) راجع رواية فيلومين التي سبق ذكرها .

(110) جاء في رواية «Partenopeus de Blois» أن بطل القصة المسيحي دخل في مبارزة مع فارس عربي فانتصر عليه العربي بخدعة . فما كان من رئيس الفرقة العربية التي ينتمي إليها إلا أن سلم نفسه لملك فرنسا لكي يصنع الملك به ما يشاء على سبيل الانتقام للفارس المسيحي .

والشجاعة على المسلمين الا رونو ورولان اللذان وهب كل منهما شجاعة فوق جميع البشر .

يروى المؤرخون الاسبان أن ملك استوريا ، الفونس الكبير ، لم يجد بين علماء مملكته من المسيحيين ، عالماً جديراً بأن يعهد إليه بتربية ابنه وولي عهده ، فاستقدم عالمن من قرطبة وكلفهما بهذه المهمة .

وهذه الفكرة نجدها بنفسها في إحدى روايات الفروسية التي جاء فيها أن شرلمان سافر وهو طفل صغير إلى بلد عربي ، مما جعل اجدادنا يعتقدون أن هذا الأمير قد تعلم العلوم الاسلامية التي كانت مزدهرة في ذلك العهد ، وأن هذه العلوم هي التي مكنته من تجديد العالم الغربي⁽¹¹¹⁾ .

لم يمض سوى بضعة قرون منذ أن أخذ الناس يعكفون على درس الوثائق الأصلية من تاريخ فرنسا ، وأما دراسة قصص الفروسية دراسة نقدية جدية ، فلم يكد يمضي عليها قرن ونصف . ونحن الآن نقف موقف الدهشة من مايبون حين نراه يتردد في تزييف بعض حوادث قصيدة « جيوم ذو الأنف القصير » ويعتبر من الحقائق التاريخية احتلال المسلمين لكل جنوب فرنسا في عهد شرلمان⁽¹¹²⁾ .

والآن ، لو قدر لموسى (بن نصير) ولطارق (بن زياد) ولعبد الرحمن الثالث أن يعودوا إلى الحياة لاندھشوا لتغير ميزان القوة بين المسلمين والمسيحيين . ولكنه بعد ما يزول هذا الانطباع الأول من أذهانهم ، سوف يجدون في انتظارهم مفاجأة سارة ، بدون شك ، بالمكانة الرفيعة التي يحتلها المسلمون في ادب الفروسية ، وسوف يجدون في ذلك نوعاً من المجاملة والاعتراف بفضلهم .

(111) راجع : Gerard d'Amiens, Roman des enfances de Charlemagne, manusc. de la Bile. Nationale, No. 7188, folio 30, vers .

(112) راجع المصدر المذكور : Annales Benedictini, T. II, p. 369.

كشاف عام

(أ)

آسيا ٣٢-٤٥-١٢٧-١٦١-٢٠٢-٢٦٥

ابراهيم بن الاغلب ١٢٢ -

ابراهيم الخليل ٢١٠

ابره (نهر) ٧٣-٩٨-١٠٣-١٠٨-١٢٩-١٤٥-٢٦٦

ابقراط ٢٥٢

احمد خان (السلطان) ٢٦١

ادلير بن بيرانجي ١٨٣

الادرياتيک (بحر) ٢١٤

أراجون ٧٣-٩٨-١٠٠-١١٦-١٢٠-١٢٢-١٣٢

ارل (مدينة) ٥٢-٦٤-٦٥-٧٤-١١٤-١٣٨-١٣٩-١٥٠-١٦٩-٢٣٣

أريونة ٤٢-٥٠-٥٢-٥٩-٦٠-٦٢-٧١-٧٣-٧٣-٧٤-٧٧-٩٠-٩١-١٠٠-

١٠٣-١٠٦-١١٠-١٤٥-١٩٩-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٤٠-

٢٥٠-٢٥٥ .

أروبا ٥-١٢-١٥-٣٩-١٣٨-١٦١-١٦٦-١٧٩-١١٩-٢٠٢-٢٢٣-٢٣٢-٢٣٤-

٢٦٢-٢٥٣

أريسطو ٢٥٢

اسبانيا ١٧-٢١-٢٢-٢٣-٤٩-٧٣-٨٩-٩٢-٩٣-٩٧-١٠٩-١٢٠-١٢٤-١٤٣-

١٦٠-١٧٥-١٧٧-١٩٣-١٩٤-٢١٣-٢١٤ .

اسحاق بن ابراهيم ٢١٠
اسماعيل بن ابراهيم ١٨٧ - ٢١٠
اسماعيل (ابو الفدا - الملك) ٦
استرقه ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٦ - ١٢٠
الاسكندرية ٨٣ - ١٣٠ - ٢٤٨
اسونه ١٣٤
اشبيلية ٤٣ - ٩٣ - ١٢٤ - ١٤٠ - ١٩٤
اشتورية ٤٧ - ١٤٥ - ١٦٥ - ١٨٢ - ٢٦٨
اسبونة ٥٣ - ١١٧ - ١٤٠ - ١٩٤
الاطلس (جبال) ٢١١ - ٢١٩ - ٢٢٠
افينيون (مدينة) ٧٥ - ٥٩
إقريطش (كريت) ١٣٠ - ٢٠٢
أكتانيا ٥٠ - ٥٢ - ٦٢ - ٧١ - ٧٣ - ٧٣ - ٧٥ - ٨٦ - ٩١ - ١١٧
اكراتشكوفسكي ٦
إكس لاشايل ١١٥ - ١٢١ - ١٢٩ - ١٣١ - ١٣٤
آكي (مدينة) ١٦٣
إلب (نهر) ٢١٣
ألْب بيمونت ١٥٧
الألب العليا (مقاطعة) ١٥٩
الألب السفلى (مقاطعة) ١٩١
الألب (جبال) ٩٦ - ١٠٢ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٦٠ - ١٧٦ - ١٦٨ - ١٧٤ - ١٩١ - ٢٤٨ - ٢٥٣
الالزاس ١٦٣ - ١٧١
الفونس (الأذفوش) ١١٦ - ١١٧
المانيا ١٠ - ١٩ - ١٥١ - ١٥٥ - ١٦٨ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٧ - ١٨٠ - ١٨٣ - ٢١٣
امبرون ١٦٣
امورو ١٢٣
امرؤ القيس ٦
انتيب (مدينة) ٨٥
الاندلس ٧ - ١٠ - ١٨ - ٢١ - ٢٢ - ٢٦ - ٣٧ - ٤٠ - ٤٣ - ٤٤ - ٥٠ - ٥٤ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ -
٦٢ - ٧٥ - ٨٤ - ٩١ - ٩٢ - ٩٤ - ٩٨ - ١٣٠ - ١٤٠ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٥٢ - ١٦٧ -
١٨٢ - ١٩٥ - ٢٠٤ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٦١

انبرون ١٦٠
 انجلترا ١٦٠
 اورجل (كونت) ٢٦٣
 اورليان ١٦٣
 اورانج (مدينة) ١١٤ - ٢٦٤
 اورييون (نهر) ١١٠
 اوفيرن ٢٦١
 اوئون (الملك) ١٧٧ - ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨٣
 اوريول (كونت) ١٢٢ - ١٢٣
 اوستراسي ١٢ - ٥٩ - ٧٤
 ايوده (الملك) ٤٦ - ٥٠ - ٥٩ - ٦٠ - ٦٢ - ٦٦ - ٧٥ -
 ايزودور بجة ٥٣ - ٦٢ - ٦٥ - ٦٦ - ٢٣٨ - ٢٥٤
 ايريا (شبه جزيرة) ٢١٦

(ب)

باديربون (مدينة) ١٠٣
 باريس ٥ - ٦ - ٢١ - ١٥٥
 الباشكنس (انظر نابرة)
 البرت (جبال) انظر البيرينيز
 البرتغال ١٩٥
 برشلونه ١٠٠ - ١٠١ - ١١٣ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٣٨ -
 ١٤٠ - ١٧٧
 برن ٦٦
 البروفانس ١٧ - ٣٣ - ٤٦ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٧ - ٨٠ - ٨١ - ١٢٦ - ١٣٧ - ١٤٧ - ١٥١ -
 ١٥٢ - ١٥٤ - ١٥٨ - ١٦٠ - ١٦٧ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٤ - ١٨٠ - ١٨٢ - ١٨٨ - ١٨٩ -
 ١٩٥ - ٢٠٠ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٤٨ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٦٣
 بروطانيا ١٣٥ - ٢٦١
 بطرس (القديس) ٥٦
 بطليموس ٢٥٢ - ٢٥٢
 بغداد ٩٢ - ١٠٢ - ٢٣١
 البلاذري ٧

بلنسية ١١٦ - ١٤٥ - ١٨٣ - ٢٥٥

بلرم ٢١٥

البليار (جزر) ١٣١ - ٢٠٠

بنبونة ٧٣ - ٧٥ - ١٠١

بو (نهر) ١٥٧ - ١٧٠

بواتيه ٥٢ - ٦٨ - ٧١ - ٧٢

بورديو (مدينة) ٢١٨ - ٢٢٥ - ٢٢٥

بورجونيا ١٦ - ٥٢ - ٥٧ - ٧٤ - ٧٦

بونيفاس ١٣٥ - ٢٤٠

بولونيا ٢١٢

بويسره (عمر) ٦٣١ - ١٠١

بيبين (الملك) ١٦ - ١٧ - ٤٢ - ٧٩ - ٨٦ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٤ - ٩٨ - ١٠٠ - ١٠٢ - ١٥٨ -

١٢٥ - ١٣٤ - ١٣٩ - ٢١٢

بيبين (الاصغر) ١٤٠

بيجورد مقاطعة ٢٦١

البيرنيز (جبال - البرت) ٧ - ١٧ - ٤٢ - ٤٥ - ٥٢ - ٥٣ - ٧٠ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٥ - ٩١ - ٩٣ -

١٠٠ - ١٠١ - ١١٧ - ١٥٨ - ١٦٠ - ١٦٧ - ١٧٠ - ١٧٢ - ١٧٤ - ١٨٠ - ١٨٢ - ١٨٩ -

١٩٥ - ٢٠٠ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٤٨ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٦٢ .

بيربينيان (مدينة) ١٠١ - ١٢٦

بيزير ٩١

بيمونت ٣٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٦٢ - ١٧٠ - ١٨٥ - ٢١٧ - ٢٣٧ .

(ت)

تاجه (نهر) ٤٠

تاسيت ٢١٢

تور (مدينة) ٦٧ - ٦٨ - ١٠١

تورين ١٥٦ - ١٦٣ - ٢٢١

تونس ٨٤ - ١٢١ - ١٢٦ - ١٦٦

(ث)

ثعلبة بن عبد ١٠٤

(ج)

- جاشقونه ٧٣ - ١٩٤ - ١٩٥
جاكسون ١٢٠ - ١٣٢
جالينوس ٢٥٢
جيل طارق ٤٤ - ٨٤ - ٨٩ - ١٤٥ - ٢٥٥
جرار دورونسيون ١٤٥
جرونوبل (مدينة) ١٧٠ - ١٨٣ - ٢٦٣
جربجوار (البابا) ٢٦٣
جريرون (كورة) ١٦٤
الجزائر ٢٠١
الجزيرة الخضراء ٤٠
جليقية ٧٥ - ١١٢ - ١١٧ - ١٩٦
جنيف (بحيرة) ١٦٤
جورجيا ٢١٤
جود مار ١٨
ودمار ١٨
جويتز (جبل) ١٦٩
الجورا (جبل) ١٦٤
جيرونده ٧٣ - ١٠٠ - ١٣٤
جيوم (الكونت) ١١٣ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٤٠
جيفودان ٥٤

(ج)

- الحجاز ٨٧
الحجاري ٦٠
الحسين بن عبادة ١٠٤
ام حرام ٨٢ - ٨٣
الحز بن عبد الرحمن ٤٥
الحريري ٧

الحكم بن عبد الرحمن ١٨١ - ١٩٢
الحكم بن هشام ١٩ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١
ابن حوقل ٢٠٢ - ٢٠٤

(د)

دانيه ٢٠٠
دالماتيه ٢١٢
ديلة (نهر) ٥٩ - ٢٠٩
دراك (نهر) ١٨٥
دمشق ٣٧ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٧ - ٤٨ - ٥٦ - ٦٣ - ٧٢ - ٧٥ - ٩٠ - ٩٢ - ٩٩ - ١٥٥ - ٢٣١ - ٢٤٧
الذنوب (نهر) ١١٠ - ١٦١ - ١٩٩ - ٢١٢
الدوردون (نهر) ٥٥ - ٦٦
دوفيني (ولاية) ٣٣ - ٥٧ - ٧٦ - ٧٧ - ١٥١ - ١٥٨ - ١٧١ - ١٧٤ - ١٧٦
دوم بوكي - ٢٢ - ٣١ - ٩٦ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٣١
دوم مانيون ٣١
دوم فاسيت ٣١
ديجون (مدينة) ٥٩
ديسقوريدوس ٢٥٢

رودريك (لوزريق) ٣٩ - ٤٤
رودريك خمينيز ٦٨ - ١١٢
رودمير (الملك) ١٦٥
الرون (نهر) ٥٣ - ٥٤ - ٥٨ - ٦٤ - ٧٤ - ٧٦ - ٧٧ - ٨٠ - ١٤٥ - ١٤٧ - ١٧٣
رولان (الشاعر) ٢٢٢ - ٢٦٦ - ٢٦٨
روما ١١٨ - ١٢٦ - ١٣٩ - ١٦٠ - ١٧٥ - ٢١٦
رينو (جوزيف) ٥ - ٦ - ١٢
الرين (نهر) ٢٨ - ٣١ - ٨٦ - ١٦٣ - ٢١٣

(ز)

الزركلي (خير الدين) ١٣

زكريا (البابا) ٢١٥ - ٢١٦ - ٢٤١

زمورة (مدينة) ١٦٥

زناتة (قبيلة) ١٨٢

(س)

دوساسي ٧

دوسلان ٦

سانبرنارد (مضيق جبلي) ١٨٦ - ١٦٩ - ١٨١ - ٢٥٣ - ٢٥٦

سانتروبيز (خليج) ١٥٢ - ١٩٠

سافواي ٣٢ - ٣٣ - ١٧٢ - ٢١٧ - ٢٣٧ - ٢٥١

سانت جال (مدينة) ١٧٣ - ٢٤٦

سانت جيور ٢٤٧

سبتمانية ٥٤ - ٧٣ - ٧٧ - ٩٠ - ٩١ - ١١٠ - ١٢٠

سردانيا ٦٢ - ٨٥ - ١٢٥ - ١٢٥ - ١٣١ - ١٤٦ - ٢٠٠

سرقسطة ١٠٤ - ١٠٥ - ١١٧ - ١٢٢ - ١٤٠

ابن سعيد المغربي ٢٠٢ - ٢٠٣

سليمان التاجر ٥

سليمان بن عبد الملك (الخليفة) ٤٤

سليمان بن عبد الرحمن ١١٦

سليمان الكلبي ١٠٤

السمح بن مالك ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٦١ - ٢٤٣

سوريا ٧ - ٣٧ - ٨٣ - ٨٧ - ٩٩ - ١٠٩ - ١٢٧ - ٢٠٩ - ٢١٤ - ٢٤٧

سوسة (مدينة) ١٢٦

سويسرا - ١ - ١٢ - ٢٤ - ٣٣ - ١٥٥ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٨ - ١٧١ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٩٠ -

٢١٧ - ٢٣٧ - ٢٥١

سيسترون ١٧٨

سيربيا ٢١٢

سلفاستر (البابا) ٢٥٢

السيوطي (جلال الدين) ٦

(ش)

شارل (الاصلع) ١٠٧ - ١١٦ - ١٣٧ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٣ - ١٤٧ - ١٤٨
شارل مارتل ٤٢ - ٥٩ - ٦٠ - ٦٧ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩
٨٩ - ٩١ - ٩٦ - ١٠٦ - ١٣٩ - ١٥٧ - ٢٠٠ - ٢٠٤ - ٢١٢ - ٢٣٨ - ٢٥٩ - ٢٦٦
النشام ٢١٣
شانجه (ملك ليون) ٢٥٢
شرلمان ١٦ - ٢٠ - ٢٤ - ٢٦ - ٢٩ - ٣٠ - ٦٦ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٦ - ٩٦ - ٩٨ - ١٠٢ - ١٠٣
١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٨ - ١١٠ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢١
١٢٢ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٥١ - ١٦٣ - ١٨١ - ٢٠٤ - ٢١٦
٢١٨ - ٢٣٣ - ٢٤٤ - ٢٦٣ - ٢٦٨ .

(ص)

صالوست ٢١٩
الصاون (نهر) ٢٥٩ - ٢٦١
صانش جارسيا ١٥٨
صلاح الدين هاشم ٧
صقلية (جزيرة) ٨٢ - ٨٥ - ١٢٦ - ١٣٩ - ١٤٩ - ٢٥١
صور ٨٢
صيدا (مدينة) ٨٢

(ط)

طارق بن زياد ١٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٤ - ٤٥ - ٥٨ - ٢٦٨
طرابلس (الغرب) ٨٤
طرقونه ١٠٣ - ١٢٤
طرطوشة ١١٨ - ١٢٥ - ١٧٧
طريف بن ابي زرة ٤٠
طلوزة (المدينة) ٥٠ - ١١٦ - ١١٨ - ١٣٦ - ١٥٨ - ٢١٨ - ٢٣٠
كلوزه (الكونت) ١١٤
طليطلة ٤٠ - ٤٥ - ١٠٣ - ١١٦ - ١٢٣ - ١٣٠ - ١٤٥ - ١٩٦ - ٢٠٢ - ٢٤٦
طولون (مدينة) ١٦٧ - ١٩١

(ع)

عائشة (ام المؤمنين) ٨٣
عبد العزيز بن موسى (بن نصير) ٤٣ - ٤٤
عبد الرحمن (الداخلى) ٩٢ - ٩٣ - ١٠٠ - ١٠٢ - ١٠٧ - ١٢٤ .
عبد الرحمن بن (الحكم) ١٢٨ - ١٣١ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٤
عبد الرحمن الغافقي ٥١ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٥ - ٦٧ - ٦٩ - ٧١ - ٧٢ - ٩١
عبد الرحمن بن محمد (الناصر) ١٨ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٦٦ - ١٧٤ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ -

١٨١ - ٢٦٨

عبد الرحمن (المظفر) ١٥٨
عبد الله بن عبد العزيز ٤٣ - ٤٤
عبد الله بن عمر بين الخطاب ٦١
عبد الله بن طاهر ١٣٠
عبد الملك بن عبد الواحد ١٠٩ - ١١٠
عبد الملك (المظفر) ١٩٥ - ٢٠٤
عبد الملك بن قطن ٧٢ - ٧٣ - ٧٥ - ٨٩
عثمان بن ابي نعسة ٦٢

العراق ٣٧

عقبة بن الحجاج ٧٥ - ٨٩ - ٢٥٤
عقبة بن نافع ٨٤
عمر بن الخطاب (ص) ٣٩ - ٨٣
عمر بن عبد العزيز ٤٧ - ٤٨
عمر بن حفصون ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥٨
عنيسة بن سحيم ٥٣ - ٥٤
عميرون ١٣٣ - ١٣٤

(غ)

الغال (بلاد) ٥٣
غرناطة ١٩٤ - ٢٢٦ - ٢٥٥
غليسية ٤٧ - ١٨٢

(ف)

- فارس ٩٩
فاطمة (الزهراء) ١٦٦
فالانس ٧٦
القالبي (بلاد) ١٦٩ - ١٦٣
الفرات (نهر) ٢٠٩
فرديناند كليز ١٢
فرنش كونشي ١٦٣ - ١٧١
فرنسا ١٢ - ١٥ - ١٦ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٤ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣١ - ٣٢ - ٣٧ - ٤١ - ٤٣ -
٤٦ - ٤٧ - ٤٩ - ٥٩ - ٦١ - ٦٣ - ٧٠ - ٧١ - ٧٤ - ٧٩ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ -
٩٢ - ٩٧ - ٩٨ - ١١٣ - ١٢٤ - ١٢٦ - ١٣٥ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٦ - ١٥٥ - ١٥٦ -
١٦٠ - ١٦٤ - ١٦٩ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٨١ - ١٩٢ - ١٩٩ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٤ -
٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢٩ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٤٠ - ٢٤٣ - ٢٤٦ - ٢٤٨ - ٢٥٢ -
٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٢ .
فلسطين ٢٤٧
فليب الثالث ٢٦١
فيردون ١٦١ - ٢١٤
الفيزيجوط ١٧ - ٤٠ - ٤١ - ٤٦ - ٤٧ - ٧٣ - ٧٤ - ٩٠ - ٩١ - ٢٠٤
فيلومين ٢٢٠

(ق)

- القالبي (ابو علي) ١٧٦
قارله (انظر شرلمان)
قبرص (جزيرة) ٨٣ - ٢٤٩
قحطان ٨٧
القدس ١٢٠
القسطنطينية ٤٣ - ٤٥ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٥ - ١٠٩ - ١٦٧ - ١٧٤ - ٢١٤ - ٢٤٨
قرقشونه ٤٢ - ٤٦ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٩ - ١١٠ -
قرطبة ٢٠ - ٤١ - ٦١ - ٦٥ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٣ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٧ - ١١١ - ١١٥ -
١١٨ - ١١٩ - ١٢٢ - ١٢٤ - ١٣٢ - ١٣٤ - ١٣٦ - ١٤٠ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٧ - ١٦٥ -

١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٩٣ - ١٩٧ - ٢٠٢ - ٢٠٥ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٤٠ - ٢٤٢ - ٢٥٢ - ٢٦٨ .

قرطجة ٨٤ - ١٢٢ - ١٢٤

قشالة ١٣٧ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ٢٣١

قلمرية ٢٤٤

القوقاز (بلاد) ٢١٤

ابن القوطية (ابو بكر) ٤١ - ٤٨ - ١٠٤

قيس عيلان ٨٧

القيروان ٤٣ - ٢٤٩

(ك)

كامران (جزيرة) ١٤٧

كتالونيا (قطلونيه) ١٨ - ٧٣ - ٩٨ - ١٠٠ - ١١٠ - ١١٨

كركصون (انظر قرقشونه)

كستلان (مدينة) ١٩١

كلوفيس (الملك) ١٩ - ٢٥ - ٢٦ - ٤٦ - ٢٤١

كليمنت (البابا) ١٣٦

كورسيكه (جزيرة) ٨٥ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٨ - ١٣٥ - ١٤٦ -

كونستانس (بحيرة) ٣٢ - ١٧٣

كونديه ١١ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٤٨ - ٦٢ - ١٢٣

(ل)

لانسجودوك ١٦ - ٤٣ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ - ٥٢ - ٧٦ - ٨١ - ٩١ - ١١٢ - ١١٦ - ١٣٩ -

١٤٠ - ١٥٧ - ١٦١ - ١٩٥ - ٢٠١ - ٢٠٣ - ٢١٨ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٣ - ٢٥١ .

لند (مقاطعة) ٢٥٧

لاميسك ٥٠

لبنان ٢٤٧

اللووار (نهر) ١٧ - ٥٢ - ٧٠ - ١٠٢ - ١٣٥ - ٢٦١

اللورين (بلاد) ١٢٩ - ١٦٣ - ٢١٤

اللومباردية ٣٢ - ١٥٥ - ١٦٧ - ١٨٣

ليون (مدينة) ٥٧ - ٧٤ - ٧٦ - ١٩٤ - ١٩٥ - ٢٥٢ - ٢٥٩

لوبيتراند ٧٦ - ٧٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٨ - ١٨٠

ليجوريا ١٦٢

لويس بن بوزون ١٥٥

لويس بن شلمان ١١٥ - ١١٦ - ١١٨ - ١٢٠

لويس لودويونير ١٦ - ١٢١ - ١٢٩ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٨ - ١٤١ .

ليدن (مدينة) ٧

(م)

مايون ٢٦٨

ماجلون ٤٦ - ٩١ - ٢٠٠

ماردة ١٣٢ - ١٣٤

ماكون ٢٥٩ - ٢٦٠

مالقة ٤١ - ٩٢

المأمون ١٢١ - ١٣٠ - ١٣٧

ماينص (مدينة) ٢٤٠

مبانيا ١٦٣

متر (مدينة) ١٠٢

محمد بن عبد الرحمن ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٧

محمود الغزنوي ٢٢٢

مدريد ٢٢ - ٤١

مدينة سالم ١٩٥

المرية ١٢٤

مرسيليا ٧٤ - ٨٠ - ٩٩ - ١٠٢ - ١٣٧ - ١٤٠ - ١٥٩ - ٢١٧ - ٢٢٩

المسعودي ١٩

مصر ٣٧ - ٤٤ - ٤٥ - ٥٠ - ٨٧ - ٩٩ - ١٢٧ - ٢١١ - ٢٤٧ - ٢٥٥

مضر (قبيلة) ٨٧

معاوية (الخليفة) ٨٢

المعتمد بن عباد ٢٧

المقري ٤٠ - ٤٤ - ٥٧ - ٦٠ - ١٠٤ - ١٥٧

منذر بن سعيد البلوطي ١٧٦

المنصور بن ابي عامر ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤

المنصور (ابو جعفر) ١٠٢ - ١٢١

موسى بن موسى ١٤١ - ١٤٥

موسى بن نصير ١٨ - ٣٨ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٩ - ٥٨ - ٦٤ - ٨٥ - ٢٠٣ -

٢٦٨ .

مورونت ٧٣ - ٧٤ - ٧٧ - ٨٠ - ٢١٦

مونوزه ٦٢ - ٦٣

مونقنرات ١٥٧ - ١٦٢ - ١٦٣

ميورقة (جزيرة) ١٣٧ - ٢٠٠

(ن)

نابلي (مدينة) ٢٥٦

نابرة (Navarre) ٤٧ - ٦٥ - ٧٣ - ٩١ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٣٢ - ١٥٨ - ١٩٤ -

١٩٧

الناصره ٩٩

نربون (انظر أربونة)

نورمانديا ١٦٠

نومستري ١٦

النويري ٢٤٩

نيس (مدينة) ٩٦ - ١٢٦ - ١٦٩ - ١٨٩ - ١٩١

نيم (مدينة) ٤٥ - ٤٦ - ٥٢ - ٥٣ - ٩١ - ١١٤ -

نيوشاطيل (مدينة) ١٦٤

(هـ)

هارون الرشيد ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٣٦ - ١٣٧ - ٢٣٧

هشام بن عبد الرحمن ١٠٧ - ١٠٨ - ١١١ - ١١٥

هنيبال ١٢١

هوداس ٤١

هولندا ٢١٣

(و)

وادي الحجارة ٤٠

والبه ١٠٠

وستيفال ١٠٣

وشقة (مدينة) ١١٦ - ١١٧ - ١٢٢ - ١٢٣

الوليد بن عبد الملك ٣٧ - ٤٤

(ي)

ياجوج وماجوج ١٦١

بابسة (جزيرة) ١٣٧

يحيى بن حكم ١٢٨

يزيد بن عبد الملك ٤٩

يليان ٤٠

اليمن ٨٧ - ٢١٠

يوسف بن عبد الرحمن الفهري ٩١

اليونان ١٣٠ - ٢١٢ - ٢٤٩

* * *

كشاف عام

الموضوع	الصفحة
مقدمة المعرّب	٥
- مقدمة المؤلف	١٥
القسم الأول : غزو المسلمين لفرنسا وسافوا	
وييمونت وسويسرا حتى اخراجهم من أربونة	
ولا تجدوك في سنة ٧٥٩ م /	٣٧
القسم الثاني : الانهيار الاوروي بين ٧٥٩ و ٨٧٦	٩٧
القسم الثالث : استقرار المسلمين في فرنسا	
وسويسرا حتى خروجهم منها	١٥١
القسم الرابع : خصائص الفتوحات الاسلامية ونتائجها	٢٠٩
كشاف عام	٢٦٩

كتب صدرت عن دار الحداثة

السلسلة التاريخية

- ١ - جوانب من التاريخ العربي - الاسلامي في ظل الهيمنة الأوروبية احمد عبيدي..... ١٧ ل.ل.
- ٢ - الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، سياسة التفكير الاقتصادي الاجتماعي د. عدي الهواري ٢٥ ل.ل.
- ٣ - علاقة التاريخ الرأسمالي بالفكر الايديولوجي العربي - مدخل نقدي - سمير امين ٨ ل.ل.
- ٤ - الفتوحات الاسلامية في فرنسا وسويسرا في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري - ج. رينو- ترجمة : د. اسماعيل العربي ٢٥ ل.ل.
- ٥ - تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج العربي ٧٤٩- ١٢٥٨ د. حسين علي المصري ٤٠ ل.ل.
- ٦ - سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية- بلزلي ترجمة : د. يسر جابر - مراجعة : د. منذر جابر
- ٧ - قراءة في وثائق الوكالة اليهودية في فلسطين - بو علي باسين .. ١٦ ل.ل.
- ٨ - اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية- برنارد لويس - ترجمة حكمت تلحوق..... ١٥ ل.ل.
- ٩ - في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج : نشأة التكوين المصري وتطوره - احمد صادق سعد ١٣ ل.ل.
- ١٠ - الجغرافيا توجه التاريخ ايسنر جوردن - ترجمة جمال الدين الدناصورى ٢٠ ل.ل.
- ١١ - الدولة المملوكية - التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري د. انطوان ضومط ٢٨ ل.ل.
- ١٢ - علم التاريخ ج. هرنشو - ترجمة عبد الحميد العبادي ٨ ل.ل.
- ١٤ - تاريخ العرب الاجتماعي ، تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي إلى النمط الرأسمالي احمد صادق سعد..... ٣٠ ل.ل.
- ١٥ - تاريخ الجزائر الحديث د. عبد القادر جفلول - ترجمة د. فيصل عباس مراجعة د. خليل احمد خليل..... ٢٥ ل.ل.
- ١٦ - تطور نظام ملكية الاراضى في الاسلام محمد علي نصر الله ٣٨ ل.ل.
- ١٧ - تاريخ العرب في الإسلام - د. جواد علي ٢٠ ل.ل.

- ١٨ - المغرب العربي الحديث سميّر أمين - ترجمة كميل داغر
١٩ - المسألة الشرقية حول القوميات في الدولة العثمانية ماركس -
ترجمة : جوزف عبد الله ١٥ ل.ل.
٢٠ - تاريخ اللغة العربية
جرجي زيدان - تقديم : د. عصام نور الدين
٢١ - الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر د. عبد القادر
جغلل ٢٥ ل.ل
٢٢ - الدولة الاموية والمعارضة - د. إبراهيم بيضون
٢٣ - المؤتمر العربي الأول وثائقه والنصوص الفرنسية المتعلقة به د.
وجيه كوثراني
٢٤ - حركة مايو ١٩٤٥ ، في الجزائر والمشرق العربي - عياد ثابت رضوان
٢٥ - السياسة الدولية في الشرق العربي ٥/١ - د. عادل اسماعيل
٢٦ - من وثائق الصراع العربي الصهيوني
د. سميّر أيوب

السلسلة الفلسفية

- ١ - التراث والقطيعة د. علي اومليل
٢ - الانتليجنسيا في المغرب العربي مجموعة بإشراف د. عبد القادر
جغلل
٣ - الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية جرجي زيدان ٢٠ ل.ل.
٤ - الفقه والسياسة - د. سعيد بن سعيد ١٤ ل.ل.
٥ - العقل والدين وليم جيمس - ترجمة : محمود حب الله ١٥ ل.ل.
٦ - مدخل إلى تاريخ الفكر العربي - د. افرام البعلبكي ٤٠
٧ - الماركسية والتراث العربي - الاسلامي مناقشة لآعمال حسين
مروة والطيب تيزيني د. ناياف بلوز - د. توفيق سلوم ، بو
علي ياسين ، نبيل سليمان ، علي حرب ، د. رضوان السيد ،
فرج الله صالح ديب ٣٠ ل.ل.
٨ - ما هي الاستمولوجيا ؟ - د. محمد وقيدى ٢٠ ل.ل.
٩ - الفكر السياسي الاسلامي مونتغمري وات - ترجمة صبحي
حديدي ٢٠ ل.ل.
١٠ - محاورات في الدين الطبيعي - هيوم - تقديم د. فيصل
عباس .
١١ - مقدمة في تاريخ الفكر السياسي العربي - د. سهيل القش .

سلسلة العلوم الاجتماعية

- ١ - ابن خلدون معاصراً د. محمد عزيز الحبابي ترجمة د. فاطمة الجامعي الحبابي ١٧ ل.ل.
- ٢ - الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون - د. عبد القادر جفلول ١٤ ل.ل.
- ٣ - الأساطير والخرافات عند العرب - محمد عبد المعيد خان ١٢ ل.ل.
- ٤ - استئناف البدء - محاولات في العلاقة ما بين الفلسفة والتاريخ د. وضاح شرارة ٢٦ ل.ل.
- ٥ - القرية وسوسيولوجيا الانتقال الى السوق فرج الله صالح ديب ٩ ل.ل.
- ٦ - التغيير الاجتماعي وحركات المودة - د. حاتم الكعبي ٢٠ ل.ل.
- ٧ - السوسيولوجيا والتاريخ - ل.م. درويشيف ١٠ ل.ل.
- ٨ - المدرستان الاقتصادية والميكانيكية في علم الاجتماع سوروكن ترجمة : د. حاتم الكعبي ١٣ ل.ل.
- ٩ - العرب والديمقراطية - د. خليل احمد خليل
- ١٠ - العرب والقيادة - بحث في علم اجتماع القيادة عند العرب د. خليل احمد خليل ٢٠ ل.ل.
- ١١ - مناهج البحث العلمي - كورغانوف ترجمة : د. علي مقلد ١٠ ل.ل.
- ١٢ - نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية د. خليل احمد خليل .
- ١٣ - الطائفية في لبنان - حاضرها وجذورها التاريخية والاجتماعية د. فؤاد شاهين
- ١٤ - حول بعض مشكلات الدولة في الثقافة والمجتمع العربيين د. وضاح شرارة
- ١٥ - البناء الطبقي للفلسطينيين د. سمير ايوب ٣٥ ل.ل.

السلسلة الاقتصادية

- ١ - الاقتصاد السياسي
مدخل للدراسات الاقتصادية - د. فتح الله ولعلو
- ٢ - الاقتصاد السياسي - توزيع المداخل ، النقود والائتمان
د. فتح الله ولعلو
- ٣ - الاقتصاد العربي والمجموعة الأوروبية - د. فتح الله ولعلو
- ٤ - قانون القيمة والمادية التاريخية سمير أمين - ترجمة : صلاح داغر ١٢ ل.ل.
- ٥ - أزمة الامبريالية : أزمة بنوية سمير أمين - ترجمة : صلاح داغر ٥ ل.ل.
- ٦ - الصراع التكنولوجي الدولي شيرمان جي - ترجمة امينة المصري نور الدين ٣٠ ل.ل.
- ٧ - خمس مشكلات لعالم متخلف د. صموئيل عبود ٢٥ ل.ل.
- ٨ - مشكلات الاقتصاد الدولي المعاصر - د. حمدي الصباحي ١٢ ل.ل.
- ٩ - في التعريف بالنقود - د. حمدي الصباحي ١٢ ل.ل.
- ١٠ - مدخل الى الاقتصاد السياسي د. عبد اللطيف بن اشنهو ٤٥ ل.ل.

السلسلة العلمية

- ١ - مبادئ الطاقة الشمسية د. سهيل فاضل - د. الياس الكبة ٢٠ ل.ل.
- ٢ - الكيمياء العضوية - د. نعمان النعيمي
- ٣ - الكيمياء الكهربائية ، أسسها وتطبيقاتها ٢/١ - د. محمد محمد الصاوي

السلسلة القانونية

- ١ - القانون الدستوري والأنظمة السياسية د. احمد سرحال

لهذا الكتاب

لقد كان الفتح الاسلامي لحظة عابرة في تاريخ فرنسا ، ولو أنها لحظة لا يستهان بها . وأبرز ما اسفر عنه ذلك ظهور عدد كبير من الاقطاعات وثروات بعض الأسر مما لا تزال آثاره باقية إلى اليوم . فقد بسط العرب سلطانهم على الأودية والمناطق الخصبة الغنية في البلد ، فكان من الطبيعي أن توزع هذه الأراضي على الأشخاص ، مكافأة على جهودهم ، لقيامهم بدور كبير في الحروب التي انتهت بخروج المسلمين من فرنسا . وهذا ما حدث ، خصوصاً ، في مقاطعة جرونوبل وجاب وفي بروفانس السفلى⁽¹⁰³⁾ ، وهو إجراء سبق إن جرى العمل به في المقاطعات الشمالية الاسبانية .

ديوان المطبوعات

دار الحداثة

للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

لبنان - بيروت - ص.ب. ١٦/٥٦٣٦